

جرجيس فتح الله

مبحثان على هامش
ثورة الشيخ عبيدالله النهري

دراسات عن الثورة لثلاثة باحثين

ئاراس

جرجيس فتح الله

مبحثان على هامش

ثورة الشيخ عبيدالله النهري

دراسات عن الثورة لثلاثة الباحثين

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - شارع گولان - اربيل- كُردستان العراق

اسم الكتاب: مبحثان على هامش ثورة الشيخ عبيدالله النهري

تأليف: جرجيس فتح الله

من منشورات ئاراس رقم: ٩٥٦

الغلاف: مريم المتقيّان

الطبعة الثالثة، أربيل - ٢٠١٠

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة في إقليم كردستان: ٢٠١٠/١٥٤

بيان من المؤلف حول
القرصنة الفكرية وسراق حقوق الطبع

لبيت ممتنا رغبة السيد البارزاني في اقامتي بكردستان وبزيارة تمهيدية في نيسان الماضي لقيت فيها منه ومن السيد نيجيرفان ما لايسعني وصفه من معزة وحفاوة. وعرض الاقامة هو تشريف وامتياز بحد ذاته. فضلا عن كونه فرصة نادرة لمن مالت شمس حياته الى الغروب. لقضاء صبابتها بين من محضني الود ولم انسهم ولم ينسوني. بل لوثوقي بقدرة وكفاءة للمساهمة الفكرية في عملية البناء والنهضة الاجتماعية القائمة على قدم وساق هناك، تاركا للسياسة اهلها، وما حصدت منها الا المر والعلقم وبحكم صارم من القدر ان ابذل من ذات نفسي ما لا اجني منه غير التافه القليل الذي يسير ويبهج والضائع بين الكثير من اللوم والعتاب، ولا اقول ما يحط فيه من قدري ويشين، ويلقي ظلال الشبهات على ما يسطره قلمي. والجانب الكبير منه كان وقفا على شرح قضية الشعب الكردي ومتابعة مسيرته النضالية بتجرد المؤرخ الملتزم، معاهدا قرائي على التصريح بما اراه حقاً غيرَ مقتصدٍ ولامجاملٍ. وتلك هي ارائي الخاصة ابسطها ولا ارغم احدا على مشاركتي فيها ولا اضعها في خدمة احد. واسعدني كثيرا ان ارائي وانا محاط بسور العقلاء المتفهمين مقاصدي وحسن نيتي:

ولربما طعن الفتى اقرانه   بالرأي قبل تطاعن الاقران

لولا العقول لكان ادنى ضيغم   ادنى الى شرف من الانسان

وليس ثم كاتب ومؤرخ سلم من الذم ومن متاعب. وهي ليست، وربك، هينة بسبب ما تخلفه من هموم وجراح. وتعزيتي هو ما تلقاه آثاري القلمية من حفاوة عند ذوي العقول والمنصفين في رقعة واسعة من هذه الدنيا. فكتبي تطبع في الولايات المتحدة وفي لبنان وسورية والعراق ولاسيما في السويد. وبين قرائي السيد مسعود البارزاني نفسه الذي طالما ابدى تقديرا واعجابا بما اكتب في رسائل خاصة.

وفي اثناء لقائي به في المانيا اهديته مع من هم في معيته كتابي «زيارة للماضي القريب» وكان قد مر على صدوره عامان وبعض عام، وله فيه مكرمة. فقد صحح لي بقلمه نقاطا هامة في الفصل السابع منه الخاص بمحاولة اغتيال ملا مصطفى البارزاني الشهيرة.

وفي اثناء زيارة نيسان الماضي، كانت بانتظاري عملية قرصنة علنية لا تشرف مقترفيها. فقد

صدرت من مطابع السليمانية طبعة ثانية لهذا الكتاب بغلاف ازرق فاتح، لم يشر فيها الى انها طبعة ثانية. ولا الى اسم المطبعة التي نشرته، ولم تؤخذ بها اجازة لا مني ولا من صاحب دار النشر السويدية السيد فرهاد عبدالقادر المغترب الكردي العراقي. ووجد السيد فرهاد جوابا جاهزا فيه من الكبرياء مافيه على احتجاجه عند مسؤول الاتحاد الوطني المحلي. لم يقل له «اصبر لأتحقق من المركز» بل سارع الى نفي الواقعة قائلا «عليك ان تثبت قيام مطابع السليمانية بأصداره اولا! واذ ذاك لك ان تطالب بالحقوق».

من ناحيتي، لم يكن في وسعي الا ان اتخذ من هذا العمل الفاضح دليلا على صدق الشائعات الدائرة حول ما يحصل في ذلك الجزء من كردستان من انتهاك للحريات والملكيات واستغلال للنفوذ سيما بعد ان امتدت تلك الاعتداءات الى السطو على الافكار والمؤلفات.

ولاسبيل لي هنا الا المقارنة:

عندما اعتزمت دار نشر آراس التي تأسست في ذلك الجزء الذي يسيطر عليه الحزب الديمقراطي الكردستاني وبمبادرة من مؤسسها السيد نيجيرڤان البارزاني. إعادة نشر طائفة كبيرة من تراجمي ومؤلفاتي، كانت من الكياسة وسمو الخلق بان تبعث بالدكتور شوكت بامرني مسؤول العلاقات العامة خصيصا الى السيد فرهاد واليّ لأخذ موافقتنا مصحوبة بعرض مادي جعلتُه رمزياً واجزنا اعادة الطبع شاكرين.

وعليّ ان اذكر قارئي بان ذلك الجزء من كردستان الذي تمت فيه سرقة الكتاب، عرف بالرقابة الصارمة على المطبوعات التي يفرضها جهاز رقابة تابع للاتحاد الوطني الكردستاني. فلا يصدر مطبوع الا بأذنه. ولمعرفتنا تبعا بان المطابع هناك هي اما ملك الاتحاد أو هو المساهم الاكبر فيها والمشرف عليها اشرافاً تاما.

فما الذي حملهم هناك على اختيار هذا المؤلف دون غيره لتكثيره بطبعة ثانية؟ ولماذا وقتت تلك السرقة بزيارتي؟

ما اظن لتلك الجهة شيئا من الفطنة وبعد النظر والا لوجدت ان محتويات الكتاب تدين اولئك الذين اشعلوا نار الفتنة في العام 1964 قبل ان تدين اية جهة اخرى للعثرات التي انتابت الثورة الكردية. وللضعف التنظيمي والفكري الذي انتاب الحزب الديمقراطي الكردستاني. وهم من مؤسسيه وقادته وقد خرجوا من فخذه. واعود الى الوراء قليلا:

في العام 1996 شهدت كردستان العراق بعد خروج الشعب منتصرا - اكبر واخطر «قرصنة عسكرية» في تأريخ نضاله وبها حاول الاتحاد الوطني الاستئثار بالسلطة بالقوة والقضاء على الحزب الديمقراطي الكردستاني وزعامته. وهي ولاشك امتداد لما بدأ في العام 1964 وقد تواصل بكل انعكاساته الكريهة في وقائع الاعوام 1966-1966-1975-1986-1988-1993.

في احيان، كان القائمون بانشقاق 1964 يدينون انفسهم به. وكنت قد قرأت لكبير فيهم نعتا له

بالخيانة. ومهما اختلفت الاحكام في عملية 1996 تبعا للامزجة والتعصب، فسيبقى حكم التاريخ فاصلا وحكم الاعراف والاخلاق العامة صارما وهو القاء التبعة على البادئ بالعدوان. وتلك الشرائع والاعراف الدولية في عين الوقت تعطي الحق للمعتدى عليه بالتوسل بأي حيلة لدرء العدوان وحفظ النفس. وهو ما نطلق عليه: حق الدفاع الشرعي.

وبعدد من رموز قيادة الاتحاد الوطني الحالية ممن بعد نفسه وارثا لدعوى ذلك النزاع المشؤوم وتركته المثقلة، وهو ما اتيت الى وصفه في الكتيب الذي ضمنته تأليفي، يملكني العجب كيف اختارت هذه الجهة مؤلفي لطبعة ثانية وليس فيه تزكية لها بأي حال؟ وقد ادرك معظم قرائي غرضي من نفض الغبار عما كتبته في العام 1977 الا نفرا قليلا، فانا، انما اعدت نشره جزءا من كتابي هذا بسبب تلك الواقعة المأساوية فحسب غير عابئ بتقلبات الحظوظ، وقيام تلك النزاعات التي اساءت كثيرا الى سمعة نضال الشعب الكردي دوليا، بكل مشاهدها الهزلية ومفاجآت العناق والطلاق، والوصال والفراق المتواصلة. وليست يدي بل يد التأريخ هي التي عينت المسؤول عما جرى ويجري منذ 35 عاما، وانا لست غير راوية وقائع.

بقي الكتاب سنتين كاملتين تتداوله ايدي القراء ولم يتصد احد لانتقاده او نفي واقعة واحدة وردت فيه فما الذي حَفز معيدّي طباعته؟ أكان ذلك بسبب اعلاني الرغبة في الاقامة بكردستان؟؟.

ادرك الكثير من قرائي اختياري ذلك الوقت لتضمين كتاب "زيارة للماضي" بعض ماكتبته في العام 1977. وليس في نيتي غير امر واحد هو ان اترك الاحداث تنطق وتستنطق، وللتأريخ ان يدون وهو الذي يعين المخطئ والمصيب. وما انا في هذا الا احد المتفرجين الرواة، ليس له غير ان يعلن وجهة نظره الخاصة ويتركها ليحكم عليها بتوفر الدليل.

وقد عرف قرائي عني اني ماتنصلت من مسؤولية عن زلة أو خطأ. وكثيراً ما تقدمت الصفوف فوصفت نفسي بالسذاجة والغفلة وقصر النظر من خلال ممارستي الهامشية القصيرة في ميدان العمل السياسي والحياة العامة. كما انحيت على نفسي باللائمة لسكوتي الذليل حينا. ومشاركتي الضميرية، ان لم تكن الفعلية في وقائع باشرها غيري فجاريتهم فيها بسكوتي عنها. في حين لا اجد حتى هذه الساعة في اي ممن باشر تلك المسؤوليات وحفظت لهم ادوارا هامة فيها الشجاعة التي وجدتها في ذاتي. وانما بقيت محاولات التبرير والتنصل والاعتذار ومؤامرات الصمت وتمثيليات القاء الذنب على الاخرين، رائجة مصحوبة احيانا بالشتم والدس والوقيعة والسعي بالسوء عن طريق الهمس في الاذان، وان لم يكن شئ من هذا ميسورا ولم يكن هناك من يصلح كبش فداء، فهناك سبيل سهلة اخرى: لوم الاقدار ومعاندتها او مجرد سوء حظ وقوة قاهرة خارجة عن نطاق الاحتواء البشري.

ويحق لي ان اتساءل! أليس في كردستان كلها - بكل الاهوال والمصاعب التي عانتها - مخطيء واحد؟

الحركات السياسية وتنظيماتها القائدة، لاسيما تلك التي تهدف الى الانقلاب مصيري للشعوب والامم تستمد قوتها من المواجهة الصريحة والاقرار بالاخطاء، قبل ان تترك لأعدائها الفرصة لاستباقهم اليه وتسجيلها تهمة ضدها وضد القائمين بها. ولنا في الوقائع القريبة خير مثال:

الرئيس الروسي يلتسن يواجه امته عشية تنازله طالبا العفو والمغفرة لانه كما قال بالحرف الواحد: انه خيب ظنهم في تحقيق ما وعدهم به. وقبله بقليل وقف الرئيس الامريكي كلنتون يطلب المغفرة من شعبه لأنه نفى كذبا علاقة شخصية. وانتصب الرئيس الالماني يوهان راو حاسر الرأس في مقبرة ضمت اجداث ضحايا العهد النازي ليقول «اني انحني بذلة وخنوع امام الذين قتلوا وامام الذين لايملكون قبورا طالبا المغفرة عما جناه سلفي».

اذكر موقفا مماثلا شجاعا لرئيس الحزب الديمقراطي الكردستاني الحالي ببيان اصدره في 22 من ايار 1992 محملا نفسه فيه مسؤولية تاريخية. ولااذكر احدا سلك سبيله هذا بعده، وسأبقى مشيدا بإقدامه وقد دونته له في احد كتبي. ولقد رأينا عاقبة محاولة كتم الخطأ في المحنة التي يعانيها اليوم الحزب الديمقراطي المسيحي الالماني مؤخراً. انه لمما يشرف اي حزب او تنظيم سياسي ان يسبق الى الكشف عن عيوبه واخطائه قبل ان يستغل السكوت عنها ومحاولة تغطيتها والتستر عليها ليسبقه الى فضحها خصم له وهو غافل، مستلبا منه عنصر المبادرة.

وهذا هو الذي دفعني الى تضمين ما كتبته في العام 1977- كتاب «زيارة للماضي القريب». وها هي ذي كردستان تخطو عتباتها الاولى في ممارسة الديمقراطية وآية الديمقراطية الصراحة والشجاعة في بحث العيوب والاخطاء وكشفها للاعتبار بها والتأسي بعقابيلها. كان هذا غرضي وسيبقى دائما. وعلى اولئك الذين اقدموا على سرقة كتابي ابتغاء الدرس والوقيعة، ان ينظروا الى الكتاب كما ينظرون الى انفسهم في المرآة قبل ان يتبينوا فيه وجوه غيرهم. وعلى اولئك الذين غاب قصد الكاتب من مؤلفه من عقولهم ان يكونوا اكثر حذرا من الوقوع في شبكة صيادي الثعابين في البرك الموحلة.

ها هو ذا كتابنا الجديد مبحثان على هامش... "الا فلنختبر به حسن نية تلك الجهة التي سطت على (زيارة للماضي القريب) بمنحنا اياها مقدماً حق اصدار طبعة ثانية له مجاناً ومن دون تكليفها مؤنة الطلب او اغرائها بعملية قرصنة جديدة. افتراها فاعلة!*

جرجيس فتح الله

كاترينهولم - 2000/18/2

---

* اعادت هذه الجهة عملية السطو ثانية على مؤلفاتنا، بطبعها كتاب "مغامرة الكويت: الوجه والخلفية" بجزئيه من دون أخذ الموافقة او الإجازة ايضا. وكان قد صدر في اوروبا في العام ١٩٩١ .

الباب الأول

ثورة الشيخ عبيدالله النهري

المقدمة

ثلاث دراسات بقلم ثلاثة باحثين

يؤلف البحث الاول جزءً صغيراً من كتاب مازال غير مطبوع عنوانه:

«الحركة القومية الكردية، أصولها وتطورها وبالاصل الانكليزي» The Kurdish National Movement: Its Origin and Development مؤلفه هو الاستاذ وديع جويدة العراقي الاميركي المغترب، الفه بغية نيل درجة الدكتورية به من جامعة سيراقوز- وهي واحدة من اشهر واعرق الجامعات الامريكية. وقد حازها بدرجة شرف على ما بلغني. تم ايداع مؤلفه هذا بالميكروفيلم في خزانة الجامعة وهو ميسور لمن يطلب نسخة منه. فالكتاب لم يوضع بعد مطبوعا بيد القراء مع الأسف الشديد. وهو بمجلدين يناهز عدد صفحاتهما التسعمائة. ومع ان مؤلفه وقف به عند العام 1960 وهو عام تقدمه لنيل درجة العلمية، فهو بمدى علمنا من اضخم واوفى الكتب ان لم يكن من ادقها - في موضوعه ألّف حتى الآن.

وفي نفسي هنا ان اتحدث قليلاً عن المؤلف (وديع)، وصلتي به والظروف التي جمعتنا وفرقتنا وهو الاقل من الوفاء والاعتراف بفضل هذا الباحث المنسي على المكتبة الكردية والقضية الكردية.

عرفت (وديع جويدة) في ايام دراستي ببغداد في كلية الحقوق. وانا وشقيقه (زهير) في الصف الثاني منها وهو يسبقنا بصف واحد. والغرابة في الأمر اننا لم نتعارف في اروقة الكلية او مقاعد الدراسة. فأنا كنت منشغلا بالتدريس في الثانويات الاهلية سدا لمصروفاتي. مثلما كان هو يستعين بعمل ما لسد نفقاته الخاصة فلا نختلف الى الكلية كثيرا فكان لقاؤنا وتعارفنا ثم رابطتنا الوثيقة بعدها، في منزل قريبة له حيث كنت مستأجرا غرفة لديها واظنني كنت اكثر منه اطلابا لهذه العلاقة، لما اكتشفت فيه ميلا عظيما للمطالعة وتضلعا باللغة الانكليزية ولوقوفه الواسع على آدابها ومفكريها وكتّابها وكنت اذ ذاك أوقّلُ بحذر شديد سلم العلم بها في سبيل التمكن منها، واخطو خطواتي الاولى في الترجمة عنها وهي مرحلة تجريبية صرفة ولطالما استعنت به في ايضاح بعض مصطلحات غامضة فيها.

وآل (جويدة) اسرة بغدادية معروفة نزحت من كردستان العراق قديماً. ويخطر ببالي ان عميدها (سلمان) كان واحدا من القلة المسيحيين الذين اسند اليهم عهد الاحتلال واوائل عهد الاستقلال- منصباً ادارياً ذا خطرٍ. وشقيق وديع الأكبر (عبدالمسيح) وهو ضابط الشرطة أقدم يحظى بمقامٍ خاص في مجتمعه اكبر مما يؤهله له منصبه لسعة اطلاعه وثقافته. وقد أصبح تاجراً معروفاً بعد استقالته

كما علمت انه ترجم الى العربية كتاباً خاصاً عن العراق ونشره مطبوعاً في أوائل الخمسينات. وعرفت (ألبرتين) شقيقتهم وهي طالبة في دار المعلمين العالية ثم معيدة في تلك الكلية وقد علمت من آخر لقاء صدفي بها في العام 1953 عن نزوح شقيقتها وديع الى امريكا وعن اعتزامها الرحيل هي الأخرى. وسمعت انها استقرت في انكلترا وكانت لها ابحاث وكتب ونشاط في الدوائر العلمية هناك.

كان بيننا فارق طفيف في السن قد لايتجاوز السنتين باي حال. لكن في تلك المرحلة من العمر كان يبدو فارقاً غير مؤهل لعلاقة صداقة كالتي نشأت بيني وبين (وديع) ولم تنشأ مع شقيقه (زهير) وهذا يقاربني سناً ونحن في صف واحد. لكن حبّ العلم والتتبع حطما هذا السد. وتخرج وديع. لكنه لم يزاول المحاماة فقد اثر البقاء بوظيفة في وزارة التموين. واذكر اني زرته مرة وانا على موعد معه وكان في غرفة جمعته بصديق الطرفين وزميلي في الدراسة الاستاذ المأسوف عليه (كامل قزانجي) الكاتب والمثقف الكبير شهيد الغدر والتآمر.

لاادري متى كان ذلك بالضبط، ربما في اوائل الخمسينات. فقد فوجئت وانا ازاول المحاماة في الموصل بمن يسأل عني وكان (وديع) بنفسه. والتقينا في نادي المحامين وقضينا جانباً كبيراً من ليلتنا نستذكر اياماً واحداثاً ثم افترقنا وكان آخر لقاء، ولم يعلمني بنيته في ترك الوطن نهائياً. وكان كعهده دائماً متبرماً ومتشائماً يطرز حديثه بتعليقاته الساخرة الحادة المعتادة، ومرت سنوات. وذات يوم وربما كان في اوائل العام ١٩٥٣ جاءني ساعي البريد برسالة من امريكا لم يكن من عنواني فيها غير اسمي وصفتي. واذا بها من (زهير) زميلي في الدراسة وشقيق (وديع).

اعلمني فيها انه يهيء رسالة لنيل درجة الدكتورية في (القانون الدولي الخاص المقارن) ويناشدني ان أجمع له ماوسعني جمعه من قرارات المحاكم العراقية في هذا الموضوع ليستعين بها في كتابة رسالته. ولأول مرة عرفتُ منه ان (وديعاً) قد لحق به فعلاً ومما ذكر لي ان الشقيق بخير وهو يعمل في احد المعاهد العلمية ومما يعمله في هذا الباب ترجمة وتحقيق كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي[1] بعد ان كفيت طلب زهير من القرارات، انقطعت المراسلة فجأة كما بدأت. ولا اذكر قط أنه اعلمني عن قيام (وديع) بتأليف حول الحركة القومية الكردية.

ومرت سنوات عشرون او نحوها في احداث جسام ونوائب كبار كثار في حياتي لامجال فيها للسؤال عمن عاش او مات من الخلآن وماذا كان من أمر هذا الصديق أو ذاك. تلك ايام ما كان فيها قول أصدق من قول ابن المعتز:

1- تخونني الذاكرة في اثبات مصدر معرفتي بالأمر. وربما كان غير (زهير) على اني كنت في حينه اعمل في ترجمتي كتاب (تراث الاسلام) والتعليق عليه. فنوهت بهذا تنويها عابراً في حاشية منه على فصل (الجغرافية) قلت وهذه هي العبارة انقلها نصاً عن الطبعة الثالثة للكتاب (ص 144) وهي طبعة دار الطليعة في بيروت (1978). «ولمعجم البلدان فضلاً عن طبعاته العربية واولها في 1323 هـ) طبعة أخرى في العام 1866) باعتناء العلامة وستنفلد بستة اجزاء، وقد علمنا بان صديقنا الاستاذ وديع جويدة انهى في الولايات المتحدة ترجمته الى الانكليزية».

عجباً للزمان في حالتيــــه وبــــلاء دُفــــعْتُ منــــه اليـه
رُبَ يَوم بكيتُ فيـه فــلمّـــا صـــرتُ في غيـــره بكيـتُ عليه

وفي شتاء العام 1973 قدم كردستان المحررة زائراً، صديق آخر من امريكا هو المرحوم الرفيق محمد سعيد دوسكي العضو البارز في الحزب الديمقراطي الكردستاني. والقنصل العام العراقي السابق في واشنطن. وخلال الأيام الطيبة التي قضيناها معاً في حاجي عمران خطر ببالي مرة أن أسأله عمّا اذا قد سمع عن زميل دراسة لي يدعى (زهير جويدة) فهتف: كيف لا؟ هو صديق وانا اتردد اليه احيانا وهو يحتل منصباً جيداً في مكتبة الكونكرس. واعلمني أيضاً بأنه لايجهل وجوداً لشقيقه (وديع) وقال انه يعلم عن مؤلفه وانه يعيش في ولاية أخرى، وهو متزوج.

طلبت منه ان يحمل سلامي اليهما. وغادر (الدوسكي) ومرّت اربع او خمس سنوات قبل ان التقيه في (كرج) بايران حيث كنت لاجئاً ولا اذكر اني استذكرته بما أوصيته ونحن في حاجي عمران. وظلّ مصير (وديع) وكتابه في ذهني معلقاً بخيط واهٍ، وكنت في شغل شاغلٍ بمعالجة همومي ومتاعبي.

بعد وصولي السويد، اعلمني الصديق الاستاذ (عمر شيخموس) المغترب والباحث في جامعة ستوكهولم أنه سبق واتصل بوديع وهو في زمالة دراسية بأمريكا في العام 1976-1977 وهناك اطلع على كتابه. فاتصل به. قال الاستاذ شيخموس:

«كان ومازال يعيش في مدينة بلومنگتن - إنديانا يحتل كرسي الاستاذية في جامعة إنديانا ولم يسأل الا عنك وعن الاستاذ ابراهيم احمد».

رجوت من الاساتذ عمر أن يعمل جاهداً للحصول على نسخة لي مصورة من مؤلَفه وبرّ بوعده وارسل لي النسخة المصورة قبل حوالي سنتين. فوجدته طبق ماوصفَ وفوق ماتوقعتُ. كان جهداً خارقاً، امتاز على كل ماكتب حول المسألة الكردية بأسانيد ومراجع لم تتيسر لغيره.

كشف (وديع) عن سر اهتمامه بدراسة هذه الناحية من تأريخ الشرق الاوسط وزالت حيرتي مقدمته بهذه الفقرة:

«يعود اهتمامي بالكرد منذ العامين 1943 و 1944 عندما كنت بوظيفة مفتش تموين للالوية (المحافظات) الخمس الشمالية في العراق التي يتألف منها كل الاقليم الكردي في تلك البلاد، وكانت واجباتي تتطلب التنقل الكثير في ارجاء كردستان والاتصال بالكرد على اختلاف مشاربهم واحوالهم ومنهم الموظفون الحكوميون ورؤساء العشائر الكرد ورجال دينهم...»

ثم ينثني ليعدد المصادر التي إعتمدها والمعاهد التي افاد من خزانات كتبها. وهي اكثر من الكثير ويكاد كلها غربي البُخار. وفي حينه استوقفني بصورة خاصة الفصل الذي عقده لثورة الشيخ عبيدالله النهري باستناده الى مراجع ومصادر لم تتيسر لغيره من قبل. لاسيما تلك المراسلات الدبلوماسية التي كان يتبادلها الممثلون الدبلوماسيون والقنصليون البريطانيون فيما بينهم ومع مرجعهم وزارة الخارجية. وقد حفظت جميعاً في محافظ ومجلدات مرقمة، تسهل مراجعتها في القسم المسمى دائرة

الرقوق العامة. وهي المعروفة بـ دائرة الوثائق الرسمية لصاحب الجلاله الملكية: Public Record Office London H. M. 1881 Stationary Office 1880 المراسلاتَ المتعلقة بالغزو الكردي لفارس: (تركيا: رقم 5 لسنة 2851.1881) هذا فضلا عن مراجع امريكية تخص الثورة بالذات وستجد اسما ءها واسماء مؤلفيها في هوامش الترجمة.

عند قرا ءتي كتاب "وديع" الذي احرزته بفضل صديقنا (عمر شيخموس) وقفت بصورة خاصة عند هذا الجزء منه وغالبني شوق كبير لتقديمه الى قراء العربية كرداً وعرباً. فبشكل ما ارتبط النضال القومي الحالي بما وقع قبل قرن من الزمان بالضبط، لاسيما وان كاتباً كردياً من الكتاب السوفييت، هو الاستاذ جليل جليلي، كان قد الف كتاباً باللغة الروسية، بعد ست سنوات على الاقل من انجاز (وديع) مؤلفه. خصص منه فصلاً لثورة الشيخ ومن الواضح ان الكاتب السوفيتي جليلي لم يطلع على كتاب جويدة.

صدر هذا الكتاب عن اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي [معهد شعوب آسيا - بموسكو] بيروت. وعملت له ترجمة بقلم [سيامند سيرتي]. وذكر المؤلف انه اعتمد لهذا الفصل على المراجع الروسية والارمنية، ولم ينس كذلك الاستعانة بالمراجع الغربية مع الاشارة بصراحة الى انها لاتخلو من شائبة التصنيع رغم انه اعتمدها الى حد ما لاسيما تلك التي اعتمدها صاحبنا (جويدة) وقد نوهت بها لكن لم يتيسر له على مايبدو النظر في المراجع والمضان الامريكية منها.

وكما قلت تقع ترجمة كتاب الاستاذ جليلي في 122 صحيفة إلا ان الجزء الذي كتبه عن الشيخ عبيدالله وثورته يكاد لايزيد على (40) صحيفة منه. اما البقية فكانت دراسات اجتماعية واقتصادية تمهيدية عامة تتعلق بكردستان مع ملاحق. وعليّ الاقرار هنا أن دراسة الاستاذ جليلي الغنية بالمعلومات ولاسيما اعتماده على الوثائق والسجلات الروسية التي تتيسر لصاحبي وديع ينتقص من قيمتها محاولته وضع هذه الثورة على القبان الماركسي. وتلك في رأيي هي الضريبة التي لم وجب ان يدفعها كل كاتب ومؤلف سوفيتي لتأمين موافقة الدولة على نشر مؤلفه سواء في الامر إن كان موضوعه في علم التاريخ او في علم الحشرات او التنقيب عن الحضارات الأولى في الربع الخالي من جزيرة العرب، أو في احواض الحيتان، فالمفروض على كل كاتب سوفييتي ان يستشهد بقول ما من ماركس أو (لينين) أو كليهما. أو حتى بحكم ستالين في ايامه الأسطورية وأن يهاجم بشكل ما امبريالية الغرب ويقول شيئاً عن تزوير الوثائق وتحويرها هناك ناسيا بأن عين التهمة وجب ان تسند الى وثائق روسيا القيصرية التي استند هو اليها. قص عليَّ مُطلعٌ موثوق ومن اهل الاختصاص عاش ثلاثين عاماً في موسكو وكان على اتصال باللجان التي عهد اليها بفحص المؤلفات المعروضة واعطاء الإجازة بها. إنها تبدأ فحصها المخطوطة المقدمة من الاخير أي من ثبت المراجع للتثبت من ان المؤلف رجع الى المآثر الماركسية اللينينية واستشهد بها، والا رفض طبع مؤلفه وحرم نشره. اننا على اية حال نراها ضريبة فكرية وجب على الاستاذ جليلي دفعها ليضمن طبع كتابه. وها نحن قد تجاوزنا عن ذلك الجزء الذي لاعلاقة له بالثورة نفسها عندما قرنا الحاقه بترجمتنا هذه. وهي لحسن الحظ كانت في

القسم الذي لايهمنا امره.

ثم طال بي التفكير ووجدت أخيراً ان في البحث «الشرقي» بمصادره الروسية يقدم وجهاً آخر للصورة وان من الحيف ان اضع بين يد القراء دراسة جويدة وحدها ليبقى الجانب الثاني من الصورة موضع حدس وتخمين. وكان عليّ ان اراجع ترجمة (السيد سيرتي) مراجعة تصحيح لغوي، وتثبيت للاسماء الواردة للاشخاص والاماكن الجغرافية بهويتها المعروفة والمتداولة. فالظاهر ان المترجم نقلها من الشكل الروسي الذي كتبت به دون يكون له سبق المام باصولها فجاءت محرفة تماماً.

تجد مثلا (سود جبولك) والمقصود هو (صاوبلاغ) مدينة مهاباد الحالية. و(اوشين) وهي اشنو او اشنويه و(اقبال الدفلي) وهو (اقبال الدولة) و(ايرزيندجان) وهي (ارزنجان). و(مالازغرت) وهي ملاذكرت و(دجولامرك) وهي (جوله ميرگ) واسماء اخرى كثيرة غيرها قمت باثباتها صحيحة.

وسيجد القارئ الفرق في الاسلوب الذي تناول المؤلفان به الموضوع. فالاول كتب وهو يملك الحرية المطلقة في بسط ارائه والرجوع الى مايحلو له من المصادر والثاني الذي عقبه كان يفكر ويعمل ويعيش في بلاد فرضت عليه فيها رقابة فكرية شديدة. ومن مفارقات الدهر أن لايتاح للاول نشر مؤلفه في حين اتيح ذلك للثاني

ثم رأيت ان اضيف الى هذين المستلين مستلاً ثالثاً من الكتاب الذي صدر في العام 1997، لمؤلفه البريطاني ديڤيد ماكداول David McDawell. وعنوانه «تأريخ الكرد الحديث A Modern History Of The Kurds وهو كتاب لايقل اهمية عن كتاب (جويدة) وقد بلغ مؤلفه بالاحداث والوقائع على الساحة الكردستانية حتى العام 1996. ويبلغ عدد صفحاته الخمسمائة من القطع الكبير. والمؤلف هو واحد من المتخصصين في شؤون الشرق الاوسط ومن الخبراء الثقات في الشؤون الكردية ومن كتبه التي لقيت رواجاً (فلسطين واسرائيل: الانتفاضة وما بعدها) وكان رئيساً لتحرير المجلة الشهرية «مجموعات الاقليات» التي تصدر في لندن. وهو منذ العام 1996 خبير مستشار لوزارة الخارجية البريطانية في شؤون الشرق الاوسط.

ولما كان التاريخ مخزن تجارب الأمم والرجال. فمن مقاصدي في تقديم هذا الجزء الهام لتاريخ نضال الكرد، وبعد مرور قرن واحد من الزمن عليه، ان يكون درساً بليغاً لمن حمل اليوم اعباء هذا النضال. وهو درس عظيم يلقنه قائد تلك الثورة السيئة الحظ.

ففيما ستقرأه هنا، تجد ان الشيخ لم يكن حريصاً على نصرٍ يحرزه في ساحة القتال او معركة يخرج منها جيشه ظافراً، قدر ماكان مهتماً بان يزيل عن اسم "الكرد" "وكردستان" تلك النعوت والصفات القبيحة التي دأب المستعبدون الصاقها به، والقضاء على السمعة السيئة التي اشيعت عن همجيته وشقاوته في المجتمع الاوروپي. فتلك كانت معركته الحقيقية. وهي عنده حجر الزاوية للنضال وكسب معركة الحرية. فبغير ذلك في نظره لايمكن تحويل الرأي العام العالمي واستدرار عطف المجتمع الاوروپي واهتمامه بقضية التحرر الكردي.

بكلمة مختصرة كان هدفه الاسمى هو ان تبدو معركة التحرر الكردية معركة أخلاقية نظيفة طاهرة يدة عن كل مايشوهها.

هذا هو الدرس الذي يقدمه الشيخ لطائفة من القوم الكرد الذين اتخذوا الأرهاب واشاعة الرعب لقتل الجماعي والفتك بالخصوم والحرق والخطف اسلوباً للاعلان عن وطنيتهم ووسيلة لبلوغ الاهداف نومية الكردية كما بزعمون وبينهم وبين شيخ نهري مائة سنة فتأمل!!

وديع جويدة

ثورة الشيخ عبيدالله النهري

وهو مستل من كتابه «الحركة القومية الكردية، أصولها وتطورها وبالاصل الانكليزي:

The Kurdish National Movement: Its Origin and Development »

تمّ ايداع مؤلفه هذا بالمكروفلم في خزانة الجامعة ولم يوضع بعد مطبوعاً في يد القراء

1

الخلفيات

الشيوخ وانتهاء الزعامة القومية اليهم

عمت الفوضى والقلاقل واعمال الشقاوة كردستان كافة، إثر القضاء على الامارات الكردية شبه المستقلة. ولم يكن من الصعب إستكناه علة هذه الحالة. ولنذكر ان الترك كانوا قد صمموا على اتباع سياسة القضاء على امراء الكرد وفرض الادارة المركزية. وفي الوقت الذي حققوا المرحلة الاولى فقد اخفقوا في الثانية عموماً. ان عجز الحكومة عن مد نفوذها الى المناطق الموعرة من كردستان، وفشلها في ممارسة سيطرة حقيقية عليها اصاب النظام الاداري الجديد بالعقم.

وهذا ادى الى ترك اجزاء كبيرة من المناطق التي كانت من املاك امراء البابان والسوران والبوتان وبادينان وحكاري نهباً لعديد من شيوخ القبائل الصغار، الذين كان الامراء الاقوياء قد حدّوا من سلطانهم ونشاطهم تحديداً شديداً. راحوا الان وهم مطلقو العقال يرتكبون كل مايخطر بالبال من تجاوزات واعمال شقاوة. لم يطل الامر بالفوضى لتغدو وباء مستشريا في كثير من هذه البقاع، كموطن (الهمه ماوند) في قلب امارة بابان. وموطن (الزيباريين) في منطقة حكاري وبادينان. تلك الحالة كما ذكرنا كانت نتيجة فشل الحكومة المركزية في ملء الفراغ الذي خلفه القضاء على الزعامة الكردية المحلية بالصورة الفعّالة. ازيح امراء الكرد الا ان مراكز السلطة التي خلت منهم لم تملأ. وبدأ الحل الوحيد المتاح للحكومة لمعالجة الوضع هو تجريد حملات تأديبية بين الفينة والفينة معززة بقوات عشائرية مُطوّعة، وكانت تمنى بالفشل في معظم الاحيان ولايتم القبض على ناصية الحال عادة، بصورة دائمية. وفي احيان كثيرة لايولد هذا الحل مزيداً من العنف وسفك الدماء واحتدام الصراع العشائري الداخلي.

لم يكن الصبر على هذا الوضع ممكناً لمدة طويلة، بأمن مفقود، وحركة تجارية مشلولة وباجزاء كبيرة من البلاد عملت فيه يد الخراب والتفكك.

وبدا المرسح معداً لظهور زعيم من طراز جديد في كل مركز من مراكز السلطة الذي خلا من أمراء الكرد الاسبقين. شخصية غريبة مألوفة من شيوخ معينين تنشر ظل سلطة عليا على بلاد عمتها القلاقل والاضطراب. فلاوّل مرة بعد زوال سلطة الامراء الكرد، برزت سلطة تفوق سلطة الشيوخ الصغار المحتربين وفرضت وجودها فرضاً.

وبهذا المنوال نبغ شيوخ (شمدينان) بزعامة الشيخ عبيدالله وتمت لهم السيطرة على الانحاء التي كانت تحت حكم امراء البوتان وبادينان وحكاري واردلان، اسوة بشيوخ البرزنجة الذين استخلفوا أمراء البابان، وشيوخ بارزان الذين نشروا سلطانهم على اجزاء من امارات بادينان وحكاري. وكان ثم شيوخ اصغر منهم شأنا واقل شوكة، إلا انهم ماكانوا ليقلّوا عنهم مقاماً واحتراماً وولاء من اتباعهم، وهؤلاء هم شيوخ القادرية البريفكانيين، وشيوخ النقشبندية في (بامرني) وكلاهما في امارة بادينان السابقة.

إن تبؤ هؤلاء الشيوخ مراكز القيادة القوية بين الكرد لايشير بحد ذاته الى مجرد المقدار الذي يتمتع به واحدهم من هيبة وولاء بسبب مقامه الديني بل هو كذلك دلالة على خلو كردستان بعد زوال الامراء الكبار، من شخصية علمانية قادرة على حيازة قدر من المهابة والمنزلة كاف لاجتذاب الجمهور.

إن تلك المبادرة التلقائية التي تَقَبل بها الكرد الشيوخ الروحانيين قادة وزعماء إنما يدل على مدى مابلغ شعورهم بالحاجة الى ملء فراغ السلطة الذي احدثه غياب الامراء، وهو كذلك يكشف عن ذلك الخواء السايكولوجي الذي خلفه في الفكر القومي الكردي. إن غياب شخصية بارزة مُهيمنة بعد العام 1847 تجسم كل المثل الرجولية للمجتمع القبلي بدا ظاهرة غير طبيعية من جهة ولغزا غير مفهوم عند الكرد في عين الوقت. ومنذ أصيب نظام قيمهم الروحية بالرجة العنيفة. بدا وانّ أمراً من اكثر مايصبون اليه ويمنون النفس به بعيد المنال. فالكرد شأنهم شأن معظم المجموعات البشرية البدائية المحاربة، كانت عبادة الابطال سجية متأصلة فيهم. ومما لاريب فيه ان هؤلاء القوم الفطريين كانوا عموماً يعيشون جوّ العصر البطولي ويتطلعون الى شخصية من لحمهم ودمهم تمارس السلطة عليهم.

ظهور الشيخ عبيدالله:

كما أسلفنا، كان قيام الشيخ عبيدالله إشارة الى ولادة طراز جديد من الزعامة بين الكرد. وكان اول الزعماء الكرد الروحانيين - الزمنيين في كردستان، بل ربما كان اعظمهم شأناً. وقد تألبت ظروف عدة لرفع الشيخ الى مقام الزعامة العليا على ابناء شعبه. فالى ماأشرنا اليه سابقاً من اخضاع الامراء الكرد وتجريد الكرد من زعمائهم الوطنيين وماتلا ذلك من شيوع الفوضى واختلال النظام والازمة الاقتصادية التي انداحت في طول كردستان وعرضها، كانت هناك الحرب التركية - الروسية في 1878 - 1877 - التي زادت وبنتائجها، من الدمار والخراب في الاقاليم الشمالية الشرقية مما لم يسبق له مثيل في آثاره الوخيمة على البناء الاجتماعي والاقتصادي. لم يسبق لكردستان ان واجهت مثل هذا التحلل في مجتمع مهدد باعمال العنف والتعرض لأخطار الاوبئة والمجاعات بحكومة كان عجزها واضحا للعيان في تأمين الحاجات الضروية واعمال اغاثة آنية. كان الكرد اكثر من اي وقت يتطلعون الى قائد منقذ يخرج من وسطهم، وبدا الشيخ عبيدالله ذلك القائد المنشود فهو عميد أسرة مشايخ شمدينان، ونجل الشيخ طه الجليل القدر. وارث منزلة اسرته الدينية وسمعتها الداوية في العالم الروحي. عندما خلف عمه (الشيخ صالح) رأسا للطريقة النقشبندية، ما عتم أن رآى ابناء وطنه فيه مبعوث العناية الآلهية، والواقع هو انه وجد نفسه كذلك. إذ أن قدراً كبيراً من الشهرة والنجاح الذي

ناله فيما بعد، وجب ان يعزى الى ايمانه الراسخ بأن الاوضاع الراهنة ماعادت تحتمل ليبدو وكأنه الرجل المنتدب لتقويم الامور واصلاحها، وانه صاحب رسالة مثلما كان اتباعه ومؤيدوه برونه بهذا المعيار.

جمع الشيخ في ذاته شخصيتي الزعيم القومي الذي اوقف الذي نفسه لمصلحة شعبه وشخصية المسلم الورع المعتزم إعادة التقيد باحكام الاسلام النقية في سائر انحاء وطنه. كان مؤمنا ايمانا راسخاً بان فساد الحكومة، وافاعيل اشرار الرجال هما سبب الدمار الشامل الذي ابتليت به كردستان. وان الواجب الملقى على عاتقه تحقيق العدل، واستتباب الأمن والقضاء على الفوضى ووضع حد للشر بكل اشكاله.

في ذلك الزمن العصيب كان لظهور زعيم ينطق بلسان نبي ويتصرف بسلطان آمر، مستجيب لمعاناة ابناء وطنه بعاطفة جياشة- تأثير صاعق شامل على الشعب الكردي الذي بهرته قداسة أسلافه، فضلاً عن صلاحه وتقاه هو نفسه الى جانب قوة عارضة فيه. والدور الذي كان الشيخ يتطلع اليه، جاء على غير انتظار او توقع من حرب 1877-1878 وما تلاها من احداث. فإسناد منصب قيادة العشائر الكردية اليه اثناء تلك الحرب كان له ابعد اثر في مجريات الاحداث بعدها في كردستان وربما كانت العامل الرئيس لبروز زعامته القومية. هذا المنصب كان بعني اعترافاً رسمياً بزعامة الشيخ في كردستان وبأثر مساوٍ لاي تقليد رسمي لمنصب أنكِر على اي كردي منذ العام 1847. والشيخ وقد وجد نفسه مرة في مركز القيادة العليا لعدد ضخم من مواطنيه لم يكن مستعدا للنزول بسهولة عن هذا الدور.

الاقدار اصطفته، وككل رجال الاقدار بات منذ ذلك الوقت اداة من جهة ومحفزاً لانطلاق قوى لاقبل بدفعها من جهة اخرى وبفترة قصيرة لاتتجاوز بضع سنوات بات الزعيم القومي الكردي المعترف به. ومن بين عدد من الكتاب، يقدر (كرزن) أهمية العامل الديني في ظهور الشيخ وبلوغه أعلى مراكز السلطة قال: «زعيم قبائلي يدعى شيخ عبيدالله... تمتع باعظم سمعة بفضل قداسة شخصه... وصار ينظر اليه بالتدريج بوصفه زعيماً للقومية الكردية»[1] وينوه تروتر Trotter المعاصر للشيخ بذلك الاجلال العظيم الذي يحيطه به ابناء قومه:

«بات من المؤكد ان اكبر الرجال نفوذاً في شرق كردستان هو الشيخ عبيدالله، وعند اكراد الحدود كان شخصه وسلطته أقدس واعظم مهابة من السلطان نفسه»[2].

1- Persia and The Persian Question: فارس، والقضية الفارسية [ج 1ص 553.ط لندن - لونكمان وكرين 1892. (قلنا) جورج نثانيل كرزن George Nathaniel Curze [1859 - 1925] من الساسة البريطانيين المعروفين بخبرتهم في الشؤون الآسيوية. كان بوظيفة نائب الملك في الهند (1898- 1905) وتقلد وزارة خارجية بلاده (1919 - 1924) ويعتبر كتابه المشار اليه واحداً من اهم واوثق المصادر في بابه.

2- رسالة في المحفظة رقم 22. من (تروتر) الى (كوشن) طرابيا (طرابزون) في 20 تشرين الأول 1880، تركيا رقم 5.(1880) ص 17.

وأجمل: إس. جي. ولسن وصف المركز الديني الذي يحتله بهذه العبارة:

«... هو يلي السلطان وشريف مكة في اقدس منزلة عند سنية كردستان، وهناك الوف مؤلفة مستعدة للائتمار بأمره، لا كزعيم فحسب بل كرسول من الله»[3].

وبرأي الدكتور كوچران الذي عرف الشيخ خير معرفة وكان على صلة وعلاقة متينة به. إنه كان يُعد نفسه ثالث اعظم الشخصيات العظمى في مقام التسلسل الديني للإسلام فضلاً عن كونه ملك الكرد الدنيوي[4].

طبائع الشيخ وشخصيته:

لدينا معلومات كافية من هذه الناحية، ومع هذا فليس من السهولة ان نرسم صورة دقيقة لهذا الرجل الغريب المعقد. وحول اوصافه الجسمية ومظهره لم يصلنا إلا الاقل من القليل. ومن هذا القليل لدينا مانقله الدكتور كوچران الذي انتقل الى منزله في قريته (نهري) ليشرف على علاجه من علة اصيب بها. وكوچران هذا الذي تحدث كثيراً عن خلق الشيخ وسجاياه الشخصية لم يجد مايقول حول مظهره الجسماني غير هذا:

«الشيخ يبلغ خمسين عاماً من العمر، جذاب الى حد كبير في مخبره، وهو يرتدي حلة فضفاضة من جبة واسعة الاطراف والاكمام. ويعتم بعمامة بيضاء»[5].

وعلى مايبدو فان الشيخ كان قد خلف انطباعا حسنا في كل من عرفه أو عرف عنه، والمصادر كلها تجمع على مبلغ تقواه واستقامته وتفانيه في اداء الواجب وفي هذا يحدثنا (كوچران):

«تختلف اخلاقه بينا اختلافاً عن كل مايلاحظ في الموظفين الفرس والاتراك معاً. فهو وابنُ له يتوليان النظر شخصياً في كل مشكلة تعرض عليهما مهما صغر شأنها أو بلغت من الصغر... وتجده هو وولي عهده منهمكين من اولى ساعات الصباح حتى وقت متأخر من الليل في تدبير شؤون الحكم ورعاية مصالح الشعب»[6].

3- Persia and The Persian Question: ولسن Persian Life and Custums الحياة والعادات الفارسية (نيويورك ط شركة فلمنگ وهـ. رفل 1900ص 110. وانظر ايضاً Robert Spier: The Hakim Sahib The Foreign Doctor. A Biography of Joseph Plum Cochrom M. D. of Persia روبرت سپير حكيم صاحب. الدكتور الاجنبي. سيرة لجوزف پلوم كوچران الطبيب بفارس. نيويورك 1911 ص 74.

4- من تقرير الدكتور كوچران مؤرخ في 1 حزيران 1880 مرفوع لمجلس ادارة البعثة التبشيرية نقله (سپير: المرجع السالف ص 75). قارن به الرسالة 4 في رقم 8. مقتطفات من رسالته الى القنصل العام ابوت Abbot في اورمية. مؤرخة في 8 من تموز 1880. تركيا: رقم 5 (1881) ص 9. ومع ان اسم الدكتور كوچران لم يظهر في هذا المرجع الأخير. فان المضاهاة بين الرسالتين تثبت بشكل قاطع ان كاتبها هو كوچران ايضاً.

5- سپير المرجع السالف ص 79.

6- الرسالة 4 في رقم 8. مقتطفات من رسالة الى القنصل العام في اورمية (أبوت). 8 من تموز 1880. تركيا رقم5 1881 ص9.

والتقشف وعيش الكفاف هو الآخر من طباع الشيخ ويبدو انها خلّفت في اعضاء الارسالية التبشيرية انطباعاً عميقاً. يشير (كوچران) الى بساطة عيشته المنزلية ملاحظا بنوع خاص:

«لايدخل بلدته اي مشروب كحولي»[7].

في حين يصفه (ولسن) بالبساطة في اللباس وفي الطعام[8].

ونزاهة وحياد. رغم ان مظهر العدالة الصارمة كان طابع تصرفات هذه الشخصية المهيبة المخيفة بوصفه على حد عبارة ولسن، مشترعاً وقاضياً.

اشتهر بالفضيلة وحياد احكامه وعدالتها. وبالقياس الى الفساد وخراب الذمة، وهما الداءان المستشريان في فارس وتركيا، بدا من العجب إصرار الشيخ ونجاحه في فرض مبادئ رفيعة للاستقامة والعفة بين اتباعه. مامن شك في انه كان يبدو احياناً شديد القسوة حيث لاموجب لذلك - في فرض تلك المبادئ على شعب لم يتعود مثلها قبلاً، يقول (كوچران):

قالوا عنه انه حاكم منصف وقاض عدل. لايقبل رشوة مطلقاً ولايدع مرؤوسيه يفعلون ذلك. الموت هو جزاء من يخرق قانونه هذا[9].

على أن مايبدو هو أن الشيخ لم يكن يرى حدوداً تفصل بين ارادته وبين القانون فكثيراً ماكانت عاقبةَ تحدي ارادته، ادانةٌ وعقابٌ آنيان. فمرة عندما بلغهُ ان زمرةً من اتباعه نهبوا قرية رغم تعهده بحمايتها، أمر فوراً بصلب السُراق المنكودي الحظ. ولعل هذه الحادثة كانت تحتل فكر (كوچران) عندما وصفه بذلك القاضي العادل والحاكم الرؤوف بشعبه شريطة ان يمتثلوا لأمره ويخضعوا لارادته.. وبخلافه فهو في منتهى القسوة[10].

وينبغي ان لايغرب عن البال على اية حال - بان مثل هذه القسوة لم تكن ظاهرة شاذة ايام ذاك في كردستان. ثم ان الشدة والقسوة على مايبدو كانت من طبائع القادة الأفذاذ[11].

والشيخ بوصفه رئيساً دينياً عظيم القدر كان لاشك واقفا على كل ماهو معروف من العلوم الدينية في بلاد الاسلام[12].

وافادنا الدكتور (كوچران) بأنه كان جيد المعرفة بآداب اللغتين العربية والفارسية انه كان يقرأ في

7- المرجع السالف.

8- ولسن المرجع السالف ص 110.

9- الرسالة 4 في رقم 8 مقتطف من رسالة موجهة الى (أبوت) القنصل البريطاني العام في اورومية بتاريخ 8 تموز 1880. تركيا رقم 5(1881) ص9.

10- مقتطف من رسالة لشقيقة الدكتور كوچران. نقلها (سبير) المرجع السالف ص 96.

11- من رسالة كتبها الدكتور كوچران لصديقه (مستر كليمنت) نشرت في مجلة Buffalo Commercial Advertiser مؤرخة في 26 تموز 1880. نقلها سبير (المرجع السالف ص60).

12- يشمل ذلك تفسير القرآن. وعلم الحديث والفقه وعلم الكلام والتصوف وما اليها.

الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) من بين كتب أخرى وان الدكتور كان قد زوده بنسخة. وكمعظم مثقفي الكرد لابد كان غزير الاطلاع في الأدب الكردي وفولكلوره. غير ان معارفه في فروع العلم الحديث بدت محدودة.

وفي هذا الصدد يسترعي انتباهنا الى حد كبير ذلك الحديث المتبادل بينه وبين الدكتور مرة حول مواقع مختلف العواصم جغرافياً بعضها عن بعض قال الدكتور:

«ذات يوم وفي خلال حديثنا، تناول (الشيخ) سفرجلة ووضعها على طرف وقال: الآن يادكتور هذه نوچيا (منطقته). والآن عيّن لي اين تقع موسكو واين تقع لندن وطهران.

فتناول كوچران كمثرات واجاصات وقام بعمل خريطة منها لتلك البلاد من اجل هذا الطفل الكبير[13]. في حين تكشف هذه الحكاية عن قصور الشيخ في مبادئ الجغرافية الأولى، فأنها تقوم شاهداً على جانب يسترعي الاهتمام من شخصيته، فهي تدل على تواضعه وبساطته وعدم تحرجه من السؤال كاي طالب علم مبتدئ.

واشاد كوچران بحرارة، بذكائه وتعطشه للمعرفة. قال:

«بدا لى انه كان يجد متعة في تناول كل الموضوعات بالحديث معي. وقد استمتعت حقاً خلال الاسبوع الذي قضيته في صحبته باحاديث في غاية من الطلاوة. ووجدته شديد الاهتمام بسماع كل ما يمكن عما هو مستحدث من المخترعات وغير ذلك من اعاجيب العالم الغربي الأخرى[14]»

والتسامح هو واحدة من تلك الخصال الفريدة التي يمكن اضافتها الى خلق هذا الرجل العظيم. وهي ميزة عز وجودها عند المحاربين والعسكريين والشيخ كان عسكرياً ومحارباً. فقد بدا سمحاً متفتح العقل، ولاحظ عدد كبير من المبشرين هذا الجانب المشرق في اخلاقه واعجبوا به الى أقصى حد. وقلده (سبير) حلة قشيبة من الثناء إذ نعته بالرجل المتسامح، ذي الوجدان الواسع الرحاب حين اشارته الى سلوكه الودي مع الاجانب وحسن معاملته للمسيحيين، مستشهداً بحكاية عميقة المغزى لاسبيل الى الشك في صحتها وان شابها شيء من المبالغة والتزويق وتأتي واقعيتها باتفاقها وسمو خلق الشيخ.

يحدثنا (سپير) بان الشيخ وهو معتقل في القسطنطينية - سئل من قبل السلطان ان يكتب له وصفاً لاحوال سكان كردستان:

فكتب الشيخ في ورقته الشيء الكثير عن المسيحيين النساطرة (الآشوريين) هناك مادحاً إياهم بقوله انهم افضل رعايا السلطان. فاعترض السلطان على لغته هذه، واعاد اليه رسالته ثلاث مرات لتصحيح رأيه. اخيراً قال الشيخ إن علمي في امور السياسة ليس بالكثير. لكني اعرف شيئاً عن قول الحقيقة وهذه هي الحقيقة[15].

13- مقتطف من رسالة كتبتها شقيقة الدكتور كوچران. نقلها (سپير: المرجع السالف ص/8).

14- كذا.

15- المرجع نفسه ص 80.

ويقوم الدليل على ماطبع عليه الشيخ من كرم، معاملته للدكتور كوچران بعد ان فشل في احتلال اورمية. فبطلب من السلطات الفارسية توسط الدكتور ونجح في اقناع الشيخ بتأجيل هجومه على المدينة مدة أربع وعشرين ساعة. وبفضل هذه المهلة، انقذ الفرس المدينة فقد مكنتهم من تحكيم دفاعاتهم عنها. وكانت هذه النكسة بداية انهيار حركة الشيخ. إذ ماعتم جيشه بعدها ان انكفأ على عقبيه في تقهقر تام. مع هذا لم يصدر عنه في اي وقت ماينم عن لوم وعتاب لكوچران وبحسب قول لاباري Labaree:

"لو شرع الشيخ في هجومه قبل ذاك. فمن المحتمل انه كان سيظفر بالمدينة بصولة واحدة. مع هذا لم يبد من الشيخ عندما قابلناه فيما بعد شيء ينم على انه يلقي المسؤولية على الدكتور، بل راح يتهم الفرس بالنفاق والخداع[16].

إن ثبات الشيخ في وجه الخطوب. ورفضه الارتياب بسلامة نية واخلاص ذلك الذي ساهم ربما بسوء تقدير منه - في سقوطه - يقيم الدليل على شهامة فيه وتسامح.

16 سپير المرجع السالف الص 74 - 75.

2

اهداف الشيخ ونشاطه

[وحدة الكرد واقامة دولة كردية]

هدف الشيخ الأساس هو توحيد الكرد ضمن دولة كردية مستقلة.

لسنا ندري بالضبط متى اختمرت هذه الفكرة في ذهنه، لكننا ندري بأن الاحداث التي واكبت حرب 1877 - 1878، وتخلفت عنها، كان لها تأثيرها الكبير على بلورة هذه الفكرة. ويبدو ان علو شأن هذا الصوفي والوطني البيوريتاني[1] التائق الى الاضطلاع بالقيادة العليا لابنا، جلدته في تلك الايام العصيبة الحافلة بالخطوب أحدث تغييراً ثابتاً عميقاً في منحى تفكيره وهو بالنسبة اليه دليل على نعمة آلهية خصّ بها صلاحه وايد ايمانه بسمو قيادته الفذة، ولاريب في ان ممارسته السلطة الواسعة احدثت من جانبها تغييراً متطرفاً في طبيعته ومدى طموحه. فعندما أخلى الاهتمام القديم المحدود لزعيم محلي مكانه لاهتمام اوسع رحاباً بخدمة شعب بأسره، عند ذاك اتخذت فكرة كردستان مستقلة شكلها الواضح وباتت تحتل حيزاً من عقله. ذلكم هو رأي عدد كبير من المراقبين المعروفين بدقة الملاحظة فيذكر كلايتن Clayton نائب القنصل البريطاني عن هذا:

"أميلُ الى الاعتقاد بأن لديه (يقصد الشيخ) مخططاً كاملاً يرمي به الى توحيد الكرد في دولة مستقلة يقوم هو على رأسها[2].

وكتب وليم آبوت William Abbot القنصل البريطاني العام في تبريز ايام الغزو الكردي فارس ملخصاً اهداف الشيخ بهذا:

قصده أن يضع نفسه على رأس دولة كردية. وتوحيد كردستان برمتها بما في تركيا وفارسمنها[3].

1- قلنا دخلت هذه الكلمة القاموس الانكليزي منذ العام 1560 للدلالة على التمسك الشديد الخالص بالعقيدة. وكان ينعت بها هناك فريق من البروتستانت انشقوا عن الكنيسة الرسمية في انكلترا واخذوا على أنفسهم صرامة تطبيق احكام الديانة. وعقب ثورة لهم طوردوا من خلالها واضطهدوا لجأ كثير منهم الى العالم الجديد.

2- رسالة من كلايتن الى تروتر (وان) 27 تشرين الاول 1880. تركيا رقم 5(1881) ص 32.

3- محفظة (1) رقم16. من آبوت الى تومسن (اورمية) في7 من تشرين الاول 1880. (تركيا رقم 5 في 1881 ص47).

وهناك رأي مطابق أدلى به تروتر القنصل البريطاني العام في ارضروم، نوه فيه بمدى طموح الشيخ اقليمياً:

"لايخامرني شك كبير في أن هدف الشيخ الأوحد، هو انقاذ بلاده من إسار موظفي السلطان واعلان نفسه حاكماً لكردستان، وأقصد الانحاء الجنوبية لـ(وان) والجزء الشمالي من ولاية الموصل، وأن يمد مجال نفوذه قدر ما استطاع الى أقصى مايمكن من الجهتين[4].

في حين نجد تومسن Thomson الوزير المفوض البريطاني في طهران يقوم خطط الشيخ في محاولة اقامة امارة كردية مستقلة، والوسائل التي ينوي استخدامها لتحقيق هذه الغاية:

«مما لاريب فيه يظهر من هذه (الحركة) ومن المصارحات والرسائل التي بعث بها مؤخراً الى مختلف الزعماء الكرد على طول خط الحدود الفارسية، أن نيته هو تحويل ولاء الاهالي الكرد برمتهم وفصلهم عن تركيا وفارس واقامة دولة كردية مستقلة منفصلة بزعامته. وهو بسبيل ذلك يحاول بالوعد والوعيد إثارة جميع العشائر الكردية وحضّها على الانضمام اليه في حرب سافرة ضدّ هذه البلاد، فارس»(5).

فهذا هو اذن الواجب الذي وطّد النفس على انجازه، مسخراً كل طاقاته وبراعته وبقدر كبير من بُعد النظر السياسيّ.

الأسباب التي بررت للشيخ مطلبه في وحدة الكرد بدولة مستقلة فرضت نفسها عليه. أملتها باصرار وقوة حتى انه كان ينوه بها دوما في مراسلاته ويطيل فيها ويسهب في مساجلاته وتصريحاته مؤكداً تلك الأسباب بحرارة عقيدة لامراء فيها. وان كان هناك شك بوجود حسابات مقصودة، فهذه هي باختصار:

(1) المطابقة العنصرية والثقافية واللغوية للكرد، وهي الصفات التي جعلتهم قومية متميزة بحد ذاتها
(2) الدمار والخراب الذي احدثه سوء الحكم الفارسي والتركي في كردستان وكان من نتائجه الفوضى، واعمال الشقاوة وتفشي الجريمة مما اضر بسمعة الشعب الكردي
(3) الخوف من غلبة الأرمن وما ستجره يقظتهم القومية على كردستان.

وسنتناول فيما يلي كل واحدة من هذه النقاط بالشراح الموجز:

---

(4) مقتبس من رقم 22. تروتر الى كوشن Coschen. طرابزون.5 في تشرين الاول 1880 (تركيا رقم 5 في 1881، ص 16).

(5) رقم 61 من تومسن الى لورد گرانفيل. طهران 31، من تشرين الأول 1880، تركيا رقم 5 (1881) ص 15 (قلنا) اللورد جورج لڤين - گاور اوف گرانفيل (1815 - 1891) وزير خارجية بريطانيا في وزارة غلادستون، رئيس الحزب الحر. تولى وزارة الخارجية لأول مرة خلفاً لپالمرستون في 1846 وتقلب في مناصب عدة وتولى الخارجية ثانية في (1870 - 1874) وثالثة في (1880 - 1885).

الأصل العنصري الواحد للشعب الكردي:

بمحاولة النفوذ الى اعماق فكر الشيخ، من المهم جدا استطلاع مفهومه الخاص للقومية الكردية، وماهية المُثُل التي يؤمن بها في هذا المجال. والذي يبدو ان الشيخ كان مقتنعاً تماماً بان الشعب الكردي يؤلف قومية قائمة بذاتها. متطابق بمجموعه عنصرياً ولغوياً، وتقاليد واسلوب عيش واحد فضلا عن مظاهر أخرى مشتركة. وهوية خاصة بهم وهي ظاهرة فيهم لاتحتاج الى برهان. وفي رسالة للمبشر الامريكي (كوچران) وجدنا الشيخ يكتب:

"ان الشعب الكردي الذي يتألف من اكثر من نصف مليون عائلة هو شعب مختلف. دينهم مختلف (عن دين الآخرين) وتقاليدهم وعاداتهم مختلفة[6].

لايترك هذا القول اي شك في مشاعر الشيخ القومية القوية. وادعاء الشيخ بان دين الكرد يختلف عن دين الآخرين، أمر يستدعي التساؤل الشديد. انه في الواقع يدل على المدى الذي تعتمد فيه القومية على التمايز المذهبي. فالترك والفرس وهما المعنيون بقول الشيخ هنا، هم مسلمون. ومعظم الكرد هم على المذهب الشافعي في حين ان الترك على المذهب الحنفي، والفرس هم شيعة اثنا عشرية. لذلك ومن اجل ابراز الفرق الكامل بين الكرد وبين هؤلاء عمد الشيخ الى تضخيم الخلاف المذهبي، ليجعل منه ادعاء فيه غلو وتهويل، وهو بصورة خاصة لايستقيم بالنسبة الى الترك.

الأثر المدمر لسوء الحكم التركي - الفارسي:

سبق ونوهنا بانفراط حبل الأمن والتسيب بُعيد حرب 1877 - 1878، فقد تفاقم وبلغ حداً تعذر معه قيام الحكومة بالادارة في مناطق واسعة جداً من الولايات الشمالية الشرقية. في حين ظلت غالبية السكان عرضة لأعمال السلب والنهب والشقاوة وهتك الحرمات، وخيم الرعب على النفوس، وعجزت الحكومة عن وضع حد لجنايات العناصر المجرمة. او لعلّها لم تكن راغبة في معالجة عوامل الدمار التي عمت البلاد فعلا. كانت بلاشك من اقوى الحوافز في تقرير النهج الذي اختطه الشيخ لنفسه فيما بعد. اذ لم تمر فترة طويلة حتى دوى في ارجاء كردستان صوت احتجاجه على الوضع، ملقيا الذنب على سوء الادارة التركية والفارسية معاً وخصّ بتنديده موظفي السلطان والشاه وادانهم بالعجز والفساد، ثم تمادى فتحدّى في ان يكون لكلتا الحكومتين الحق في حكم كردستان. وتعدى التحدي نطاق الاقوال، فكما سنرى انه رفع السلاح اولاً بوجه تركيا ثم بوجه فارس.

هناك جانب من جوانب ادانة الشيخ الفوضى في كردستان أدعى من غيره الى العجب والدهشة، وهو هُمه العظيم للسمعة السيئة التي لصقت باسم الكرد. ففي رسالته التي بعث بها الى [إقبال الدولة] حاكم (اورميه) الفارسي في أول ايام غزو فارس نجده يشير إلى انّ الكرد تحملوا مالا

---

6 محفظة 3. في رقم 61. من الشيخ عبدالله الى الدكتور كوچران. في 5 من تشرين الأول 1880. تركيا رقم 3. في 1881. ص 47 (انظر نص الرسالة في أخر الجزء).

يستحقونه من سوء الصيت بسبب غياب حكم القانون، فلا تمييز هناك بين المسيء والبريء وهو يتهم بصراحة الحكومتين التركية والفارسية بأنهما لاتملكان العزم ولا المقدرة على حكم رعاياهما الكرد حكماً صالحاً. وبنتيجة ذلك فانهم فقدوا كل شعور بالاحترام لحكامهم[7] ثم اعلن للحاكم:

ونظراً لهذه الاوضاع، فان الكرد في تركيا وفارس، قرروا الوحدة، واقامة وطن واحد، وان يتولوا المحافظة على الأمن والنظام بأنفسهم، وان يرتبطوا فيما بينهم خطياً بتعهد بان يتم القضاء على الفوضى والشقاوة في بلادهم[8].

وفي رسالة أخرى للدكتور كوچران عند حملته في فارس، ركز بكثير من التفصيل على جنايات الحكومتين التركية والفارسية. مما دفعه الى قيامه بالعمليات الحربية الحالية. وعاد ثانية للإعراب عن مدى سخطه واهتمامه بمسألة سوء السمعة التي كسبها الشعب الكردي جراء سوء ادارة هاتين الحكومتين وخبث طويتهما. كتب:

«اشتهر (الكرد) عند جميع الأمم بالشر والمشاكسة وبهذا كانت توصف كردستان. لو ان شخصاً واحداً منهم (يقصد الكرد) اقدم على عمل سيء فايّ شخص بريء مسالم يصيبه سوء السمعة وتسوّد صحيفته. ولتكن على معرفة تامة بان السبب في كل هذه هو لامبالاة السلطات التركية والفارسية وتقاعسها. فكردستان تقع في وسط هاتين الدولتين ولكل حكومة منهما اسبابه الخاصة في عدم التفريق بين الصالح والطالح»[9].

وواصل الشيخ تظلمه وشكواه بضربه مثلاً لاعمال الشقاوة التي ترتكبها قبيلتان كرديتان هما قبيلة الشكاك في فارس، وقبيلة الهركي في تركيا محملاً تجاوزاتهما وخرقهما القانون حكومتي فارس وتركيا بقوله: اما انهما عاجزتان عن السيطرة عليهما واما لاتريدان ذلك[10].

وفي رأيه ان الكرد ورؤساءهم باتوا على ثقة تامّة بالاّ جدوى من الاستمرار في الصمت والصبر وتحمل الوضع:

«ان الرؤساء والزعماء الكردستانيين، سواء أهم من الرعايا الترك او الفرس الى جانب كل اهالي كردستان افراداً وجماعات، هم متحدون ومتفقون بان الحالة لم تعد محتملة بهذه الصورة. وبواقع وجود حكومتين. وانه من الضروري أن يعمل شيء ما وبعد ان تدرك الحكومات الغربية حقيقة المسألة، فانها ستقوم بالتحقيق حول دولتنا»[11].

7- المحفظة 5 في رقم 61، خلاصة لرسالة الشيخ عبيدالله الى اقبال الدولة. مؤرخة في 15 من ابلول 1880. تركيا رقم 5 في 1880 ص49

8- كذلك.

9- المحفظة في رقم 61. من الشيخ عبيدالله الى الدكتور كوچران، تركيا رقم 5 في 1881 الص 47- 48.

10- كذلك، ص 48.

11- كذلك.

ورأى الشيخ عند هذه النقطة ان يترك حكم كردستان للكرد لأن ذلك سيكون من مصلحة الأمن والنظام:

«نريد أن يكون أمرنا بيدنا. لنقوى على انزال العقاب بالمسيئين ونحن اقوياء ومستقلون، وان يكون لنا مكانة كالشعوب الأخرى. واما بخصوص الخارجين على القانون، فنحن على استعداد للتعهد بالأ يصيب شعب او ملة اي مكروه أو ضرر منا»[12].

وهكذا بقيت الرغبة في سيادة القانون واستتباب الامن في كردستان، وغسل الاسم الكردي مما الصق به تحتل الجزء الأهم من تفكير الشيخ. وعنده ان اصراره على اقامة دولة كردية مستقلة هو العلاج الوحيد للفوضى والتسيب - وهو امر يدعو الى الاعجاب والدهشة فعلاً، حتى لو نظر اليه باعتباره حجة وتعلّة، ذلك لأن حظ قيام دولة عدل تتمتع بحسن ادارة في ظل الحكم التركي او الفارسي يبدو بعيد الاحتمال، في حين يبدو طموح الكرد الى سيادة القانون والنظام في موطنهم بأنفسهم - مطلباً عادلاً.

الخوف من استظهار الأرمن في كردستان:

يبدو هذا الخوف واحداً من اقوى الاسباب في محاولة الشيخ توحيد كردستان. إن معاهدة برلين اطلقت الحديث عن الآمال الارمنية في السيطرة على الاقاليم الشمالية الشرقية وهي انسب موقع لاقامة دولة كردية. وانتشرت شائعات تثير القلق حول اعتزام الدول الكبرى وضع الأرمن في مرتبة سياسية تعلو على مرتبة الكرد. إشاعات لقيت صدى واسعاً واثارت المخاوف، واصلها مانصت عليه المادة الحادية والخمسون من تلك المعاهدة التي وعدت الأرمن بالاصلاحات وتحسين الأوضاع وضمنت لهم «الحماية من الكرد والجركس»[13].

وقد حامت الشكوك كما سنرى على الكرد فقيل انهم تعمدوا بث الشائعات بين الجمهور الكردي، فأثاروا معارضة كردية ضد الاصلاحات لاغراض تخصهم سيأتي بحثها فيما بعد.

ان وصول قناصل عسكريين بريطانيين الى كردستان ضاعف من هذا التوجس والقلق وايد المخاوف الكردية من أخطار متوقعة. وقد كتب (كلايتن) استناداً الى ماأنهى اليه بعض الآشوريين النساطرة:

«سرت رجة عنيفة بين الكرد عند عند قدوم القناصل الاوروپيين الى (وان) وكانت ردة فعلهم من هذا الحدث مزيجاً من الإستياء والخوف اذ لم يكونوا يدرون ماذا خبيء لهم»[14].

وتنبأت الروايات الشائعة بأن الكرد سيقومون بعمل مضاد عند عدم تحقيق تلك الاجراءات الاصلاحية... ان لم تتمخض الأمور بنتيجة، فان ذلك سيشجعهم (يقصد الكرد)

12- رسالة 3 في رقم 61: من الشيخ عبيدالله الى الدكتور كوچران. تركيا رقم 5 في 1881 ص48.

13- تصدّى لبحث هذه الاصلاحات كل من معاهدة برلين، والحلف السرّي الدفاعي بين بريطانيا وتركيا. وسيرد البحث عنها في فصل تالٍ.

14- المحفظة 2 في رقم 49 من كلايتن الى تروتر (وان) 13 من ايلول 1879 تركيا، رقم 4 1880 ص79.

على اساليبهم الشريرة[15].

لاسبيل للانكار ان هناك دلائل كانت تشير الى احتمال تحوّل في حالة الخوف الكردية الى تحديات منذرة باسوء العواقب. وفي هذا يرى (كلايتن):

يقول الكرد في انحاء (موش) و (بتليس) للمعتدى عليهم والمنهوبين: اذهبوا فاعرضوا شكواكم من افعالنا الى القناصل الأجانب[16].

وعكست هذه الحالة النفسية الموتورة ملاحظة صدرت عن الشيخ، فقد أثر عنه قوله للضابط التركي الذي حمل اليه فرمان تقليد الوسام.

"ماهذا الذي سمعته عن قرب انشاء دولة مستقلة لهم في (وان) وأن النساطرة (الآشوريين) سيرفعون العلم البريطاني ويعلنون أنفسهم رعايا بريطانيين "اني لن اسمح بهذا، حتى لو اضطرت الى وضع السلاح بيد النساء". [17]

ليس من الصعب فهم موقف الشيخ. عارض في الاصلاحات لأنها نذير بالقضاء على فكرة اقامة دولة كردية كان يحلم بها وعارضها لأنه رآها جنيناً قد يتمخض بدولة ارمنية في المستقبل ينزل الكرد فيها الى المرتبة الدنيا.

15- المرجع السالف.

16- محفظة في رقم 30 من كلايتن الى تروتر. (وان) 19 من آب 1879. تركيا رقم 4 في 1880. ص 53.

17- رسالة في رقم 7 من كلايتن الى تروتر. (باشقله) في 11 من تموز 1880 تركيا رقم 5.

-3-

الجبهة الداخلية والولاءات

كسب تعاون المسيحيين المحليّين.

بغض النظر عن معارضة الشيخ في الاصلاحات. فان معالجته لأمور الساعة كانت تنم عن قدر كبير من الذكاء وبعد النظر. لاشك في انه كان يدرك بان حالة المسيحيين المأساوية البائسة كانت السبب في فرض القيام بالاصلاحات لكنه كان يكره ان يعاقب الكرد نتيجة الاوضاع المحزنة. ومن المؤكد انه كان يعلم بما ارتكبته جماعات من الشقاة الكرد الخارجين على القانون بحق السكان الآمنين في كردستان. وعلينا ان نتذكر كيف كان يدين ويستنكر اعمال المعتدين هؤلاء في كل مناسبة، وقد شملت اعتداءاتهم المسيحيين والكرد سواء بسواء، كان يشعر دوما بأن مسؤولية القضاء على العنف والخروج على القانون، هي مسؤولية الحكومتين التركية والفارسية معاً، وليست مسؤولية الكرد. على ان الاخفاق المتواصل الواضح لقبض الحكومتين على ناصية الحال، أقنعته بأن نشدان العون منهما او الاعتماد عليهما لحل ما، أمر لاطائل منه، وان السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو القضاء على النفوذين التركي والفارسي مع تعاون مسيحي - كردي وثيق. وفي الوقت الذي استقر رايه على إحباط مساعي الاصلاحات، حاول ان يجعلها تبدو غير ضرورية، ومن بين محاولاته قيامه في مناسبات عديدة بالتقرب من زعماء المسيحيين المحليين. وذكروا انه اتصل بمار شمعون البطريرك النسطوري، وبرئيس الطائفة الارمنية الروحاني في منطقة (وان - هكاري) حاثا اياهما على الانحياز الى صفه بمواجهة الحكومتين التركية والفارسية[1] ووعد مقابل التعاون بحماية المسيحيين كافة.

من الواجب الاشارة هنا الى انه لم يكن هناك تناقض بين نية الشيخ المعلنة في مقاومة اية عملية تفضيل تمنح للأرمن والنساطرة وبين محاولته كسبهم الى جانبه فباتباعه هذه السياسة كان يرمي الى تحقيق عدة اهداف: فبتعاون الأرمن والنساطرة سيضمن جبهة داخلية موحدة وقوة بشرية ومادية إضافية طوع أمره لو حصلت مواجهة عسكرية مع تركيا. كذلك ليتفادى بها استظهار العناصر غير الكردية في المنطقة، وفضلاً عن هذا فان ارتباطه الوثيق بالمسيحيين المحليين وظهوره بمظهر الحليف

1- عند شروع الشيخ بثورته ضد تركيا أثر عنه انه كان على صلة بمار شمعون [انظر رسالة في رقم 41. من كلايتن الى تروتر. (وان) في 6 من ايلول 1879. تركيا رقم 4 (1880) ص 68]. ثم في اثناء حملته على فارس، ذكر انه كان على اتصال بكل من (مارشمعون) و (اوهانيس ڤارتبيد) مطران الارمن في باشقله. وان هذا الاخير يذكر عن تكرار الشيخ الدعوة للشخوص اليه ومقابلته وتبادل المشورة والرأي حول اوضاع البلاد والخطوات التي يجب اتخاذها لكنه رفض.[انظر رقم 68. رسالة من كلايتن الى تروتر (وان) في 20 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 54.

والحامي، سيجعله أهلاً لنيل عطف ومساندة دول اوروبا المسيحية على قضيته، وسيكون بناء على هذا في موقف يسهل له اثبات السيادة الكردية على سائر المنطقة بقيادته. ويستفاد مما سبق بيانه ان تعهده بحماية المسيحيين ليس غير ثمن زهيد للفوائد التي يأمل بها[2].

قابل الارمن عروض الشيخ للتعاون بكثير من الشك والتوجس[3] فالى جانب خشيتهم من توريط أنفسهم في حركة عصيان، رأوا في مشروعه خطة موحاة من الاتراك ترمي الى سلبهم تلك الامتيازات التي وعدتهم بها معاهدة برلين؛ وتردد الآشوريون النساطرة. لكن عندما شرع الشيخ في هجومه على فارس كان بين فصائله قوة من الجبليين الآشوريين بقيادة أحد اساقفتهم. كما كان جوقه الموسيقي العسكري برمته يتألف منهم[4]. في حين عهد للوجهاء الأرمن الذين رافقوا قوات الشيخ بمهمة الارتباط لتأمين الحماية للأرمن القاطنين على طريق الجيش الزاحف[5].

نيل الدعم الاوروپي:

تمتع الشيخ بكثير من بعد النظر في طبيعة القوى السياسية والدبلوماسية التي تتحكم بمجرى الأمور، ومما يبدو انه كان يرى الاهمية القصوى في التعريف باهدافه المشروعة للدول الكبرى خصوصاً والرأي العام الاوروپي عموماً. وكان (ولسن) قد ذكر عنه بانه:

«خطب ودّ الاجانب، وجهد في كسب الرأي العام العالمي الى صفه»[6] وفي رسالة منه الى الدكتور كوچران، نجده يعرب عن امله في ان تقف الحكومات الاوروبية على حقيقة الاوضاع في كردستان[7]. مدركاً في الوقت عينه الاهمية العظيمة في خطب ود انكلترا وضمان لأنها كان مسؤولة عن الاصلاحات التي نصت عليها معاهدة برلين. وما مجهوداته المتواصلة في التقرب بصداقته الى المبشرين الامريكيين فضلاً عن اعلانه الصريح عن صداقته لمسيحيي كردستان إلا من جملة المساعي لتحقيق هذا المطلب.

أن مسعى الشيخ الى عقد صداقة مع المبشرين الامريكيين، فيه من الحكمة مافيه. فمن شأنه تعزيز

2- في رأي (تروتر) كانت سياسة الشيخ ترمي الى مصالحة المسيحيين المجاورين له، لابدافع حب لهم، أو بداعي اهتمام حقيقي بمصائرهم. بل لاستخدامهم ادوات لتحقيق اهدافه [رسالة في رقم 22 من (تروتر) الى (كوشن) طرابزون في 20 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 16.

3- رقم 68 من (كلايتن) الى (تروتر). (وان) في 2 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5 في 1881 ص 40.

4- رسالة في رقم 56 من ابوت الى تومسن. تبريز في 7 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 40.

5- ولسن: المرجع السالف ص 113.

6- كذلك الص 110 - 111.

7- رسالة في رقم 61. من الشيخ عبيدالله الى الدكتور كوچران. في 5 من تشرين الاول 1880 . تركيا رقم 1881 ص 48.

مكانته ورفع قدره. إذ نجح عن طريقهم في انشاء علاقات مع الممثلين الدبلوماسيين البريطانيين[8]. والمبشر الامريكي الدكتور كوچران كان مثلاً صلة للشيخ لاتقدر بثمن مع موظفي القنصليات البريطانية فضلا عن صيرورته ناطقاً بلسانه. شديد العطف عليه وموضع ثقته. ان المشابهة العجيبة بين التقرير الرائع الذي كتبه الدكتور لمجلس ادارة البعثات التبشيرية البروسبتارية[9] عن الشيخ وحركته، وبين التقرير الغفل عن التوقيع الذي وصل الى القنصل البريطاني العام (آبوت)[10] يدل على ان الاثنين من قلم الدكتور بلا جدال.

ونحن بهذا لانقصد القول بان الشيخ كان انتهازيا لامبدء له، يحاول استغلال اصدقائه الامريكان وخداع السلطة البريطانية؛ فهو بعكس ذلك تماماً في الواقع. وهناك دلائل وافية على انه حرص حرصاً شديداً على الوفاء باي عهد يقطعه على نفسه. وقد اثبت ذلك في حماية اهالي سهل اورمية المسيحيين طوال حربه في الجزء الفارسي من كردستان. وهناك دليل آخر كنّا قد اشرنا اليه فيما سلف، هو قراره تأجيل هجومه على اورمية تلبية لرجاء الدكتور كوچران.

اهداف الشيخ وسياساته عن لسان خليفته:

أفضل مايمكن عرضه في هذا الباب هو تصريحات خليفته وصهره (شيخ محمد سعيد) في اجتماع عقد خارج مدينة اورمية والجيش الكردي يحاصرها. والغرض الأساس من هذا الاجتماع هو شرح نوايا الشيخ عبيدالله (لآبوت) القنصل العام البريطاني فيها وشارك فيه المبشرون الامريكان ورئيس اساقفة (نوچيا) الآشوري وعدد من اتباع الشيخ. وربما كان الوجيه الارمني (سيمون آغا) بين الحضور.

قال (الشيخ محمد سعيد): لو عقد لواء النصر للشيخ فانه يتعهد بالقضاء على قطاع الطرق واعادة الأمن والنظام واشاعة حكم القانون ضمن حدود تركيا وفارس وتحقيق المساواة بين المسلمين

8- ربما نبطت فكرة اقامة علاقة وثيقة مع المبشرين الامريكان في ذهن الشيخ من واقع انهم يتكلمون الانكليزية ويتمتعون بالحماية الدبلوماسية البريطانية. فهم على هذا الاساس يعتبرون نوعاً آخر من رجال الانكليز وينوه (لوري) بمواقف عديدة، حيث يشير كل من الكرد والآشوريين الى الامريكان باعتبارهم انكليز. وعلى سبيل المثال كان قد ابرم عقد بيع ارض في المنطقة الآشورية فيه نُعتَ العاقد وهو الدكتور (گرانت) وطاقمه من المبشرين الامريكان بهذه الصيغة: حكيم (اي الطبيب) گرانت.. وشركاؤه الانكليز من امريكا. وكذلك يقول ذلك الكردي في معرض مقارنة (گرانت) المعروف بتقواه وصلاحه، بمبشري كنيسة انكلترا (الانگليكان): انت بين الرجال الانكليز مفرد علم، تختلف عنهم كثيراً وتحب موادعة الناس ومسالمتهم: [انظر قاموس لوري: الدكتور گرانت والنساطرة الجبليون. الطبعة الثالثة. بوسطن 1853 ص 266 و 285 .Thomas Laurie: Dr. Crant and The Mountain Nestorians.

9- تقرير الدكتور كوچران مؤرخ في 1 حزيران 1880 مرفوع لمجلس الادارة. نقله سپير: المرجع السالف ص 75. (قلنا) البوسبتارية او المعمدانية هي كنيسة امريكية النجار كان تأسيسها في القرن السادس عشر. لاتعترف بكهنوت. وانما يحكمها ويديرها الكبار وتدعو للرجوع الى بساطة تعاليم الرسل الانجيلية وتطبيقها في الحياة اليومية. ولها اتباع كثيرون وهي تلي الكنيسة الكاثوليكية في امريكا عدداً ونفوذاً.

10- تقرير 4 في رقم 8، مقتبس من رسالة الى القنصل العام (آبوت). اورمية في 18 تموز 1880 تركيا رقم (1881) 5 ص 9.

والمسيحيين وتشجيع التعليم والسماح ببناء كنائس ومدارس ثم استطرد قائلاً:

«إن كل مايصبو اليه الشيخ هو التأييد الأدبي من الدول الاوروبية ولاسيما انكلترا التي يخصها باعظم الاحترام والصداقة. ان الشيخ يطلب ان يوضع تحت التجربة. فإن خاب سعيه في اصلاح احوال كردستان وفشل في اقامة حكومة عادلة، فهو على استعداد لتقديم نفسه متهما الى محكمة اوروبية وأن يرضى باي حكم تصدره بحقه»[11].

الحلف الكرديّ

بعد ذيوع أمر الشروط التي نصت عليها معاهدة برلين حول الاصلاحات، دارت في كردستان شائعات منوهة بالوضع السيء المقبل ومتنبئة بالعواقب الوخيمة التي ستخلفها للكرد. هؤلاء الناس الذين لم تكن السياسة حتى تلك الساعة تعني اي شيء بالنسبة لهم، بدا رد الفعل الذي واجهوا به ماا عتبروه تهديداً لمستقبلهم ووجودهم كقومية - رداً غير متوقع وفي غاية العنف.

قبل زمن غير طويل كان ثم حركة في عموم كردستان الشرقية الشمالية، تهدف الى تنظيم الكرد وتنسيق مجهوداتهم المعارضة لتطبيق الاصلاحات ذات الخطر عليهم. مالبث هذا النشاط السياسي غير المسبوق أن استُقطِب حول الشيخ عبيدالله، وعرف بالحلف الكردي.

وفي اول الأمر بدت هذه المحاولة لاحباط مقررات الدول الكبرى في معاهدة برلين عقيمة قدر ماهي هوجاء. انه لاحتمال بعيد جداً ان يفلح تكتل لاشكل له واضح من جبليين اميين متنازعين لايجمعهم جامع، في تحقيق ماقصر عنه باع تركيا. ان الفضل في نجاح هذه الحركة بالأخير كان لعدة اسباب ليس اقلها موقف تركيا المتساهل المزعوم.

حام الشك حول يد تركيا في مساندة ودفع جهود الشيخ لتعبئة كردية ضد الاصلاحات وكانت اولى التقارير حول هذا مضطربة الى حد ما لاتعكس صورة واضحة لتلك الاحداث التي بدأت تتمخض بها كردستان، حتى المصادر الانكليزية وهي حسنة الاطلاع عادة، لم تتفق لافي طبيعة الإسناد العثماني للنشاط السياسي الكردي ولافي مقداره. فالقنصل العام البريطاني (آبوت) في تبريز تراه في تقرير رفعه الى وزارة الخارجية ينتقد السلطات العثمانية لتساهلها مع الشيخ الذي لم تكمل بعد سنة واحدة على رفعه السلاح بوجه الحكومة. ويقول:

«بدل ان تنُزل الحكومة التركية بالشيخ العقوبة الواجبة لكل عاص متمرد، غمرته بالتكريم وهو آلان مجدُّ في تحقيق مشروعه الطماح، بحصافة ظاهرة مكشوفة[12]».

ويعزو سياسة المهادنة تلك الى «انه ينفذ رغبات الفريق الرجعي في تركيا»[13].

ويختم (ابوت) تقريره بضرورة التشدد في مراقبة الشيخ وابنه مراقبة دقيقة.

11- رسالة 2 في رقم 56 من آبوت الى تومسن تبريزفي 7 من تشرين الثاني 1880، تركيا رقم 5 (1881) ص 39.

12- تقرير في رقم 2 من القنصل العام آبوت الى لورد گرانڤيل - تبريز في 13 من تموز 1880، تركيا رقم 5 (1881) ص 8.

13- المصدر السابق ص 9.

ولموظف بريطاني آخر هو الرائد (تروتر) الذي كان يشغل منصب القنصل العام في كردستان تركيا وجهة نظر أخرى في الموقف تختلف عن وجهه نظر زميله. كان مطلعاً على محتوى حركة الشيخ، ومع هذا اعرب عن شكوكه القوية في احتمال قيام تركيا بدعم رسمي لنشاطه[14] أما تعليلهُ لأسباب شكه في وجوه حلف كردي بأنه تم بناء، على تحريض تركيا فهو ان اتباع مثل هذه السياسة لايتسق مع مصالحها ولايخدم أمنها وفي رأيه ان التعاون التركي - الكردي المزعوم هو مجرد خيال ومحض اختلاق مصدره مقالات في صحف القسطنطينية. ووجدناه يكتب في مجرد تقرير آخر الى مستر (كوشين) الوزير المفوض البريطاني في استنبول:

«ليس بوسعي الاعتقاد ان الحكومة التركية متورطة في مثل هذه الحماقة: بتنظيمها حلفاً كردياً. ما ان يتألف حلف كهذا فأنه سيوجه ضدَ الحكومة نفسها[15]».

ويشير (تروتر) الى ان سياسة الحكومة التركية كانت أبداً إثارة قبيلة على قبيلة أخرى، وهو يستشهد بثورة من الثورات الكردية الأخيرة التي تم القضاء عليها بمساعدة رؤوساء قبائل موالين[16].

ان شكوك الرائد (تروتر) في دور لتركيا بخصوص قيام الحلف الكردي له اعتبارات منطقية ومثل هذه الاعتبارات على كل لايدخلُ عادة في تفكير الشعوب. إن تركيا التي خرجت مغلوبة من حرب ضروس كلفتها الكثير من الدماء، والمال والارض مالبثت ان جوبهت بتذكرةٍ مذلةٍ لعزيمتها تهددها بخسارة مساحات أخرى من الأرض. ونقصد بها مشكلة الاصلاحات المفروضة. إذن فرؤية الدعم التركي لحلف كردي هدفه احباط الاصلاحات هي رؤية لايصعب فهمها. وبغض النظر عن رفض (تروتر) افتراض وجود حلف كردي يتلقى دعماً تركيا فهو على معرفة... «بقدرٍ ما من الفوران في نفوس الكرد، بسبب ماكثر الحديث عنه حول منح الحكم الذاتي للأرمن»[17].

ووصفه للجو المحموم الذي كان يسود كردستان آنذاك هو دقيق وواضح:

لو ان امتيازات استثنائية منحت للأرمن وحرم منها الترك والكرد في عين الوقت فسوف يتحد الكرد ضد المسيحيين وضد الحكومة التي تقدمت بمثل هذه الامتيازات [18].

رغم اختلاف هذين الموظفين البريطانيين في مسألة الدعم التركي للحركة الكردية (فتروتر) على اية حال يشارك (ابوت) في مخاوفه من الخطر الذي يكمن في تحرك الشيخ. فنرى الاول منهما يختم مذكرته بهذه الملاحظة:

14- رسالة في رقم 22 من الرائد تروتر الى مستر كوشين. طرابزون في 20 من تشرين الأول 1880. تركيا رقم (1881) 5 ص 16.

15- تقرير رقم 22 من الرائد تروتر الى مستر كوشين. طرابزون في 20 من تشرين الأول 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 16.

16- كذا الص 16 - 17.

17- تقرير في رقم 22 من الرائد تروتر الى مستر كوشين. طرابزون في 20 من تشرين الاول 1880. تركيا رقم (1881) 5 ص 17.

18- المرجع نفسه.

«لو ملك الباب العالي الفطنة، وكان بصيراً بمصالحه فسوف ينتهز الفرصة الحالية للقضاء على الشيخ الذي سيبقى وهو في موطنه شوكة في خاصرة الحكومة»[19].

من الواضح أن تخريج الرائد (تروتر) لما يجب على الباب العالي عمله، كان متأتياً من افتراضه ان تركيا بقيت غافلة عن محصل ماستتمخض به حركة الشيخ، وهي بالتأكيد ليست طرفاً فيها. على ان التطورات التالية والمعلومات المتكاملة لم تطابق وجهة نظره في الاوضاع. فتركيا كانت كما سنرى متورطة باكثر مما كان يظن في حينه.هناك تقرير كتبه المطران (كريميان) لبطريرك الارمن، يلقي بعض ضوء على كيفية قيام الحلف الكردي والغاية منه. تم شرح ذلك بشكل ينفي كل شك في ضلوع تركيا بتشكيل الحلف فضلاً عن نواياها من الأخذ بهذه السياسة:

«سيتألف عما قريب حلف كردي بمبادرة من الحكومة المركزية التي ترغب في طمس القضية الارمنية باثارة قضية جديدة هي القضية الكردية»[20].

ويستطرد صاحب التقرير ليشير الى الوسائل التي ستتوسل بها الحكومة لتحقيق هذا المرام:

«ان الحكومة العثمانية بغية استرعاء اهتمام اوروبا بالأمة الكردية، تقوم بمجهودات خارقة لخلق حركات عصيان وتمرد متزامنة في كل من تركيا وفارس. من حيث ان جماعة الحلف يرغبون في اقامة مقر عمليات وسيطرة ثانٍ في موضع مابين (إسما) و(سلماس)»[21].

وبتعبير كاتب التقرير: ان السياسة العثمانية هو مصدر وحي هذا الحلف، والشيخ عبيدالله هو بؤرته الرسمية وبحري (بهري) بك هو الرسول الدائم والموفد الرسمي[22]».

ولايفلح هذا القول الآخر في عرض صورة وافية للموقف. فكما سنرى لم يكن الشيخ قط مجرد آلة بيد السياسة العثمانية كما يَفترض زعم المطران الارمني. فبخلاف مسؤولية الحكومة العثمانية في اقامة الحلف الكردي، هناك دور الشيخ فيه بوصفه رئيسه وهو دور هام سياسياً. وقد يكون هذا التقرير محاولة مقصودة في نفس كاتبه لوضع عبء المسؤولية الكامل على عاتق الحكومة العثمانية او لعله ناجم عن جهل كاتبه بحقيقة دور الشيخ واهدافه.

والدور العام الذي اسنده التقرير لـ(بحري بك) بوصفه موفد الحكومة العثمانية هو امر عظيم الدلالة لأنه يؤيد طروح المطران (كريميان) الذي يؤكد رعاية العثمانيين للحلف. و(بحري) بك وهو ابن للامير الكبير (بدرخان) كان على ماقيل دائم الاتصال بمختلف الزعماء الكرد «مستخدما الوعد والوعيد، والاستعطاف والتذلل» بتعبير التقرير - لغاية توحيدهم جميعاً تحت زعامة الشيخ عبيدالله. ويعرف التقرير (بحري بك) بأنه مبعوث الحركة العثمانية الى هكاري، والحامل الرسمي للوسام الذي انعم به على الشيخ. الا انه لايوضح طبيعة الدور الذي اسند اليه: فأحياناً يتحدث وكأنه ممثل للحكومة مزود

19- المرجع نفسه.

20- تقرير في رقم 6 من المونسنيور كريميان الى البطريرك الأرمني. (وان) في 20 من حزيران 1880 تركيا، رقم 5 (1881) ص 6.

21- المصدر نفسه ص 7.

22- المرجع نفسه ص 6. (قلنا) انظر التعريف به في آخر البحث.

بصلاحيات واسعة، واحياناً يتصرف وكأنه وكيل الشيخ وداعيته. وفي مناسبة عزي اليه قوله:

«ساكتب للشيخ بطلب شخوصه الى استنبول. وان ابى فسأزحف اليه على رأس جنود السلطان - بعد عودتي»[23].

مع هذا واستناداً الى المصدر عينه. ان (بحري بك) هذا، ما أن اجتمع بالشيخ حتى راح يستقدم زعماء الكرد من ارمينيا ومن فارس. عدد كبير من هؤلاء، ذكر التقرير بانهم اعلنوا تحالفهم وان كان بعضهم غير راغب في ذلك «رغم كل الجهود التي بذلها (بحري بك) معهم. على ان الكاتب يستخلص من الظروف. «ان هؤلاء الزعماء لاسبيل لهم غير الانضمام الى الشيخ في خاتمة المطاف»[24].

والمهمة الموكلة (لبحري) بك وهي حمل الوسام تبدو وهنا وجه الغرابة - غير متفقة وانهماكه في الشؤون الكردية، واذا كانت الاقوال التي عزتها اليه رسالة المطران والنشاط الذي اسندته له صحيحاً، لوجب ان تكون الحكومة العثمانية قد عهدت اليه بمأمورية أهم من حمل وسام بما لايقاس. والاحتمال باق بطبيعة الحال في ان تعاونه مع الشيخ كان يجري من وراء ظهر الحكومة وبغفلة منها. على انها حقاً صدفة عجيبة ان تختار ممثلا لها عند الشيخ، ابنَ الأمير الخطير بدرخان[25] الذي لاتدانيه مكانة وشهرة اي شخصية في كردستان.

23- كذا.

24- المرجع السالف.

25- سفرستيان: لايأتي الى ذكر ارسال بحري بك رسمياً. الا انه ينبئنا بأنه كان عظيم النشاط في الدعوة الى مساندة حركة الشيخ بين القبائل. غير انه لايزودنا بمصدر ما لمعلوماته هذه انظر Arshak Safrastian: Kurds and Kurdistan 1948 ارشاك سفرستيان: الكرد وكردستان ط، لندن 1948 ص 8.

-4-

الثورة في تركيا

في العام 1879 اعلن الشيخ ثورته ضد تركيا، كانت ثورة يواكبها الحذر، ثورة اتخذ الشيخ كل اسباب الحيطة لضمان نجاحها. وسنجد انها كانت التجربة والنموذج الذي احتذاه في حملته على فارس.

واستناداً إلى ماعزي لقائمقام (گەودر) من قولٍ، ان الشيخ كان يهدف منها الى انشاء امارة مستقلة في الاراضي التي يسكنها الكرد على ان يدفع جزية مساوية للمبالغ التي كانت الحكومة التركية تجبيها بشكل ضرائب»[1] وباعتقاد هذا الموظف ان الشك حول تخطيط الشيخ لثورة، كان يحوم في الجو لفترة من الزمن. ويرى نائب القنصل (كلايتن) انه كان يعد لها العدة طوال سنتين[2] وفي وقت قيامها اشيع بان والي (وان) كان قد انذر من ديار بكر قبل سنة واحدة، بنية الشيخ، إلا انه لم يأخذ الانذار مأخذاً جدياً[3].

وربما انعكس فروغ صبر الشيخ في كتابته اوائل تلك السنة لوالي (وان) يطلب «التقليد» وغير ذلك من المكافآءات لقاء خدماته اثناء الحرب الاخيرة. ثم كانت الدلائل تشير الى اكفهرار جو كردستان. والاستعدادات ذوات الطابع الحربي كانت من الوضوح بما فيه الكفاية في سائر المنطقة. وذكروا ان منطقة هكاري آضت برمتها تحت سيطرة الشيخ[4].

وبأنه على صلة بمار شمعون البطريرك النسطوري فضلاً عن عدد من المتنفذين المسلمين في مدينة (وان)[5].

وفي رواية المبشر الامريكي الدكتور (رينولدز Dr. Reynolds)، ان اولئك الكرد الذين شدتهم عرى صداقة حميمة انقلبوا فجأة عليهم واظهروا العداء[6].

---

1 رسالة 1 في رقم 17 من كلايتن الى تروتر. (وان) في 10 من ايلول 1879. تركيا رقم 4 (1880) ص 78.

2 رسالة في رقم 41 من كلايتن الى تروتر (وان) في 7 من ايلول 1879. تركيا (1880) ص 67.

3 المرجع نفسه.

4 رقم 41 من تروتر الى المركيز سالسبوري. ارضروم في 19 ايلول 1879. تركيا 4 (1880) ص 67. [قلنا: روبرت سيسل سالسبوري Robert Cecil Salibury (1830 - 1903) سياسي بريطاني من المحافظين وزير خارجية اربع مرات. ورئيس وزارة ثلاث مرات]. (قلنا) يقصد بالتقليد، منح السلطان وساماً للشيخ.

5 المرجع السالف.

6 المرجع السالف.

وأمر آخر ملفت للنظر الى حد كبير: ان الكرد شرعوا في شراء كميات كبيرة جداً من القمح من (وان)[7].

كما اشير الى ان الشيخ يمتلك عدداً كبيراً من البندقيات الجيدة. واشيع انه اقدم على شراء مقدار كبير من الاسلحة النارية عن طريق وكيل له في اورمية من (خوي)[8].

وقيل ايضاً ان قوات الشيخ تملك بندقيات كان الباب العالي قد زودهم بها اثناء الحرب التركية-الروسية. ويؤيد القنصل العام (آبوت) ذلك بقوله ان عدداً من البندقيات العشرين الفاً التي زودوا بها اعيدت فعلاً واحتفظ بالبقية رغم الحاح الحكومة بطلبها و...

«الاحتمال غير مستعبد أن الشيخ عبيدالله وتابعيه يستخدمون الآن ضد الحكومة التركية اعداداً كبيرة من قطع السلاح التي وزعت عليهم لغرض الدفاع عنها»[9].

وكتب والي (وان) عن اربعة آلاف مسلح رهن أمر الشيخ. وان مسلحين كرداً يتدفقون عبر الحدود من فارس بلا انقطاع[10].

وقدحت شرارة الثورة على مايبدو إثر قيام قائمقام (گەوەر) بانزال العقاب بزمرة من عشيرة الهركي نهبت إحدى القرى. ما أن بلغ الشيخ ذلك، حتى بعث برسائل الى زعماء الكرد «بحثهم فيها على الثورة قائلاً لم يعد هناك بعد اي حكومة تركية وهو عازم في غضون ثمانية ايام على التقدم نحو العمادية». وممن بلغته الدعوة شيخ محمد (البريدچان؟) الذي لم يضع وقتاً في نقل نوايا الشيخ الى والي الموصل[11].

وبعد خمسة ايام خرج فوج من الموصل. وعسكر في موضع مجاور لمدينة العمادية. وحشد الشيخ قوة من تسعمائة مسلح، اناط قيادتها بابنه (عبدالقادر) لتشن هجوماً على القوات العثمانية. فصد هجومها وانكفأت على عقبيها[12]. والظاهر أنها كانت معركة حاسمة، فبخلاف مناوشات واشتباكات متقطعة غير فاصلة ظلّت تدور في مختلف المواضع، ادرك الكرد أنهم هزموا. وقد باتوا مقتنعين بأن الحكومة عازمة على قمع الثورة المسلحة وبانها ذات مقدرة.

مالبثت الانتفاضة ان تراخت ثم باتت اثراً بعد عين.

وبينما كان ابن الشيخ ورجاله في ساحة القتال، ورسله وموفدوه يسعون الى زعماء الكرد سراً،

7- رسالة في رقم 41 من كلايتن الى تروتر (وان) في 6 من ايلول 1879، تركيا رقم 4 (1880) ص 69.

8- رسالة في رقم 71 من أبوت الى تومسن. تبريز في 25 من ايلول 1879. تركيا رقم 4 (1880) ص 101.

9- المرجع السالف.

10- رقم 49 من تروترلى مركيز سالسبوري. ارضروم. في 27 من ايلول. تركيا رقم 4 (1880) ص 77.

11- رسالة في رقم 41 من كلايتن الى تروتر. وان في 6 من ايلول 1879. تركيا رقم 4 (1880) ص77. (قلنا) اعيانا البحث عن حقيقة هوية هذا الشيخ وكنيته الصحيحة.

12- المرجع نفسه.

ويحثونهم على الثورة، بقي هو في الخلفية ببعد نظر وحصافة، يساير الحكومة ويداجيها متخذاً بصورة عامة موقف المتفرج وكأن الأمر لايعنيه في شيء[13]. تراه يبعث برسالة الى والي (وان) نافياً فيها اي دور له ومعلنا براءته، ومعبراً عن استيائه لما وقع، مؤكداً في الوقت عينه اخلاصه للدولة بقوله:

«ابلغ الدولة العلية بأني مقيم على أخلاصي اكثر من اي وقت»[14].

وقيل أنه استدعى ابنه عبدالقادر فحضر امامه وارغمه على اعلان خضوعه للحكومة[15].

وبدأ موقف الحكومة من الشيخ لغزاً محيراً. فمع أن الاوامر الصادرة من استنبول كانت حازمة في التشديد على وجوب التصدي للثوار بقوة، ومع علم والي (وان) ووالي (الموصل) وغيرهما من موظفي الدولة الكبار بما يبطن الشيخ، وعدم ثقتهم به[16] وجدنا الحكومة تبدي قدراً كبيراً من ضبط النفس واللين في التعامل معه. فوالي (وان) بقي طوال الحركات وبعدها يظهر له عظيم الالتفات والتجلة. حتى الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) نفسه فقد بعث له ببرقية يحثه فيها على توثيق علاقاته بالسلطات المحلية، وحمل البرقية اليه مفتي (وان) نيابة عن الحكومة المحلية[17]، مع أمر بعزل قائمقام (گەودر) الذي سخط عليه الشيخ بسبب عقابه اللصوص الهركيين، عل سبيل الترضية[18]. ثم وبعد زمن من القضاء على الحركة نُظّم للشيخ استقبال حافل في (وان). ويبدو أن واحداً من شروط التسوية وانهاء الخلاف مع الحكومة كانت مسألة تخصيص راتب شهري له قدره عشرون الف قرش. واستناداً الى (تروتر) ان والي (وان) اوصى بالموافقة على الطلب[19].

من الغرابة بمكان ان تكون هذه الثورة بداية لشهرة الشيخ السياسية لانهايتها. فبعدها صار ينظر اليه بوصفه الزعيم والقائد المعترف به لحركة قومية كردية واسعة النطاق، هدفها اقامة دولة كردية مستقلة، باتباعه ووكلائه المنهمكين في كسب الاشياع للقضية في طول كردستان وعرضها. ولم تكن

13- رسالة 1 في رقم 49 من كلايتن الى تروتر. وان في 10 من ايلول .1879 تركيا 4 (1880) ص 78.

14- رسالة في رقم 49 من الشيخ عبيدالله الى والي (وان) مؤرخه في 22 من شهر رمضان تركيا رقم 4 (1880) الص 79 - 80.

15- رقم 49 من تروتر الى ماركيز سالسبوري. ارضروم في 27 من ايلول 1879 .تركيا رقم 4 (1880) 77.

16- المرجع نفسه.

17- رقم 49 من تروتر الى ماركيز سالسبوري. ارضروم في 27 من ايلول 1879. تركيا رقم (1880) ص 77.

18- رسالة في رقم 49 من كلايتن الى تروتر. وان في 10 من ايلول 1879. تركيا رقم (4) 1880 ص 78.

19- رقم 37 من تروتر الى سالسبوري. ارضروم في 18 من تشرين الاول. تركيا رقم (4) 1880 ص 102. وهناك قول معزو للقنصل الفارسي في (وان) يلفت النظر في هذا الباب. فهو يرى ان السبب في قيام الشيخ بوجه الدولة يعود الى تلكؤ الحكومة في دفع الاعانة المالية التي وعدته بها. ويزعم هذا القنصل ان الشيخ بالاصل هو من رعايا دولته. وانه يتسلم اعانة من الحكومة الفارسية. وان هذه الحكومة حباً في أن تؤمن حيادها التام اثناء الحرب الروسية - التركية، عمدت الى وقف صرف الإعانة عندما انضم الشيخ الى الاتراك في حربهم. والحكومة العثمانية التي وعدته بمنحة مالية، نكلت بالأخير ولم تف بوعدها. الامر الذي اثار الشيخ واغضبه. انظر الرسالة في 56. من كلايتن الى تروتر. وان 19 من ايلول 1879. تركيا رقم (4) 1880 ص 87.

الحكومة العثمانيـة طبعاً غافلة عن نشاطه وغاياته، الا انها ظلت تقف موقف ود واغضاء. بل اعانته في جهوده بدلاً من وضع العراقيل أمامها.

ويُعلَّل موقفها في الظاهر بأحد اثنين: إما انها لم تكن تجد الجرأة لانزال العقاب بهذا الرجل العظيم المنزلة ذي القداسة. واما انها وجدته حليفاً يعتد بـه وبمقدرته على اداء خدمات ثمينة في المستقبل. وحتى لو ادى طموحه الى غزو فارس، فانها بقيت كما سنرى تدافع عنه وتصر على براءته.

وهذا يدعم بدون شك الادعاء الفارسي بأن الترك كانوا وراء حركة الشيخ وحملته.

-5-

الحملة الفارسية

اسباب الحملة:

يعود بعض اسباب الغزو الكردي لفارس الى الحرب الروسية - التركية. ففي اثناء تلك الحرب أقدم الترك على تلك الخطوة السيئة تكتّياً، بتسليح آلاف من الكرد العشائريين باسلحة حديثة، كما كان الشيخ عبيدالله قائداً لاكبر مجموعة من هؤلاء القبائليين في حرب "الجهاد" ضد الروس[1] الا ان هذه القوات لم تكن لطويل وقت مشكلة للروس الذين سهل عليهم الحاق الهزيمة بهم وتشتيت شملهم[2].

قدر لهذه الخطوة آثار خطيرة نسبةً لتركيا، بل وأخطر منها لفارس فقد بقيت الاسلحة بيد الكرد، وفاق كل هذا خطورة هو الروح الحماسية التي اذكتها في نفوسهم الدعوة الى الجهاد ضد الكفرة. والحملة على فارس لن تكون غير توجيه تلك الحماسة الدينية المجاهدة التي شاعت في نفوس هؤلاء العشائريين ضد المسلمين الشيعة الفرس بكل البساطة التي وجهت الى الروس ذوي المذهب الارثذكسي. وقد سبق لتركيا أن ذاقت التجربة. ففي الثورة لن يتردد رجال الشيخ في قتال جيش السلطان خليفة المسلمين الرأس المعترف به من كل المسلمين السنيين.

وشرط القيام بالاصلاح الذي نصت عليه معاهدة برلين بعد الحرب قد يعتبر أيضاً سبباً آخر غير مباشر للحملة، فما اشيع عن حظوظ ارمن الاقاليم الشرقية فيها، خلقت في الكرد شعوراً بالتضامن وبوحدة كلمة غير مسبوقة في شعب لم يعرف عنه غير الشقاق والفرقة، اعقبها ميلاد الحلف الكردي، وهو يمثل حركة قومية عسكرية الطابع. ولعللٍ سبق ذكرها بدا وكأن هذا الحلف يحظى بعطف الحكومة العثمانية إن لم تكن ساندته عملياً. ولم يضع الشيخ وقتاً في الإفادة من هذا الحلف ليوسع دائرة نفوذه ويوطد سلطته في عموم كردستان. وفيما كانت قضية الاصلاحات تتهافت وتتقهقر الى الخلفية برز الشيخ قائد عصره بين الكرد دون منازع. وبهذه المكانة الرفيعة وبطموح لم يعتره وهن، رأى ان الوقت للسعي الى تحقيق الحلم الذي راوده طوال حياته: دولة كردية مستقلة.

حاول هذا في تركيا فاخفق. وها هو يوجه اهتمامه الى فارس. مما لاريب فيه ان فارس الضعيفة كانت للشيخ هدفاً مغرياً واليك تعليقاً طريفاً جداً لمراقب قريب من مرسح الاحداث

1- في رأي نيكتين ان الشيخ كان يقود حوالي سبعين الفاً من رجال العشائر في بداية حرب 1877، كانوا قد قدموا من اقاليم الحدود التركية الفارسية (راجع) وقائع اورمية: مقال في المجلة الآسيوية العدد 34. كانون الاول - آذار 1929، الص 67 - 123.

2- المرجع نفسه ص 99.

التي توشك أن تقع:

«من المحتمل ان تكون حركة الشيخ الأخيرة في فارس، نتيجة القناعة بان الحكومة الفارسية تفوق مثيلتها التركية فساداً وتفسخاً، وسيكون تحقيق كيان مستقل فيها اسهل من اطلابه في تركيا. فما ان يصل الى هدفه هنا حتى يقوم باستخدام قوته المتعاظمة الى اقصى حد ضد الموظفين العثمانيين»[3].

ضعف فارس، مقترناً بالازدراء والكره الذي يخص الكردُ به الفرسَ بسبب مذهبهم الشيعي عموماً ومريدو الشيخ ودراويشه المتزمتون المتشددون خصوصاً، كان بدون شك الحافز الذي قاده الى مغامرته الخطيرة. وقد اوضح للدكتور كوچران الاسباب المباشرة للحملة برسالة مؤرخة في 25 من ايلول 1880[4] فيها عدد شكاوى الكرد من الفرس ومنها القتول الشنعاء التي انزلوها بعدد من الكرد وسوء معاملة الآخرين. ومنها فرض غرامات ثقيلة وجبايتها من بعض الرؤساء. وقيام الموظفين الفرس بخطف النساء الكرديات، وانتشار أعمال الشقاوة والعنف بكل آثارهما التي شوهت سمعة الكرد ولطخت اسمهم. هذه الاعمال بنظر الشيخ بررت له قتاله الحكومة الفارسية.

قوات الشيخ: عددها وعدّتها

مهما بلغت فترة قتال من قِصَر، وبصرف النظر عن النتائج، فهي كافية لتحدث أثراً كبيراً في وحدة القوات العشائرية وضبطها بنظام. إن لم تمسك باعنتها يد حازمة صارمة فان النصر كالخذلان يأتي بعين النتائج. فالفشل يعقبه حتماً الشقاق العام والهزيمة الساحقة، في حين يتحول النصر في كثير من الاحيان الى حفلات نهب وسلب واعمال عنف تجل عن الوصف. والمحاربون القبائليون الموقرون بالغنائم والمثقلون بالاسلاب، تعيقهم هذه الثروة المفاجئة جسمانياً وعقلياً، فلايكون همهم إلا الانسلال والتفرق في اول فرصة تعن والأوبة الى البيوت، فقوات العشائر في مثل هذه الحروب تظل دائماً في حالة مد وجزر عددياً حتى في حالة النجاح. وعدد الذين يتركون الساحة قد لايقل عن عدد المنضمين الجدد بأمل الفوز بالغنائم والإثراء السريع.

ويضاف الى هذا، الافتقار الى عناصر قيادية معتمدة. ولازدياد الصعوبة في عرض تقدير صائب لمجموع القوات الكردية الكلي المشاركة في حملة الشيخ، قد يكون من الافضل الاقتصار على عرض الارقام المتوفرة في الصفحة الثانية من العمليات العسكرية الكردية، ثم تدقيقها ببعض تفصيل.

بوضعنا بالحساب ضعف القوات الفارسية المرابطة في آذربيجان زمن الحملة، لاسبيل إلا للقول بأن رجال الشيخ تفوقوا عليها بكمية السلاح وبنوعيته. وكنا قد نوهنا بأن الاسلحة والمواد الحربية الأخرى

3- رسالة في رقم 22 من تروتر الى كوشين. طرابزون في 20 من تشرين الاول 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 17 .

4- رسالة 2 في رقم 61 من الشيخ عبيدالله الى الدكتور كوچران. مؤرخة في 25 من ايلول 1880. تركيا رقم (1881) 5 ص47 [قلنا اوردنا نصها الكامل في آخر الترجمة فلتراجع.]

5- نيكيتين: المرجع السالف. ص99.

حصل عليها الكرد بفضل حرب 1877 عندما أُمِرّ الشيخ على قوة كردية كبيرة. ومن بين ما احتفظ به الكرد بعد ان شتت الروس شملهم عدد كبير من بندقيات (مارتيني) مع عتادها[5]. وعن مصدر أرمني ان الحلف الكردي كان يملك قبيل الحملة على فارس 4000 بندقية من طراز مارتيني، منها مائتان من مصدر فارسي والبقية تركية المصدر[6]. والظاهر ان الشيخ لم يكن يجد صعوبة في سدّ جانب من حاجته الى التجهيزات الحربية. واكد السفير الفارسي في القسطنطينية «امتلاك الشيخ مصنعاً خاصاً لصنع الخراطيش»[7] فضلاً عن عدة الآف من رجال الشيخ مسلحة ببندقيات من طراز مارتيني- هنري»[8]. وعن (نيكيتين) انهم يملكون بندقيات من طرز حديث de fusile du nouveau system [9]. كذلك ذكر القنصل العام آبوت «يمتلك الشيخ كمية وافرة من بندقيات مارتيني»[10]. مؤيداً حيازته واستمراره في تلقي تجهيزات عسكرية بمناسبة ماذكره عن وقوع قافلة مؤلفة من 160 جملاً محملاً ببندقيات واعتدة - في يد (تيمور پاشا) بمنطقته (برادوست) في تشرين الثاني 1880[11].

العمليات العسكرية

الاشارة الوحيدة المدونة، حول تصميم الشيخ على الشروع في الحملة هو مالمح به مُلغزاً في العبارة الأولى من احدى رسالتين كتبهما للدكتور كوچران عشية تنفيذه العملية. حول ذهاب ابنه الى صاوبلاغ. والرسالة تبدء بهذا القول:

«ارسلت ملا اسماعيل ليبسط سراً ماشرحته له عن مجريات الاوضاع هنا. وارجوك ان تبلغ الحكومة الانكليزية بصورة خصوصية عن حقائق المسألة في كردستان، وتعلمها حول ذهاب إبني الى صاوبلاغ.[12] [قلنا: اوردنا نص الرسالة الكامل في آخر الكتاب].

والذي أيدته الوقائع التالية ان مبعوث الشيخ هذا ابلغ الدكتور كوچران بان الابن سيذهب الى صاوبلاغ على رأس جيش»! في الايام الاولى من شهر تشرين الاول 1880 خرق مقاتلو الشيخ الحدود

6- رسالة في رقم6. من المونسنيور كريميان الى بطريرك الأرمن. (وان). في 20 من حزيران 1880. تركيا رقم(5) 1881 ص6.

7- (1) في رقم 74 مذكرة من السفير الفارسي في القسطنطينية الى القائم بالاعمال البريطاني. تركيا رقم 1881 (5).ص 60.

8- المرجع نفسه.

9- نيكيتين المرجع السالف(الص 102 - 103) واضح ان المقصود هو تلك البندقيات الحديثة الصنع التي تملأ من المغلاق.

10- رسالة 2 في رقم 8. من آبوت الى تومسن. تبريز في 15 من تموز 1880. تركيا رقم (5) 1881 ص9.

11- رسالة (2) في رقم 61 من آبوت الى تومسن. تبريز في 25 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5 (1880) ص 47.

12- رسالة (4) في رقم 61 من الشيخ عبيدالله الى الدكتور كوچران. تركيا. رقم 5 (1881) ص47.

13- ولسن: المرجع السالف ص 111.

14- المرجع نفسه.

الفارسية [13]. وتفيد التقارير في حينه ان جيشه كان يتألف من ثلاثة ارتال: احدها بقيادة ابنه الفتى [عبدالقادر] وكانت حركته على جبهة واسعة من سواحل بحيرة اورمية الجنوبية نحو صاوبلاغ[14] وقدّر نائب القنصل (كلايتن) عدد أفراد هذا الرتل بعشرين الفاً مع تحذيره من الاعتماد على هذا التقدير[15]. امّا (نيكيتين) الذي ينقل عن كتاب فارسي لمؤلف مجهول، فيرفع رقم قوة (صاوبلاغ) هذه الى مايتراوح بين اربعين الفاً وخمسين[16]. والقنصل العام (آبوت) الذي قدرها بالاصل مابين عشرة آلاف وثلاثين الفا، قال انها تضاءلت اثناء الحملة ولم يبق منها غير الف وخمسمائة بسبب عودة المقاتلين الى اهاليهم اثناء الحملة[17].

وكان الرتل الثاني بقيادة ابن الشيخ البكر (الشيخ صديق) وقد قيل ان قوامها الف مقاتل[18] بقيت مرابطة في (مرگەوەر) لحماية خط تقهقر قوات الشيخ (عبدالقادر) على مايبدو[19].

والتحق بقوات (عبدالقادر) وهي زاحفة، مقاتلون كرد من منطقتي (اشنويه) و(سولدوس)، ما لبثت أن عززت بنجدات من عشيرة (منگور) بقيادة (حمزه آغا) وآخرين من رؤسائها الذين اعلنوا بأنهم اقسموا بالقرآن على القتال حتى الموت.

تمّ الاستيلاء على (صاوبلاغ) من غير قتال بعد أن أعطي حاكمها وحاميتها الأمان فتركوا المدينة بسلام. وعلى اثر ذلك أصدر إمامها السنّي فتوى[20] معلنا فيها الجهاد ضدّ الشيعة[21].

كانت مدينة (مياندواب) الهدف الثاني. يبدو ان الشيخ ارسل اليها عدداً من السعاة بطلب بعض الأرزاق وجسّ نبض أهاليها. فألقي القبض عليهم وقتلوا جميعاً. فأجتاح الغضب الشيخ وقرر الهجوم على المدينة فوراً[22]. فاسرع نصف سكان المدينة لاخفاء ممتلكاتهم وبضائعهم وفروا خوفاً من العقاب

15- رسالة 2 في رقم 54. من كلايتن الى تروتر. وان. في 25 من تشرين الاول 1880. تركيا رقم 5 في 1881. ص32.

16- نيكيتين المرجع السالف ص 103.

17- رسالة (2) في رقم 56 من آبوت الى تومسن. تبريز 7 تشرين الثاني (1880). تركيا رقم 5 (1881) ص 40.

18- رقم 61 من تومسن الى گرانفيل. طهران في 31 من تشرين الاول (1880). تركيا رقم 5 (1881) ص 45.

19- رسالة (2) في رقم 54 من كلايتن الى تروتر. وان 25 من تشرين الاول. تركيا رقم 5 (1881) ص32.

20- انظر مادة (فتوى) في دائرة المعارف الاسلامية (ماكدونالد).

21- ولسن: المرجع السالف ص 111.

22- رسالة 1 في رقم 61 من ابوت الى تومسن. اورمية في 7 من تشرين الاول 1880. تركيا 5 (1880). ص46. [قلنا] كان هؤلاء السعاة برئاسة ميرى بک بردەسورى وهو خال الشيخ عبدالقادر، وشقيق زوجة الشيخ عبيدالله. وربما كان مقتله السبب في ان تُفْرد المدينة بهذه المعاملة البربرية.

23- ولسن المرجع السالف ص 111. يقدر آبوت عدد من قتل من الفرس في (مياندواب) بألفين. رسالة (2) في رقم 56. من آبوت الى تومسن. تبريز في 7 تشرين الثاني (1880). تركيا في 1881 ص 40. وقدرت السيدة كوچران في رسالتها المؤرخة في 11 من تشرين الاول عدد القتلى في المدينة وضواحيها بما يزيد عن اربعة آلاف. [سپير. المرجع السالف ص 84. اما كرزن [المرجع السالف ج1 ص 55] فيثبت العدد بثلاثة آلاف.

الذي ينتظرهم. ووُضع السيف في رقاب الآلاف الثلاثة الباقين المتخلفين من رجال ونساء واطفال عندما وقعت المدينة بيد رتل عبدالقادر[23].

واطلقت يد الفاتحين ليعبثوا سلباً ونهباً في سائر المناطق المجاورة امتداداً حتى (بنياد) و (ميرگة).

تدمير (مياندواب) كان نصراً أجوف، اذ مالبث معظم افراد القوة الذين اثقلتهم الغنائم والاسلاب ان انفرط عقدهم وعادوا الى ديارهم. كما ان ماحلّ بالمدينة ادى الى تقوية عزيمة الفرس على المقاومة، وألحق الأذى العظيم بقضية الشيخ كلها.

واليك مايقول (ولسن) في هذا:

«انفراط حبل النظام وتشتت القوة، اثبت بأن الكرد لاقدرة لهم على خوض حرب نظامية. والمجزرة (في مياندواب) ليست جناية فحسب بل كانت خطأ مميتاً، لأنها بثت في نفوس الفرس العزم على المقاومة التي يبتعثها اليأس. كما قضت على اي عطف على الكرد إن وجد»[24].

ثم استدار (عبدالقادر) الى (ميرگة) وبعد استيلائه عليها، واصل التقدم. ووردت انباء تشير الى انه قد اقترب من (تبريز)[25]. وهنا كانت نهاية مابلغته قواته.

وفي الوقت الذي اشارت الانباء الى ان قوات الشيخ (صديق) تهدد مدينة (أورمية) بالف من المقاتلين[26]. عززت قواته بانضمام والده اليه بقوات أخرى، وبهذه القوة البالغة ثمانية آلاف شرع الشيخ في القاء الحصار على المدينة[27]. ودار قتال متقطع خلال ايام قلائل، ثم قرر سكانها وقد وصلتهم انباء ماحل (بمياندواب) - اجراء مفاوضات بغية تسليمها واتصّل عدد من وجهائها واعيانها وروحانييها بالشيخ وعرضوا عليه ذلك بتعهد منه بسلامة الاهالي فوافق وتعين يومٌ لذلك[28].

عندما ازف الموعد طلبت السلطة الفارسية المحلية تمديد الاجل. وفي مبدء الأمر رفض الشيخ إلا ان الدكتور كوچران توسط في الامر واقنعه بالتأجيل. كان كما ذكرنا صديقاً حميماً للزعيم الكردي[29].

واستفادت السلطات الفارسية من التأجيل لتقوية تحكيمات المدينة ودفاعاتها ولسبق علمها بأن رتلا من القوات الفارسية هو في طريقة لنجدتها، قرر حاكمها (إقبال الدولة) المقاومة.[30]

24- ولسن: المرجع السالف ص 112.

25- رقم 68 من كلايتن الى تروتر (وان) في 2 تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 54.

26- رقم (1) من توسن الى ايرل گرانفيل. طهران في 31 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 46.

27- رسالة في رقم 56 من آبوت الى تومسن. تبريز في 7 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5. (1881) ص 39.

28- نيكيتين المرجع السالف، الص 101 - 102.

29- ولسن المرجع السالف ص 114. سپير: المرجع السالف ص 86. كرزن المرجع السالف ج1 ص 553.

30- تلقى [اقبال الدولة] مساعدة كبيرة من الاسقف كلوزيل Cluzel كبير الارسالية الكاثوليكية الفرنسية في المدينة. فبمجهوداته غالباً تم جمع مبالغ كبيرة من تجار المدينة لسد نفقات وسائل الدفاع عن المدينة. راجع نيكيتين المرجع السالف ص 103.

اخيراً عندما اشتبك الفريقان رُدّ الكرد على اعقابهم بعد ان تكبدوا خسائر جسيمة. هذه النكسة كما يبدو حطمت معنويات قوات الشيخ، اذ سرعان مادبت فيها الفوضى وبدأت بالتقهقر اشتاتاً متفرقة ووجهتها الجبال[31].

بعد عشرة ايام قضاها أهالي اورمية في حال لاتوصف من الهلع انتظاراً للمجهول ارتفع الحصار عنها وزال التهديد. وفي فشل الشيخ أمامها قضي على الحملة الكردية في فارس قضاءً تاماً فقد بدأ الغزاة يتراجعون في كل مكان امام الفرس المتقدمين وراحت قطعات الجيش التركي المرابطة على الحدود تتعاون مع الجيش الفارسي في قطع خط الرجعة على بعض الساقة من القوات الكردية[32].

مابعد الحملة:

ان الفظائع واساليب القمع الوحشية التي مارستها السلطات الفارسية اثر الحملة الكردية فاق بمراحل على ما يبدو كل ما ارتكبه الكرد المغيرون[33] طورد السنية الكرد وتصيدهم الجنود الفرس ليُذبَحوا بيدهم مثلما ذبح العشائريون الكرد الشيعة الفرس، لكن بقسوة اشد وأنكى. ولايصح القياس. فعلى سبيل المثال كان عدد نساطرة سهل اورمية الذين فقدوا حياتهم بنتيجة تجاوزات الكرد تكاد لاتذكر بالمقارنة مع الاعداد الكبيرة منهم التي اهلكها الجنود الفرس[34]. وساء وضع المبشرين الامريكيين نتيجة اندحار الكرد في (اورميه)، وبلغ اقصى درجة من الخطورة لاتهامهم ظلماً بالمشاركة في الحملة الكردية، وبسبب الصداقة التي كانت تربطهم بالشيخ، قالوا انهم شجعوه وعاونوه. ولم ينقذهم كما سنرى - الا تدّخل بريطاني فوري حازم.

والشيخ الذي نجح في شق طريقه الى (ناوچيه)، حط الرحال بالاخير في استنبول العاصمة وبلغها في شهر تموز1881. كان ذلك نتيجة الضغوط الكبيرة التي مارستها الدول الكبرى على الباب العالي[35]. ومما هو جدير بالذكر انه كان وهو في طريقه الى العاصمة يستقبل استقبال الابطال أينما حلّ[36]. على أنه تسلل من العاصمة هارباً بعد قضائه بضعة اشهر وعاد الى موطنه الجبلي في (نهري). وسايرت الحكومة العثمانية الرأي العام الاوروبي بارسال قوات عسكرية دعته الى

31- ولسن: المصدر السالف ص 114. سپير المرجع السالف ص 95.

32- راجع ولسن، عين المصدر ص117.

33- عين المصدر الص 115 - 116.

34- عين المصدر.

35- كرزن. المرجع السالف ج ص 554. وكذلك ولسن المرجع السالف ص 119.

36- عين المرجع.

37- في مكان وفاة الشيخ خلاف. هناك من يقول انه توفي في مكة (كرزن: المرجع السالف ج 1ص 554) وولسن (المرجع السالف 112 اما (الفنستون) في مقاله (القضية الكردية Elphinston The Kurdish Question) منشور في مجلة الشؤون الدولية 22 كانون الثاني 1946 ص94. و(محمد امين زكي) (تاريخ الكرد وكردستان ص 120) يثبت لوفاته مدينة (الطائف). وحين يعين بليچ شيركو (المدينة المنورة) انظر كتابه: القضية الكردية ص 18.

الاستسلام. فلم يسعه إلا ذلك بعد ان سدت السبل امامه وانفض عنه اتباعه، فنفي الى الحجاز وادركته الوفاة بمكة في العام 1883[37].

واشاع الغزو الكردي والمذابح الفارسية التي اعقبتها في مسرى عملية القضاء عليه، فوضى عامة وحالة انهيار اجتماعي في شمال بلاد فارس. فالى جانب الخسائر البشرية الهائلة، هناك مساحات شاسعة من اخصب اراضي كردستان اضحت بلقعاً يباباً. واورميه الذي اشتهر باسم "حديقة فارس" باتت صحراء بوراً. ومن عظم النكبة أن أهالي البلاد ظلوا يشعرون بها ويعانون مردودها. وقد كتب ستاك Stack في العام 1882 اثناء ماكان يقوم برحلته في ارجاء إقليم فارس جنوب البلاد ان الاهالي ظلوا يدفعون إعانات فرضت عليهم بسبب غزو الكرد أذربيجان" [38].

واشارت السيدة (ماري شد Mary Shedd) من البعثة التبشيرية الامريكية «حتى قيام الحرب العظمى، كان كل الاحداث التي تقع في (اورمية) تؤرخ بيوم مجيء الشيخ[39] اليها».

38- ستاك: ستة اشهر في فارس Six Months in Persia ط نيويورك 1882. الص 250-251.

39- ماري لويس شد: معيار رجل: حياة وليم امبروز شد. المبشر في فارس. نيويورك: the Measure of a Man The Life of William Ambrose Shedd, Mssionary to Persia نيويورك 1922.

-6-

ردود الفعل الدولية للغزو الكردي

انشاء علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة و(المملكة الفارسية)

قيام هذه العلاقات كان واحداً من أهم الآثار التي خلفتها الحملة. فالخطر الذي تعرض له المبشرون الامريكان لم يكن وهماً ابداً بل حقيقة واقعة في اثناء الحملة وفي اعقابها. وقد ادى هذا إلى انتباه حكومة الولايات المتحدة واهتمامها بفارس، وفي أعقاب الشكوك الفارسية حول المبشرين بسبب موقف الشيخ عبيدالله الودي منهم، واتهامهم بالضلوع في عملياته.

واهتم بالأمر بصورة خاصة عضو الكونگرس الامريكي اروفوس روبنسن داوس Rufus Robinson Dawes النائب عن ماريت - أوهايو. وهو شقيق للسيدة (سارة شد) من اعضاء البعثة التبشيرية الامريكية. اذ قام لأول مرة باخطار وزير الخارجية (إيڤارتس Evarts) برسالة مؤرخة في 20 من تشرين الثاني 1880 شرح فيها المخاطر العظيمة التي تعرض لها المبشرون نتيجة الاحداث الاخيرة هناك مقترحاً أن تقوم حكومة الولايات المتحدة بالطلب من حكومة طهران بسط حمايتها على هؤلاء الرعايا الامريكيين. وختم رسالته بوجوب الاشارة في الإخطار الى شقيقته واسرتها وادراجها ضمن جماعة المبشرين أولاء[1] فأحيل مضمون الرسالة الى [جمس رسل لويل James Russell Lewell] الوزير المفوض الامريكي في لندن الذي أحالها بدوره الى اللورد (گرانڤيل) وزير الخارجية البريطانية راجيا ابلاغه ممثله في طهران ببذل المساعي الهادفة الى حماية الرعايا الامريكان هناك[2]. وبعد تأمين الحماية المنشودة، وجه (داوس) اهتمامه الى حمل الكونگرس على اصدار توجيهات لتأمين ضمان اكثر من هذا لهم[3] ورأى من الضروري ان يبذل نشاطاً اكبر ويستخدم وساطاته لترويج مسعاه. لأن الجمهور الأمريكي كان يجهل الأمر ولا رأي عام هناك لمساندة المسعى. في الوقت نفسه راح المبشرون أنفسهم يحثون (داوس) على تعقيب مسعاه في اقامة علاقات دبلوماسية مع فارس[4]. وكانت خطوته الاولى

---

1 - داوس تاريخ انشاء العلاقات الدبلوماسية مع فارس. ماريت - اوهايو 1887 ص 5. A History of the Establishment of Diplomatic Relationns with Persia.

2- المرجع السالف ص 6 وما بعدها.

3- كذا ص27.

4- المرجع نفسه: الص 25 - 26 انظر ايضاً رسالة من جوزف. پ كوچران و ل. ويپل .W. Z. Whipple الى المحترم روفوس داوس. أورمية في 6 من تموز 1882، ورسالة من القس بنيامين لاباري. القسطنطينية (كانون الثاني1882) الى المحترم داوس. اورميه في 6 تموز 1882 الص 33 - 34.

تقديمه مشروع قرار للكونگرس في 6 من شباط 1882 بطلب اقامة علاقات دبلوماسية، اسهب فيه الحديث عن الفوائد التجارية لمثل هذا التمثيل مشدداً على اهمية تلك البلاد كسوق للمصنوعات الامريكية في المستقبل. وصودق على المشروع بعد اسبوع باجماع الاصوات في المجلس الأدنى[5]. ثم وفي 3 من آب من السنة عينها وقبل ختام دورة الكونگرس إلتأم الكونگرس بمجلسيه للتصويت على القانون {H.B. 6743} بتخويل الحكومة انشاء تلك العلاقات. وفي 4 من آب صادق مجلس الشيوخ على اللائحة وبعد يوم واحد، تمت مصادقة المجلسين بعد تعديل لمجلس الشيوخ[6].

عن السيد بنجامين س . گ . و S.G.W. Benjamin اول ممثل دبلوماسي لبلاده في فارس بعنوان (قائم بالاعمال وقنصل عام [7]، ثم ابدل عنوانه فيما بعد بـ(وزير مفوض).

موقف الدولة الاوروپية من حركة الشيخ

كان لحركة الشيخ صدى واسع في الاوساط الدولية نظراً لطابعها الفريد والخطير معاً. فغزو فارس هو بحد ذاته مشكلة دولية كبيرة. ولامفر من ان ذلك يورط تركيا لان الشيخ من رعاياها، ومن اراضيها شرع بهجومه. فروسيا المهتمة الى اقصى الحدود بشؤون كل من تركيا وفارس الداخلية، رأت في الحركة اخلالاً بالوضع الراهن في منطقة حيوية جداً بالنسبة لها. وانگلترا من جهتها - المهتمة جداً بالمحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية راقبت بقلق وتوجس تتابع الاحداث التي كانت تهدد بانحياز روسيا الى جانب الفارسي مما قد يؤدي الى توريط تركيا في نزاع مسلح غير متكافئ مطلقاً بل حتى النمسا البعيدة عن مرسح الاحداث فقد وجدت نفسها تساهم دبلوماسياً.

وعود روسيا بمساعدة فارس

كانت زيادة التقارب بين روسيا وفارس إثر الحملة الكردية أمراً مفروغاً منه. ولهذا أسباب عديدة، منها المهانة التي لحقت بفارس. فقد خرقت حدودها، واعتدي على سيادتها وذبح رعاياها. وكل هذا خلف آثاره العميقة الى الحد الذي جعلها على اتم استعداد للتشبث بكل مايعدها بالثأر والإنتصاف. كان هناك حقد مبعثه الخيبة لما ظهر من عجز الفرس مبدئياً على الوقوف في وجه الغازي وزاد من سعاره التعصب المذهبي وواقع صدوره من الاراضي التركية، ولم تُحجب نار الحقد هذه بواقع رؤيتهم مشاركة الموظفين الترك في الحركة. وقد اجمل اللورد كرزن تلك الحالة النفسية بما لايرقى اليه وصف اذ قال:

«استنجد الشاه بروسيا لمد يد العون، وبانگلترا بطلب المشورة، وبتركيا مطالباً بالتعويض»[8].

وروسيا جارة، وهي على استعداد للمعونة العاجلة والفرس واثقون من نيلها لا بدافع العداء الروسي

6- كذا الص 42 - 51.

7- كذا الص 54- 55.

8- كرزن: المرجع السالف ج 1 ص557.

التقليدي وحده بل لأن حركة الشيخ هددت الروس بحرمانهم بعض ثمار نصرهم في حرب 1877. وكان للروس عين رؤية الفرس في اليد التركية المحركة. ثم هناك الخوف من أن يؤدي مثل هذه القلاقل الى زيادة النفوذ البريطاني في الاقاليم الشرقية، فقد نصت معاهدة برلين على ان يعهد للبريطانيين أمر الإشراف والمتابعة في تطبيق الإصلاحات. ووقف الروس من الاول ضد الانتفاضة الكردية لامن هذه الجهة وحدها بل لأن نجاحها قد يؤدي الى ارخاء قبضتها على فارس، ويخل باستمراريتها في الاضطلاع بدور الحليف الحامي. ثم انهم كانوا يخشون تأثير نجاح الحركة السيء على الاكراد الذين يسكنون مقاطعتي (قارص واردهان) وهما المقاطعتان اللتان ضمتهما الى املاكها حديثاً. من المؤكد انها لم تكن تستطيب فكرة احياء حركة (المريدية) المجاورة للقفقاس المتمرد. وعلينا ان نتذكر بان الشيخ كان يقود المتطوعة الاكراد ضد القوات الروسية قبل سنتين فحسب. وهو نقشبندي قطب، كالثائر القفقاسي الشهير (شاميل). كان الروس قد صمموا على وضع نهاية للانتفاضة الكردية اذا عجز الفرس عن ذلك. إلا انهم تريثوا ولم يباشروا عملاً قد يثير بريطانيا وتابعوا الاحداث بدقة واتخذوا كل احتياط لكنهم حرصوا على ان لايبادروا بأي اجراء طابعه تسرع قد يؤدي الى مواجهة عسكرية مع تركيا وبقوا على اتصال وثيق بالبريطانيين في حين شرعوا يحشدون قواتهم على طول حدود القفقاس بدون ضجة.

أبلغ پلونكيت Plonkett، الممثل الدبلوماسي البريطاني في سان بطرسبرغ بوجوب جسّ نبض وزارة الخارجية الروسية، فكتب الى مرجعه في الثالث من تشرين الثاني 1880 نقلاً عن [البارون جوميني][9] قوله ان أعمال الشغب الكردية على طول الحدود التركية الفارسية قد تؤدي الى تعقيدات بالغة الخطورة. ونقل عنه قوله ايضاً انه يعزو تلك الاعمال الى مكائد الاتراك. واعرب عن احتماله في أصطناع السلطان الحلف الكردي. ومن جانبه لم يستعبد (پلونكيت) التدخل الروسي، بل كان واضحاً في هذا إذ قال: في حالة اتساع رقعة الحركة حتى الحدود الروسية فان حكومتهم بتعبير البارون (جوميني) «ستجد نفسها اكثر اهتماماً بالوضع مما هي عليه في الوقت الحاضر»[10].

وبعد هذا بثلاثة ايام رددت الجريدة الروسية بيريگ Bereg صدى هذه المشاعر بلغة أفصح وهي بلاريب تعبر عن الموقف الروسي اذ قالت:

«الكرد هاجموا فارس. أو ليس محتملاً ان يكون للترك ايضاً يد في اللعبة؟ أو ليس محتملاً ان يأمل الباب العالي في استحداث وضع جديد للأمور يمكن استخدامه بمثابة ضجة لرفضها تطبيق قرارات مؤتمر برلين بخصوص ارمينيا؟ بل ربما كان الساسة في استنبول يعتزمون استخدام الكرد بعين الشكل الذي سبق واتبعوه مع الالبان في حادث الجبل الاسود (مونتنيگرو)؟ كل هذه الاسئلة لن تبقى

9- Baron A. Q. Jomini. كان يشغل منصب المستشار الاقدم في وزارة الخارجية الروسية من 1856 حتى 1888.

10- رقم 29. من پلونكيت الى ايرل گرانڤيل. سان بطرسبرغ، في 3 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 20.

كثيراً لتجد جوابها »[11].

واستطردت الجريدة لتستعرض مختلف المصالح التجارية والسياسية البريطانية والروسية في بلاد فارس. مشيرة الى الاتفاق الروسي - البريطاني المعقود قبل حرب القرم (1854 - 1856) ودعت الى استئناف تلك العلاقات التي كانت تشد الدولتين قبل تلك الحرب. وقالت: «ليس هناك في الواقع اي سبب يدعو الى نزاع بين روسيا وانكلترا في اسيا الوسطى »[12].

وفي اثناء استعراض الجريدة العلاقات الوثيقة بين روسيا وفارس نوهت بطلب الدولة الأخيرة المعونة العسكرية من روسيا ضد الكرد واوضحت الأمر بقولها:

« في حالة اتساع رقعة الثورة واتخاذها طابعاً خطيراً بامتدادها الى الحدود الروسية فسوف تصدر الاوامر للجيش الروسي بالقيام بمظاهرات (مناورات) على الحدود الفارسية ارهاباً للغزاة »... ولو حاول الكرد اللجوء الى تركيا فإن لدى الجيش الروسي امراً يقضي بعدم ملاحقتهم الى داخل حدودها مهما كانت الدواعي. »

وختمت مقالها بهذه العبارة «ونظراً لآخر التقارير ربما لن تكون المعونة الروسية ضرورية »[13].

ردّ الفعل البريطاني على الموقف الروسي

يبدو ان القلق اشتد ببريطانيا بسبب عرض روسيا المعونة العسكرية على فارس فصدرت برقيات لـ (پلونكيت) من وزير الخارجية (گرانفيل) تتضمن توجيه السؤال عن مبلغ الشائعات السارية من الصحة. فأجاب الممثل الدبلوماسي البريطاني برقياً أيضاً أنه قصد وزارة الخارجية الروسية مرة اخرى وبحث الامر مع (البارون جميني)، فأنهى اليه هذا بان الشاه الفارسي كان قد فاتح الوزير المفوض الروسي في طهران برغبته في المعونة الروسية بهدف اعادة الامن والنظام بين العشائر الكردية، وأن القيصر لدن وصول هذه الرغبة اليه بادر فوراً الى اعلان موافقته، بتحفظات حول امتناع الجيش الروسي من تعقيب الغزاة الكرد داخل الحدود التركية مهما كانت الظروف[14] وان البارون أشار بأن الانباء الأخيرة من كردستان تشير الى تحسن كبير في الوضع بحيث لاتعود هناك حاجة للمساعدة على اغلب الاحتمال وقال: بغض النظر عن هذا الواقع، فقد اتخذت التدابير لحشد قوات كافية على الحدود في حالة مالو دعت الحاجة اليها. إلا ان البارون لم يكشف عن حجم القوات التي تم حشدها[15].

وجرى البحث حول المساعدة العسكرية الروسية بين الأمير (لوبانوف روستوفسكي) Lobanov Rostovsky السفير

11- في رقم 28. مقتبس من (بيريگ). سان بطرسبرغ في 7 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 19.

12- في رقم 28. مقتبس من بيريك [المرجع السالف].

13- المرجع نفسه.

14- رقم 32 من پلونكيت الى ايرل كرانفيل - سان بطرسبرغ في 8 من تشرين الثاني 1880 تركيا رقم (5) 1880. ص 20.

15- المرجع نفسه.

الروسي في لندن ووزير الخارجية البريطاني في اثناء مقابلة له. فذكر ان الشاه طلب من القيصر المعونة العسكرية، والحّ عليه بان تكون تلك القوات بأمرة الحكومة الفارسية. الا ان القيصر - بحسب قول الامير - لم يوافق، لكنه وافق على حشد بعض القوات على الحدود[16].

وواصلت روسيا نهجها في سياسة المهادنة والترضية ازاء انكلترا. وذكر (گرانفيل) (لپلونكيت) ان السفير الروسي أبلِغ باعطاء التأكيدات بأن القيصر وإن أمر جنوده بالاقتراب من الحدود لكنه معتزم منعهم من عبورها بقدر الامكان. لأن «جلالته لن يتدخل مباشرة لنصرة الفرس خشية قيام مشاكل دولية». وذكر أيضاً ان (لوبانوف) اكد نية روسيا في البقاء داخل حدودها ولن تتعداها الى فارس او تركيا[17]. وقابل وزير الخارجية هذه التأكيدات باجابة مقتضبة لكن ذات دلالة واضحة وهي كما اثبتها نصاً: اجبته بان هذا بدون شك افضل خاتمة يمكن الوصول اليها[18].

وبانتشار الشائعات عن قرب ارسال معونة عسكرية للفرس. وردت انباء حركة جنود روس نحو الحدود، واسرع موظفو القنصليات البريطانية بابلاغ مرجعهم بكل مايقفون عليه من معلومات مهما صغر شأنها، حول قوات القفقاس وممّ تتألف وماهي وجهتها[19]. واعلى تقدير ذكرته التقارير للقوات الروسية المرابطة على الحدود كان 6000 [20]. وحاول الروس من ناحية أخرى التقليل من شأن هذه القوة وتعدادها، وأجاد (پلونكيت) كل الاجادة في وصف رهافة حسّ الروس في هذه المسألة حتى بعد نجاح الفرس في دحر الحملة الكردية. فقد نقل في تقرير له نص محادثة جرت بينه وبين وزير الخارجية الروسي [دي گيرس]. فيها أجاب الوزير على اقتراحه بصرف نظر حكومته عن حشد قوات روسية اضافية، بعد ان تحسن الوضع في كردستان. ولان الضرورة لاتدعو اليها.

«وكان كل ما أجاب (مسيودي گيرس De Guirs) أن اللوائين اللذين أرتات روسيا تحريكهما الى (نخشوان) لهما اهمية قصوى في نظرها»[21].

16- رقم 35 من ايرل گرانفيل الى مستر پلونكيت. لندن في 9 من تشرين الثاني 1880. تركيا رقم (5) (1881). ص 21.

17- رقم 41 من ايرل گرانفيل الى مستر پلونكيت. لندن في 16 من تشرين الثاني 1880 تركيا رقم 5 (1881) ص24.

18- المرجع نفسه.

19- المرجع نفسه.

20- رسالة 4 في رقم 67 من آيوت الى تومسن. تبريز. تركيا. رقم (1881) ص 70.

21- رقم 71 من پلونكت الى ايرل گرانفيل. سان بطرسبرغ في 14 من كانون الاول 1880. تركيا رقم 5 (1881) ص 58.

-7-

عامل "الاصلاحات" في موقف تركيا من حركة الشيخ

ليس مما يدعو الى الدهشة، ولا هو أمر يفوق التصور أن تكون الحكومة التركية قد ساندت رسمياً حركة الشيخ، مع ان اهدافه واهدافها كانت على طرفي نقيض تماماً بل يستحيل لقاؤها. على انهما اتفقا في مسألة واحدة فحسب هي مسألة الاصلاحات. فكلاهما كان يعارض في اجراء تلك الاصلاحات التي نصت عليها المادة الحادية والستّون من معاهدة برلين واتفاق الحلف الدفاعي الذي سنتصدى له بالبحث الآن وقد تساعدنا مناقشة مقتضبة للاسباب التي حدت بالترك الى مقاومة هذه الاصلاحات على تفهم أوضح للموقف التركي إزاء حركة الشيخ.

هناك كره تركي متأصل لكل مشروع أجنبي التصميم والاختراع. ومن ذلك مسألة الإصلاح فهي عند الترك لاكثر من وسيلة لغاية ومقدمة لتدخل اجنبي فعّال آخر. ولقد كان التدخل الخارجي بمختلف أشكاله منذ بداية القرن التاسع عشر يزج حكوماتهم في سلسلة من حروب جرت الوبال عليهم، وكلفتهم خسران القسم الاعظم من املاكهم في البلقان. وفي اذهانهم مازالت آخر كارثة. تلك هي حرب 1877 التي تمخضت بمؤتمر القسطنطينية صاحب فكرة الاصلاحات. في هذا المؤتمر نجحت براعة الجنرال (ايگناتيف Ignative) السفير الروسي لدى الباب العالي ودهائه الدبلوماسي في ايقاع تركيا - بموافقة تامة من الدول المعنية - في فخ لافكاك منه: إما أن تخضع لمطالب الاصلاحات الواسعة، واما ان تخوض حرباً جديدة مع روسيا دون مساعدة من اي طرف[1].

إن معارضة تركيا الشديدة للاصلاحات المفروضة لم تكن فحسب بسبب رغبتها في انقاذ الولايات الشرقية من المصير الذي آلت اليه املاكها في البلقان. فالواقع هو ان موقفها من الجزئين من الاملاك كان يختلف الى درجة كبيرة. الظاهر انها كانت قد سلّمت بخسارة املاكها في البلقان عندما بدأت في اوائل القرن التاسع عملية الانفصال عن الدولة العثمانية تتسارع بمختلف الدعوات القومية في الشعوب البلقانية مدعمة بقوة روسيا العسكرية العظيمة. ارتبطت شعوب البلقان الشديدة المراس ذات الاغلبية المسيحية بروسيا إما بجامعة المذهب الارثوذكسي (كاليونان ورومانيا) واما بجامعتي المذهب والاصل السلافي الواحد (كالجبل الاسود وصربيا وبلغاريا) ومن هذه الاقوام لايوجد نظائر في الولايات الشرقية العثمانية. فالشعبان الوحيدان هنا وهما الارمن والجيورجيون لايدينان بالاسلام ولايتبعان المذهب الروسي وليسا سلافاً وهما غير محاربين. لكن وبحسب العرف الموغل في القدم من التغلب الاسلامي في هذه الاصقاع، كانت تركيا تعدهما جزء لايتجزء من حياض الإسلام، وهي تعتبر

1 - اليوت: بعض الثورات Elliot: Some Revolutions. الص 274 - 295.

نفسها وصية قيّمة عليه بلا نزاع.

هناك نقطة اخرى لاتقل اهمية ويجب ان لاتغفل. تركيا تواجه دولة فارس وهي اضعف منها واكثر عجزاً، وهي لاشك تداعب الامل في ان تعوض مافقدته في اوروپا من اراض، بما يمكن ان تقتطعه من الجارة وكثيراً ما هزمت وأرغمت على التراجع المتواصل امام دول اوروپية اقوى منها ولعلها لم تفقد املها في انتزاع اذربيجان التركمانية اللغة، وكردستان السنية من فارس الضعيفة [2].

ووجبت علينا الاشارة هنا الى أن بريطانيا كانت من بين جميع الدول الكبرى شديدة الاهتمام بتنفيذ ماجاء في المادة الحادية والستين من معاهدة برلين[3]. فلا المانيا ولا النمسا، اظهرتا ايّ اهتمام بمصائر رعايا السلطان الآسيويين، في حين رأت فرنسا وايطاليا ان المسألة ذات اهمية خاصة لانگلترا فقط. وبقيت روسيا معادية لفكرة الاصلاح لا لأنها لاتستسيغ فكرة تجديد حيوية تركيا فحسب بل لأنها تخشى كذلك أن يؤدي المشروع الذي رعاه البريطانيون الى زيادة خطيرة في نفوذهم في تلك المنطقة الحساسة التي تتاخم اقاليمها القفقاسية. وانگلترا من جانبها كانت على أقصى درجة من الاهتمام بتطبيق الاصلاحات، فهي في رأيها السبيل الوحيدة لانقاذ الامبراطورية العثمانية من التصدع والانهيار قد تفقد بها سداً منيعاً يحول دون الزحف الروسي جنوباً. ان انهيار الامبراطورية سيهدد المضايق (البوسفور والدردنيل) وقناة السويس و(عدن) و (هرمز) التي تتحكم في ملاحة البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي فضلاً عن المشارف المؤدية الى امبراطورية الهند والتجارة العالمية. وبدا وكأن انگلترا وحدها من بين جميع الموقعين على معاهدة برلين كانت تنزل الاصلاحات منزلة كبرى وتعلق على تنفيذها اهمية قصوى في اصرارها على إفرادها مادة

2- كان هذان الاقليمان ابداً محور نزاع على الحيازة بين تركيا وفارس خلال القرون الاربعة الماضية وقد سبق للجيوش العثمانية ان استولت على الجزء الاكبر من هذه الاقاليم خلال الحروب التي خاضتها مع الصفويين، ثم في حروبها مع (نادر شاه). الا ان العثمانيين كانوا دائماً يتخلون عنها. ومعاهدة ارضروم المعقودة في (1847) التي رسمت الحدود بين الطرفين لم يحترمها اي منهما وبقيت مانعة عرضة للأخذ والرد والتغيير طوال القرن التاسع عشر. وفي العام (1905) انتهزت تركيا هزيمة الروس في الحرب اليابانية فاحتلت قسماً من هذه الاجزاء وبقيت في حوزتها حتى ارغمتها حرب البلقان في 1913 وتحديد قواتها العسكرية والسياسية على الجلاء عنها. ثم عاد الجيش العثماني الى الاقاليم عينها في (1917) على اثر انحلال الجيوش الروسية اثناء الثورة [انظر مينورسكي: مادة الكرد في دائرة المعارف الاسلامية) ومن الجدير بالذكر ذلك المرقف القوي الموالي للترك الذي ابداه اهالي اذربيجان الروسية اثناء الحرب العظمى الاولى الذين هم كاخوانهم في فارس تركمان وشيعة معاً [انظر قاسمزاده: النضال من اجل ماورا، القفقاس Firuz Kassimzade: The Struggle For Transcaucasia.

3- نصّ المادة الحادية والستون من معاهدة برلين: «يتعهد الباب العالي من غير اي تأخير بمباشرة التطوير والاصلاح المطلوب منه موقعياً في تلك الايالات التي يسكنها الارمن. وان يضمن لها الامن ضد الكرد والچركس. وسيعلم بفترات معينة الدول التي ستشرف على تنفيذها بالخطوات التي ستتخذ في هذا السبيل» [انظر هرتسلت في خارطة أوروپا بموجب المعاهدة ف 4، رقم 2736 {Hertslet. The Map Of Europe By Treaty}.

خاصة في اتفاق الحلف الدفاعي الذي وقعته مع تركيا سراً في الرابع من حزيران[4] 1878 اي قبل شهر واحد تقريباً من التوقيع على معاهدة برلين.

يعرض هذا الاتفاق مفتاحاً هاماً جداً لتفهم موقف تركيا من الاصلاحات. فمما يفهم من نص الاتفاق المثبت في الحاشية هنا ان السلطان يتعهد بالقيام بالاصلاحات وينزل للبريطانيين عن جزيرة قبرص مقابل تعهدهم بالمقاومة بقوة السلاح اية محاولة روسية للاحتفاظ بباطوم واردهان وقارص اذا ماحاولت هذه الدول ان تضبط اراضي أخرى تعود للدولة العثمانية زيادة على تلك الاقاليم.

تلك واحدة من مهازل التاريخ ومفارقاته العجيبة. فمع موقف انكلترا الصلب الحدي في مؤتمر برلين الذي ارغم روسيا على صرف النظر عن ضبط ارضروم وبايزيد ووادي (الشگرد) فضلا عن المناطق السفلى من باطوم، لانجدها تحاول منع روسيا من الاحتفاظ بباطوم واردهان وقارص!

ولاحاجة تدعونا لترديد القول ان خيبة السلطان هنا كانت كبيرة. فقد بدا واضحاً ان فشل بريطانيا في رفع يد روسيا عن هذه المناطق الثلاث المذكورة صراحة في الاتفاق، زلزلت ثقته في مقدرة بريطانيا او ربما رغبتها في الحرص على تنفيذ تعهداتها المقطوعة. وليس ببعيد ان السلطان شعر - بسبب نكوص بريطانيا عن القيام بواجبها كما نص في المعاهدة - بانه لم يعد بعدها ملزماً بتنفيذ الجزء الخاص به من الصفقة.

وقد بات معلوماً ان السر هنري لايارد السفير البريطاني للباب العالي قد زود في حينه بتعليمات من وزارته تقضي باستخدام نفوذه الكبير جداً عند السلطان لاقناعه بالسكوت عن خسارة باطوم والرضا بالامر الواقع[5] كما علمنا أيضاً بان السلطان أمسك عن اصدار فرمان يقضي بتخويل بريطانيا

4- نص المادة الاولى من اتفاق الحلف الدفاعي:

«إن احتفظت روسيا بـ(باطوم وقارص واردهان) او باي واحدة منها. وإن جرت اية محاولة في المستقبل من الزمن من قبل هذه الدولة للاستيلاء على اي مساحات أخرى في آسيا تعود تابعيتها لصاحب الجلالة الامبراطورية السلطان وبالشكل الذي تم تحديده وتثبيته في معاهدة السلام فان انكلترا تتعهد بالانضمام الى جلالة السلطان في الدفاع عنها بقوة السلاح.

وبمقابل ذلك فأن صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان يتعهد لانكلترا بمباشرة الاصلاحات الضرورية التي سيتفق عليها فيما بعد بين الدولتين. ومن اجل مساعدة انكلترا على اتخاذ التدابير الضرورية لتنفيذ تعهداتها الدفاعية. فان صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان يقبل أيضاً بالسماح لانكلترا باشغال جزيرة قبرص وادارتها »

[انظر هرتسلت: المرجع السالف الص 2722 - 2723].

5- بلغ نفوذ (لايارد) حداً عظيماً. حتى ان رويز Reuiz السفير الالماني في وقتها كان يلقبه بنائب السلطان [انظر مدليكوت: مؤتمر برلين وما بعده ص 114 Medlicot: The Congress of Berlin and After. 1930 لندن (قلنا)]. ولايارد هو عين ذلك المستكشف الاركيولوجي الشهير (1817 - 1895) الذي ساهمت تنقيباته في بلاد الرافدين مساهمة جليلة في كشف معالم الحضارتين الأشورية والبابلية. ترك وظيفته القضائية في لندن (1839) وشرع في رحلة مغامرة. من استنبول (1842) واستخدمه السفير البريطاني (كانگ) موظفاً دبلوماسياً غير رسمي. واستقر في الموصل وشرع في التنقيب في اطلال نينوى ونمرود (كالح) منذ 1845 فازاح التراب عن قصور ملوك آشور=

ادارة قبرص. وقبل اعطاء موافقته، حاول اثناء التصديق على الاتفاق إضافة شرط اليها يقضي باحتفاظه بحقه السلطاني في التصرف بخصوص مايتعلق بأي اصلاحات قد تجري في املاكه الآسيوية[6] ولم ينجح (لايارد) في تبادل وثائق المصادقة على المعاهدة من دون الاضافة المقترحة إلا بعد زمن طويل[7].

في هذه الفترة بدأ النفوذ البريطاني في تركيا يتدنى بصورة مطردة. وفي نهاية العام 1879، ولم تكمل بعد سنة واحدة على نهاية الحرب الروسية - التركية عزف السلطان حتى عن التظاهر باتباع المشورة البريطانية[8]. وكان لهذا اسباب عدة.

اولدت الحرب شعوراً عدائياً قوياً للاجانب في نفوس الاتراك، وازاء كل الدول الكبرى وانكلترا بنوع خاص وقد باتت هذه موضع شك بسبب «دور لها في الصفقات المعقودة خلال العامين الماضيين لم تسفر الا عن خيبة وابهام للترك» وبات الباب العالي يشك في نوايا بريطانيا لعدم ثباتها في تحركها السياسي والوفاء بتعهداتها فمثلا كشفت عن عجز في الدفاع عن مصالح الترك وفق ماتعهدت به الحلف الدفاعي الأمر الذي حمل دوائر تركية متنفذة عديدة اتهام بريطانيا بأنها ماعقدت هذا الحلف إلا بقصد الحصول على جزيرة قبرص.

بل واكثر من هذا. إن اهتمام بريطانيا بالابقاء على كيان الامبراطورية العثمانية وصيانته، وجهودها المتواصلة لبلوغ هذه الغاية جعلها موضع شك وحنق عند السلطان وبطانته. لم يكن هذا الشك دون اساس. ففي وقت ما بدا البريطانيون شديدي الحرص على الكيان العثماني حتى انهم فكروا في بسط حماية على تركيا[9].

و(سالسبوري) الذي كان قد وضع خطة واسعة النطاق[10]. بهدف المحافظة على الكيان التركي

= في القرون الـ 7 و8 و9 لما قبل الميلاد. واستخرج كثيراً من المنحوتات والمجسمات وهي اليوم تعد من اثمن مايملكه المتحف البريطاني. كذلك وفق للكشف عن مكتبة اشور بانيبال العظيمة التي القت ضوءاً ساطعاً على ثقافة وحضارة تلك الامبراطورية وكتابه (كشوف في اطلال نينوى وبابل (لندن 1853) احدث ضجة عالمية. ارتقت به المناصب ليغدو سفيراً لبلاده لدى الباب العالي. وعرف بعطفه ودفاعه عن الاقليات المسيحية (الآشوريين والأرمن) طوال وجوده سفيراً.

6- كذا. ص 114.

7- كذا.

8- كذا ص 295.

9- انظر كارلايل ماكون: محميتنا الجديدة، تركيا الآسيوية، Carlile McCoon: Our New Protectorate, Turkey in Asia: لندن (1879).

10- بُني تخطيط سالسبوري على دعامات اساسية ثلاثة: جبهة عسكرية رصينة في اوروبا. ضمانة عسكرية انكليزية - نمساوية لأملاك السلطان. اصلاحات داخلية بهدف زيادة النشاط والفعالية في جسم الامبراطورية. وبناء على هذا صدرت للسفير لايارد تعليمات توصيه بالسعي للفوز بتعهد رسمي من السلطان بالقيام (أ) بتأليف قوة من الدرك في الولايات الآسيوية (ب) تشكيل محاكم مركزية في عدد معين من اهم المدن الآسيوية تمتد صلاحيتها الى المحاكم =

واشاعة روح التجديد فيها - رغب كثيراً في الحصول على موافقة السلطان في حين «بقي الخوف من روسيا مستوليا عليه»[11]. وكان يدرك ان عامل الوقت مهم جداً لاعتقاده بان السلطان المرتاب بطبعه، والمعرض الى درجة كبيرة لتأثير بطانته المتفسخة المرتشية، قد يأبى الموافقة عندما يكون قادراً على ذلك. واليك ماجاء، في رسالة كتبها اللورد (سالسبوري) للسر (هنري لايارد).

«إن قدرتنا على الاصرار بهذا، ستتضاءل بمرور كل شهر»[12]

وادرك البريطانيون بان سلطة السلطان المطلقة التي يلعب بها اولئك المقربون منه ستقوم عقبة كاداء أمام أي محاولة للاصلاح. وفي مسرى بحثهم عن وسيلة لازاحة هذه العقبة اثاروا شكوك السلطان وبطانته في نواياهم.

وهناك تلك المقالة في جريدة [منارة البوسفور]

وقد جاء فيها اتهام للحكومة البريطانية بمحاولة سلب السلطان حق سيادته في آسيا الصغرى. ومما يجب الانتباه بان هذا المقال اعيد نشره في جرائد تركية عديدة ايامذاك[13].

ولم تكن مخاوف السلطان حول مصير الايالات الشرقية دون أساس. فالتطورات الاخيرة في البوسنه والروملي الشرقية ومصر، حيث كانت القوى الكبرى قد اضطلعت بالادارة المباشرة مع الاقرار بسيادته الاسمية عليها - كشفت عن عجزه التام في المحافظة على سيادته الفعّالة في تلك البلاد[14].

وهناك سبب آخر لاستياء تركيا المتعاظم من بريطانيا هو رفض اخيرتهما امدادها بالعون المالي. ففي فترة ما، كانت تركيا مستعدة للموافقة على اي شيء مقابل الحصول على القرض. إلا ان طلب السلطان المتكرر لقرض انكليزي لم يلب. الأمر الذي اثار حنق الحكومة العثمانية وسخطها. وأثر عن السلطان بالذات قوله: ألا فلتقدم حكومة جلالته (البريطانية) على مساعدتنا في ايجاد المال وسأقطع على نفسي عهداً بان الاصلاحات المتطلبة منّا وأخرى غيرها، ستنجز[15].

وتمادى فصرح بأنه على استعداد لتقليد شخصية انكليزية منصب وكالة وزارة المالية[16]. هذا الرفض المتكرر الذي حز في النفس، يفسر ولاشك مسلك الباب العالي، ربما عاد رفض بريطانيا طلب القرض المتكرر لقاء اي شروط. الى الفوضى السائدة في وضع تركيا المالي وخوف بريطانيا من انهيار أو

= الادنى منها، على ان يكون في كل واحدة منها رجل قانون اوروبي واحد على الاقل، ذو كفاءة علمية واستقامة. (ج) تعيين جباة للضرائب في كل ايالة، تناط بهم جباية العائدات. والغاء ضريبة الاعشار على المحاصيل الزراعية [للمزيد من التفاصيل يراجع مدليكوت المصدر السالف ص 293].

11- كذا.

12- المرجع نفسه. ص 292.

13- كذا. ص 293.

14- كذا. ص 295.

15- كذا ص 292.

16- كذا ص 295.

تصدع تام في الامبراطورية العثمانية لاعلاج له. فضلاً عن عدم ثقتها بصدق تركيا في الوفاء بتعهداتها.

وهكذا نرى، فالترك الذين كانوا ضدّ الاصلاحات من البداية، زادت معارضتهم لها باطراد تردي علاقاتهم بانگلترا[17]. ومعارضة الترك الشديدة للاصلاح كانت الى حد كبير مسؤولة عن موقفها المتساهل مع الشيخ عبيدالله. فحركة الشيخ رغم اهدافها القومية وطموحها الى دولة كردية مستقلة، ساعدت بشكل ما في احباط عملية الاصلاحات على حد قول الاسقف (كريميان) وحولت الاهتمام بقضية الأرمن، الى الاهتمام بالكرد.

ومن وجهة النظر التركية لم يعن غزو الشيخ فارس استئنافاً وامتداداً لحركة مضادة للاصلاحات التي نصت عليها معاهدة برلين فحسب. بل قضت حركته أيضاً على فكرة احتمال ضمها الاقاليم الكردية في فارس.

17- كذا ص 302. [قلنا يقصد بالسلطان في هذا الفصل عبدالحميد الثاني].

ملحق -أ-

رسالة الشيخ عبيدالله الى الدكتور كوچران [مؤرخة في (من ايلول). نقلاً عن اصولها في الوثائق البريطانية المار ذكرها. كان الدكتور كوچران قد سلّم نصها للقنصل البريطاني في اورمية. واصل الرسالة باللغة الفارسية]

بعد السلام...

لابد وانكم سمعتم مافعل (شرف الدولة) في السنة الماضية. فقد أمر بقطع رؤوس خمسين شخصاً من اتباعي دون ذنب ارتكبوه. او جريمة عزيت اليهم. كما أنه الحق بي خسارة مالية تقدر بمائة الف تومان.

ان نوايا الدولتين الفارسية والعثمانية سيئة. ولاتعترفان بحقوق لنا. والحكومة الفارسية في (اشنويه) ضربت (فرج الله خان ابن حاجي غفور خان) من اهالي المدينة حتى مات. وقبل سنة واحدة القى (معين الدولة) القبض على (عبدالله آغا وابراهيم آغا) من اهالي أشنويه وفرض عليهم دفع غرامة قدرها عشرون ألف تومان بدون سبب أو حق. فلم يبق لديهم شيء يقيمون به أود عائلاتهم وكذلك خطف ثلاث بنات كرديات. وقبض والي موكري على (فوزي بك) واعتدى عليه بالضرب بلا سبب وسلبه الفاً وخمسمائة تومان. وانتزع عدداً كبيراً من النساء المتزوجات وضمهن الى حريمه. وقبل زمن قريب استدعى حاكم صاوبلاغ (حمزه منگوري) وهو من رؤساء المنگور بحجة تقديم الطاعة. إلا انه كان يقصد ايداعه السجن. ولكن (حمزه) تمكن من الفرار بعد ان قتل اثنين من رجال الحاكم ونجا.

يصعب كثيراً التكهن بعواقب هذه الاعمال المنافية والظلم والاضطهاد ان هذه الامور جعلت كردستان في وضع لاسبيل لها إلا الوحدة الفورية لمقاومة الاعمال القبيحة والجنايات الفظيعة. ونرجو منكم أحر الرجاء بأن تشرحوا كل شيء للقنصل الانكليزي في تبريز وتطلعوه على ما جرى بحثه بخصوص مسألة مستقبل كردستان. وليكون الامر واضحاً لديكم فإننا نرسل اليكم معتمدنا (حاجي ملا اسماعيل) ليشرح لكم الامور شرحاً وافياً.

رسالة الشيخ الثانية للدكتور كوچران - اورمية

مؤرخة في 5 من تشرين الاول 1880

بعد السلام...

ارسل اليكم ملا اسماعيل ليبسط لكم بشكل سري ماشرحته له عن مجريات الاوضاع هنا وارجوك

ان تبلغ الحكومة الانگليزية بصورة خصوصية حقيقية المسألة في كردستان ذهاب ابني الى صاوبلاغ (مهاباد الحالية).

ان الشعب الكردي الذي يتألف من اكثر من خمسمائة ألف عائلة هو شعب مختلف. دينهم مختلف وتقاليدهم وشرائعهم مختلفة. لقد اشتهر الكرد عند جميع الامم بالشر والمشاكسة، وبهذا كانت تعرف كردستان وهكذا كانوا يصورونها. فلو ان واحداً منا اقدم على عمل سيء فان الف شخص بريء مسالم يصيبه سوء السمعة وتسود صحيفته. ولتكن على معرفة تامة بان السبب في كل هذا هو لامبالاة السلطات التركية والفارسية وتقاعسهما. فكردستان تقع في وسط هاتين الدولتين ولكل حكومة منهما اسبابها الخاصة في عدم التفريق بين الصالح والطالح، والمذنب والبريء. وعلى هذا الاساس يبقى الاشقياء، وامّا ذوو الصلاح والاستقامة فيقضى عليهم. ربما سمعت عن عشيرة (علي آغا الشكاك) وهي عشيرة عرفت بشقاوتها وتجاوزاتها ضدّ ابناء جلدتها الكرد من سلب ونهب مثلما كانت ضد المسلمين الاخرين، والحكومات تعلم جيداً بجرائمها. وسواء في الامر ان اقدمت الحكومات على القيام باجراءات بحقها أم لم تقدم فان ابناء تلك العشيرة لن يتمدنوا وسيظلون على حالهم من الجهل والتخلف. وتلك الجرائم والتجاوزات التي تقوم بها عشيرة (الهركي) في تركيا فهي مشهورة وواضحة، وكلتا الحكومتين التركية والفارسية إما تجهلان الوسائل لتحويل هذه العشائر الى اناس متحضرين وإما انها لاتريد لهم ذلك. ولهذا اشتهرت كردستان بسوء السمعة وما عاد هناك فرق بين الناس المسالمين الوادعين وبين المجرمين الاشقياء. إن الرؤساء والزعماء الكردستانيين سواء أهمْ من الرعايا الترك أو الفرس الى جانب كلّ اهالي كردستان افراداً وجماعات، هم متحدون ومتفقون بان الحالة لم تعد محتملة بهذه الصورة. وبواقع وجود حكومتين من الضروري ان يُعمل شيء وبعد ان تدرك الحكومات الغربية حقيقة القضية ستقوم بالتحقيق حول دولتنا. اننا شعب مقسّم ونريد ان يكون امرنا بيدنا لنكون قادرين على انزال العقاب بالمسيئين من ابناء امتنا وان نحلّ مشاكلنا بانفسنا وان يكون لنا مكاننا بين الدول الاخرى وان يكون لنا حقوق مثلها. وأما بخصوص الخارجين على القانون فنحن على استعداد للتعهد بالاّ يصيب شعب أو ملة اي مكروه او ضرر منّا.

وامّا الغرض من شخوص ابني الى صاوبلاغ فهو لاجل بحث الموقف في كردستان ومن الضروري أن لايصيبه اي مكروه. والا فان كردستان كلها ستثور. ان شعب كردستان لايمكن أن يتحمل الظلم والاضطهاد من قبل الحكومتين التركية والفارسية الى مالانهاية...

وبالختام تقبلوا منا اعظم التقدير والاحترام.

الخادم: الشيخ عبدالله الشمدیناني

ملحق -ب-

الامير بحري ابن بدرخان

يتردد اسم هذه الشخصية الكردية كثيراً في الدراستين الاوليين اللتين اثبتناهما. كما ورد ذكره أيضاً وبصورة عرضية في مراجع ومضان أخرى واشهرها واوفاها كتاب: البدرخانيون[1] الذي كان واحداً من مصادرنا الرئيسه لاسيما بخصوص صلته بحركة الشيخ عبيدالله النهري والدور الذي انيط به في كردستان اثناء ذلك. في عهد السلاطين الثلاثة عبدالعزيز(1861- 1876) ومراد الخامس (1876) وعبدالحميد الثاني (1876 - 1909) على الاخص. فقد كان مبعوث السلطان الى الشيخ، بما يبدو انه موضع ثقة وبمظهر المؤيد لاهداف الشيخ والمشجع لها بل المساهم فيها. والامر سيان، إن افترضنا بان هجوم الشيخ في فارس كان برضا الباب العالي وان (بحري) عمل برغبة السلطان فحسب، أو أن مساهمته كانت بدافع تلقائي شخصي خلافاً لرغبة السلطان. فهذا الامير البدرخاني يبدو في الحالتين قومياً مخلصاً يُعني بمصير شعبه.

بحري بك، أو رضا بحري بك، او بحري رضا بك. أو بحري باشا (فيما بعد) هو واحد من ابناء الامير بدرخان، وهو من ام يزيدية اسرها أبوه ثم تزوج بها. وربما يعزى سبب تسميته بهذا الاسم الى ان ولادته حصلت اثناء ماكان الامير بدرخان في طريقه وافراد عائلته الى المنفى بحراً على ظهر السفينة الى (كاندي) ثم الى دمشق في العام 1846. [لايذكر صاحب كتاب «البدرخانيون» تاريخاً لميلاده ولا لوفاته].

تذكر مصادر الاسرة البدرخانية ان السلطان عبدالعزيز ربما في العام 1870 او بعده بقليل اختار من ابناء الامير المنفي الذي توفي في ذلك العام، اربعة من اولاده فاصدر فرماناً بتعيينهم كل برتبة القائم مقام العسكرية (تقابل رتبة عقيد) وهم خلاف (بحري)، نجيب بك، ومصطفى بك وبدري بك. وانيطت بهم مهام مدنية وضبطية في الغالب. وكما يستفاد من مذكرات الكاتب التركي الشهير (احمد مدحت) ان (بحري بك) كان الضابط المشرف والمسؤول عن تنفيذ حكم النفي الصادر بحقه وبحق الشاعر الكبير (نامق كمال) والصحافي والكاتب (ابو ضياء توفيق) وغيرهم من ذوي الافكار الحرة الى جزيرة رودس في العام 1873 نجد هذا الكاتب يمتدح سلوك (بحري بك) الذي انقذهم كما قال من جاسوس دسّ عليهم وهم في الباخرة التي اقلتهم ونعته «بالرجل الشريف للغاية».

1- بدرخانيو جزيرة بوتان - ومحاضر اجتماعات الجمعية العائلية البدرخانية. ماليسانژ - ترجمة: شكور مصطفى. مطبعة وزارة الثقافة - اربيل 1998.

كلف بحري بك وقد اصبح واحداً من ياورية السلطان اي (المرافقين العسكريين) في الحرب الروسية التركية (1877 - 1878) بالذهاب الى كردستان واستنفار العشائر وتجنيد المطوعة غير النظامية وجمع الاعانات المالية والعينية فقام باعباء المهمة وما من شك في ان علاقته بالشيخ عبيدالله نشأت منذ ذلك الحين وليس ببعيد ان يكون هو صاحب فكرة تقليد الشيخ منصب القيادة العامة للقوات الكردية غير النظامية التي شاركت في تلك الحرب.

جاء في كتاب (البدرخانيون) أن الباب العالي كلفه في 1880 بالتوسط لانهاء عصيان اخيه غير الشقيق (حسين كنعان) في البوتان. كان حسين كنعان ممن شارك في الحرب الروسية التركية وعاد بعدها الى كردستان هو والاخ الآخر (عثمان بك) معلنين تمرداً على الدولة، وبقيا يتحديان السلطة زهاء عامين فلجأت الى تجريد حملة عسكرية بقيادة (عزّت باشا المشير) إلا ان اشتباكاً لم يحصل اذ ارتأى السلطان عبدالحميد ان يستعين بوساطة بحري بك الذي اصبح وقتذك ياوراً أقدم للسلطان. وقد نجح وتمكن من اقناع اخويه بترك كردستان والعودة للسكنى في استنبول. وفي عين السنة بعث به (عبدالحميد) إلى الشيخ عبيدالله في حكاري.

فضلاً عما ورد ذكره في الترجمات هنا حول جهوده في هذا الصدد يذكر صاحب (البدرخانيون) عن علاقته بالشيخ وبحركته، هذا:

«... وحلّ الشيخ بمساعدته الخلافات القائمة بين عشائر مامش ومنگور وبين ايران. وكسبه للسلطان وقد جمع سائر رؤساء العشائر في منطقة حكاري وقدّم لهم باسم عبدالحميد مختلف الخلع والهدايا والسلاح ومهمات أخرى».

وأنعم السلطان على بحري بك برتبة الپاشوية، الا انه كما يبدو أبعده عنه في مهمات شبيهة بتلك التي ذكرناها آنفاً. واغلب الظن ان الدور المزدوج الذي اضطلع به (بحري) في كردستان في حركة الشيخ عبيدالله. فضلاً عن طبع في هذا السلطان بالشك في كلّ اعوانه والمقربين منه - كان لهما دخل في هذا الاقصاء.

وقدر (البحري) بسبب من هذا أن يمثل دوراً رئيسياً في واحدة من المآسي الكبرى التي حفلت بها حياة الدولة العثمانية. واقصد بها مأساة القضاء على حياة مدحت باشا (1822 - 1884) الصدر الاعظم، ابي الدستور العثماني، وصاحب الاصلاحات العظيمة اثناء ولايته على بغداد (1868 - 1872) بأمر صادر من السلطان عبدالحميد مع صديقه وزميله محمود باشا الوزير. وكلاهما سجين في بلدة الطائف بالحجاز[2].

2- تكاد كتب التاريخ الكبرى والموسوعات العلمية العالمية لاتخلو في سيرة هذا المصلح الكبير والنهاية المؤسفة التي آل اليها. اراد عبدالحميد التخلص منه بعد توليه الملك اثر خلع اخيه عبدالعزيز، بسبب اصراره على إعمال الدستور الذي سنه في 1876. فاخترع له تهمة ملفقة باسناده تدبير مقتل اخيه المخلوع (الخفيف العقل). واحاله مع رفاق له مشاركين في وضع الدستور الى مجلس عرفي عسكري حكم عليهم بالاعدام، ثم ابدل بالنفي الى الطائف.

لايذكر صاحب كتاب (البدرخانيون) الوظيفة التي اسندت لبحري بك بعد ابعاده عن القصر، اللهم مايتعلق بمسؤوليته عن المبعدين السياسيين والمنفيين الى الحجاز ويثبت تقريرين له عنهم رفعهما الى الجهات المختصة (السّراي اي الحكومة المركزية). اولهما يتعلق بنشاطهم السياسّي.

«... ان (لودوس) ترجمان القنصل الانكليزي في جدة، يتردد في هذه الآونة الى مكة بصورة متواصلة وهو يرسل المعلومات الى مركز الإدارة البريطانية في السودان. وقد ذهب المذكور قبل يومين بنفسه الى (الطائف)... واما بخصوص اسقاط الحقوق المدنية للمجرمين (يقصد مدحت پاشا وصحبه) الموجودين في الطائف، فنحن لم نبلغ حولهم بأمر رسمي او قرار من دار السعادة (استنبول) بخصوص ذلك. والپاشا الوالي ايضاً لاعلم له بسقوط حقوقهم المدنية، للأمر بقطع مخصصاتهم وتزويدهم بالطعام من قدور الجيش (اي كالسجناء العاديين...)

«وفي تقرير آخر كتب بعنوان «احوال المجرمين المبعدين الى الطائف».

«ان الثكنة التي يقيمون فيها ذات تهوية جيدة، وانه اعطي غرفة واحدة لكل منهم.. ويصرف للمتقدمين (اصحاب المقامات العالية) منهم على مأكلهم ومشربهم مايقرب من 20000 قرش من الاقچات (الضرائب) شهرياً ثم خفض المبلغ الى 5000 قرش منذ سنة وهم لايعاملون كمجرمين بالتأكيد. والادارة تجهل بأنهم مجرمون اسقطت عنهم الحقوق المدنية، فهم يعاملون كمتهمين سياسيين عادةً، واحتمال اتصالاتهم ومخابراتهم، وبث الاراء المفسدة من الامور الشائعة. وواسطة اتصالاتهم هو [اشرف بك] طبيب محجر جدة. و[نوري بك وبكر بك] طبيبا مكة. وان الاولين منهم يتحدثان علنا في صالح مدحت (پاشا). وان الادارة في جدة تعلم بذلك تماماً... اما احتمال هروب المجرمين المذكورين فهو غير وارد اطلاقاً ولو خطر ذلك ببالهم، فان اجسادهم ستعلق على اسنة الحراب وهم لايجهلون ذلك. إلا ان اتصالاتهم مع استنبول مستمرة وتردهم منها نقود وثياب... [التوقيع.]

الظاهر هو انه كان يحمل أمر القضاء على حياة مدحت وزميله خنقاً اذ يذكر البيمباشي (المقدم) محمد لطفي بك[3].

«إن الذي جاء بامر قتل مدحت پاشا ومحمود پاشا الى والي الحجاز (الپاشا) هو مرافق البادیشاه بحري بك بدرخان پاشا زاده. وبسبب تأخره في ايصال الأمر نال الوالي توبيخاً وتكديراً من البادیشاه».

من هذه الفقرة يستدل على ان اقصاء بحري بك عن منصبه في القصر. تم في اعقاب العام 1884. الا ان الإبهام في السيرة التي وردت له - حول وجوده في الحجاز وطبيعة المهمة التي اوكلت اليه. أهي مراقبة المحكومين والمبعدين فحسب؟ هل كان يحتفظ وقت ذاك بمنصبه كمرافق للسلطان؟. وهل ان التقارير التي كتبها (بحري) عن الحجاز كانت بعد تنفيذ أمر الإعدام او قبله؟ كل مايمكن أن

3- اسماعيل حقي اوزون چارشيلي.

نستخلص من الاسلوب المضطرب المشوش لصاحب (البدرخانيون) انه سافر الى الحجاز مرتين.

فليس من المجدي او المعقول ان يكتب تقريراً عن احوال سجنا ء تمَّ اعدامهم الحياة ولم يعودوا موضع اهتمام للادارة.

لفتت نظري في السيرة فقرة نقلت عن (محمد صالح بدرخان) الذي زاره في منزله فكتب «ليس في منزل الامير بحري عداه وحرمه اي مسلم» وهذا يعني بصورة قاطعة إمّا يقصد أنه من رآهم فيه هم يزيدية اقرباء لوالدة بحري او خدماً من ديانات أخرى. كما يذكر كاتب السيرة أن له من الاولاد ابنا اسمه (نصرت) وابنتين هما اسماء ورقية. توفي بحري بك في العام 1896. وكان قد احيل الى التقاعد قبلها ببضع سنوات.

جليل جليلي

حركة الشيخ عبيدالله النهري [العام 1881]

وهو مستّل من كتابه الموسوم انتفاضة الشيخ عبيدالله الذي الفّه
باللغة الروسية ونشره في الاتحاد السوفياتي في العام 1967 .
ترجمه برمته (سيامند سيرتي) ونشرته في العام 1979 رابطة كاوا
للمثقفين اليساريين الكرد في بيروت - لبنان

1- الاستعداد للانتفاضة.

2- هجوم الشيخ في فارس.

-1-

الاستعداد للانتفاضة

بعد انتفاضة بوتان وجزيرة ابن عمر، شبت الثورة في اقليم حكاري الجبلي من كردستان القريب من الحدود التركية - الفارسية. وكانت مرحلة جديدة من الكفاح ضد الاتراك والفرس المستبدين بالكرد، ولشيوخ النقشبندية دور مركزي في التهيئة لها. وكانت التكايا مركزاً لهم وللجماعات الدينية الأخرى[1] ويرتبط اتباعهم ومريدوهم فيما بينهم برباط اشد متانة من الرابطة العائلية.[2]

وتمتع الشيخ عبيدالله بنفوذ عظيم. وهو القطب النقشبندي الكردي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ويعد في الوقت عينه من كبار رجال الاقطاع، المهتمين بالتجارة، وتأمين التعامل التجاري وبوضع حد لاعمال الشقاوة والفوضى وقطع الطرق. وكان لمركزه الدبني اثره في النهج السياسي الذي انتهجه فيما بعد، مستفيداً من استياء المجتمع الكردي وسخطه على الموظفين العثمانيين والحكومة. وبدت تكيته مركزاً ومقراً للدعاة والمريدين ومقصداً لنوابه وخلفائه الذين كانوا يترأسون التكايا في مختلف المناطق. ونحن لانملك كثيراً من المعلومات عن هذه الشخصية إلا ان (نيكيتين) يزودنا بمعارف طريفة حول طبيعة سلطته الروحية في بحث عنوانه "الكرد يتحدثون عن أنفسهم"[3] وعن الشيخ عبيدالله راجع جريدة (القفقاس) العدد 298 رقم- العام 1880. وقد ذكر فيها ايضاً شيئاً عن نسبه،[4] وعن مسقط رأسه شمدينان[5] فهو يذكر ان شهرة الاسرة ونفوذها انما بدأ في حياة والده الشيخ طه الجم الحيوية، ورث عنه عدداً من الضياع التي جاءته منحاً من السلطان والشاه. وقد زاد فيها حتى ناهزت المائتين فعدّ واحداً من كبار الملاكين في كردستان هذه الملكية الاقطاعية الكبيرة التي راحت تزاحم الاقطاعيين الكبار هناك كانت بنظر شيوخ بارزان مناقضة للصفة الدينية الصوفية التي يدعيها الشيخ. فنددوا بها واتهموا شيوخ شمدينان بالخروج عن جادة الطريقة والدين وقالوا أنهم علمانيون اكثر مما هم روحانيون[6].

1- غالبية الكرد هم من السنية وعلى المذهب الشافعي. واهم الطرائق الصوفية لديهم هي القادرية والنقشبندية والمولوية.

2- مصطفى كمال سبيل تركيا الحديثة ج 1.ط موسكو 1922. ص 388. والطريقة النقشبندية بنظر المستشرق الامريكي برنارد لويس كانت هناك في نزاع سياسي مع الطبقة التركية الحاكمة. انظر Bernard Louis قيام تركيا الحديثة. نيويورك 1961. ص 403 The Emergence of Modern Turkey .

3- باسيل نيكيتين. B. Niketin: Les Kurdes Racontes Pareu Meme.

4- نيكيتين المرجع السالف.

5- بليدة في حكاري كان الشيخ بقيم فيه.h

6- نيكتين المرجع السالف ص 149.

كان الشيخ عبيدالله يملك اكبر مزارع التبوغ في حكاري، والطلب عليها من الخارج شديد ولقي الشيخ منافسه القوي في شركة الانحصار (الريجي) الفرنسية صاحبة الامتياز في الامبراطورية العثمانية. واهتم الشيخ باستتاب الأمن وسلامة الطرق تأميناً للنقل التجاري وشنّ حرباً لاهوادة فيها على عوامل الفوضى وقطع الطرق وما اليها، لمصلحة تجارته.

وفي اثناء الحرب عمل على نشر نفوذه السياسي في سائر كردستان ودعا الى كردستان مستقلة ولقيت دعوته هذه تأييداً كبيراً من الكرد بسبب اهدافه ومساعيه لوقف شراهة الادارة في نهب البلاد وضمن له هذا توطيد سلطته على مناطق واسعة خارج نطاق منطقته. وشارك في حركته المناهضة اسرُ الامراء والحكام الكرد الذين فقدوا سلطتهم، من رواندوز وبادينان وبدليس. فضلاً عن الرؤساء الروحانيين الناقمين على الحكم التركي الذين استهدفوا لفقدان زعاماتهم الروحية. إلا ان الشيوخ الصغار الاقرب طبقياً الى العامة كانوا اكثر من غيرهم تحمساً لدعوة الشيخ.

وباشر الشيخ باجراءات تحضيرية للثورة ولم تكن الحكومة بغافلة عنها. فبادرت بارسال مفتي (وان) اليه. الا ان محادثاتهما التي دامت اسبوعاً لم تكن مجدية وقام الشيخ خلالها بعرض اسباب شكواه وعلل استيائه ومنها سوء الادارة[7]

وقد كتب اللواء (زيليني) عنها في تقريره المرفوع للقيادة العامة للجيش في منطقة القفقاس في 15 من شباط 1880:

«في نية الشيخ اعلان انفصال كردستان والاستقلال التام منتهزاً ضعف تركيا حالياً، ومتيقناً بانها سائرة الى الانهيار والانحلال التامين[8]»

ولقيت دعوة الشيخ واجراءاته الاولية في هذا الشأن استحساناً وحماسة وبات بعض المدن الفارسية كـ(خوي) و(صاوبلاغ) و(اورميه) و(اشنويه) قواعد لإمداد الثوار بالسلاح والعتاد.

كتب (كريبل) القنصل الروسي في كانون الاول 1879 مايلي:

«في هذه الايام يتهيأ الشيخ للقيام بثورة على الدولة العثمانية وفي نيته اقامة دولة مستقلة في كردستان تركيا. ليكون هو على رأسها. وقد اختار مدينة الموصل عاصمة لها»[9].

واتجه الشيخ الى روسيا اكثر من اعتماده على بريطانيا، مبرراً ذلك بقوله «خيرٌ لك أن تكون مع الاسد لا مع الثعلب»[10] واتصل لأجل ذلك بـ(امير مللر) القنصل الروسي في ارضروم وضاعف اتصالاته فيما بعد عند فتح وكالة قنصلية في مدينة (وان) وفي هذا يكتب (كمساركان):

«بعد ان زاولت مهام وكالة القنصلية في وان، ارسل اليّ الشيخ عبيدالله مبعوثه (يوسف آغا)

7- الارشيف الحربي التاريخي للحكومة المركزية.

8- كذا.

9- ارشيف السياسة الخارجية الروسية. مهمة في فارس 877 - 1896. ص4.

10- الارشيف الحربي... المرجع السالف.

ببعض المقترحات)[11].

شرح الشيخ اغراضه السياسية واسبابها بتفصيل عن طريق (سعيد محمد سعيد) وهو مبعوث آخر له ارسله في شهر تشرين الاول للقاء، نائب القنصل (كمساركان). ومما ذكره له ان الشيخ على ثقة بان الدولة العثمانية عاجزة تمآم عجز عن المحافظة على أمن ورعاية الشعوب الخاضعة لها. بل هي خطر على حياة المواطنين ومايملكون، وان الشيخ يرى من واجبه الدفاع عن الشعب الكردي وهو الأجدر بهذا والمؤتمن[12] ونسب المبعوث الى الشيخ قوله ان الادارة التركية لاهم لها غير افقار الشعب بنهبه وسلبه، وإنها هي اساس كل البلايا والشرور بدءً بصغار موظفيها وانتهاءً بكبارهم. وهم يمتصون دماء السكان، وان الاهالي لم يعد في وسعهم صبراً. والمسيحيون والكرد في هذا سواء، وان ارتكب بعض الكرد اعمالاً لاقانونية فهذا يعود الى فساد الادارة بالنتيجة[13] واكد المبعوث لنائب القنصل بصورة خاصة ان الشيخ يفضل المساندة الروسية وحمايتها، ففضلاً عن مجاورة روسيا لتركيا فان احترام الكرد لها يفوق احترامهم بريطانيا بكثير[14] ولفت انظار نائب القنصل الى الموقع الستراتيجي الهام لكردستان وقال ان الكرد بمقدورهم أن يؤثروا تأثيراً خطيراً على مجرى الاحداث في حالة نشوب حرب بين روسيا أو تركيا أو بينها وبين بريطانيا. ففي ايديهم كل الممرات الجبلية الهامة في ايالتي (وان) و(دياربكر)[15].

على ان (كامساركان) في تقريره الدوري الى السفير الروسي باستنبول أوصى برفض عروض الشيخ، وبدوام سياسة الانفتاح على مسيحيي شرق الاناضول. ويظهر- كما يرى (ف. ا. خالفين) انها كانت سياسة وزارة الخارجية الروسية المتبعة وقتذاك[16].

كان الشيخ شديد الاهتمام لابثورة كردية في تركيا وحدها بل في فارس معاً. كما كان معنياً بالافادة من ظلامات الشعوب الاخرى كالارمن والآشوريين والعرب. فعمد الى الاتصال بمار شمعون الرئيس الروحي للآشوريين، وبشريف مكة وخديوي مصر[17]. وفي ايالة بغداد اعلن العرب بلسان الشيخ (فرحان باشا) تأييدهم له ووعد بأن القوات العشائرية العربية ستنضم الى القوات الكردية حال استيلائها على مدينة (الموصل). وتمت الخطة على الوجه التالي: تقوم قوة بقيادة الشيخ عبدالقادر الأبن الاصغر للشيخ مدعمة بقوات من عشيرتي (المنگور) و (مامش) في فارس بمهاجمة (العمادية) ثم الزحف على الموصل.

11- ارشيف السياسة الخارجية الروسية [سفارة في القسطنطينية].

12- كذا.

13- الارشيف الحربي. المصدر السالف.

14- كذا.

15- ارشيف السياسة الخارجية. المصدر السالف.

16- خالفين: النضال من اجل كردستان ص 118.

17- كذا ص 16.

وتقوم قوات بقيادة الشيخ نفسه بالاستيلاء على عاصمة الايالة (وان).

كان الشيخ بعيد النظر، تراه يولي اهتماماً كبيراً بالحصول على تأييد الدول الاوروبية وقد بذل جهوداً عظيمة لنيل عطفها على حركته.

ولفتت تحركات الشيخ واستعداداته نظر الحكومة لاسيما بعد الاضطرابات التي وقعت في ولاية وان، كما جلبت انتباه الدبلوماسية البريطانية. وقام الملازم (كرفدر؟) والقس (فرزر؟)(*)

في العام 1879 بجولة لدراسة الوضع وجمع المعلومات عن الاستعداد للثورة في الاقاليم الشمالية الشرقية، وكانت نقطة انطلاقهما (سامسون)، ومنها الى (أماسيا وسيواس وارزنجان وموش وبدليس ووان) وعادا عن طريق (ملازكرت وارضروم).

في شهر آب 1879 بدأت في الشمال الشرقي من بحيرة (وان) انتفاضة عفوية ضد الاتراك في قبيلة (الحيدرانلي) الكبيرة. وذكر نائب القنصل البريطاني في ارضروم، الرائد (تروتر) او الدوافع لها هي الحاجة؛ الفقر والخبز والمأوى[18]. واسرع الشيخ عبيدالله لإعلان مساندته للعشيرة. إلا انها مالبثت أن تلاشت عند حلول فصل الشتاء. على ان السلطة كانت تدرك بأن الخطر الحقيقي الاعظم هو في ما يخططه الشيخ للزمن البعيد. ولذلك باشر الباب العالي في اتخاذ الاهبة. وفي خريف العام 1879 صدر فرمان بتعيين (سامح باشا) خلفاً (لدرويش باشا) في قيادة جيش الاناضول ومنح صلاحيات واسعة. وعسكر في (وان) ثم انضمت اليه قوات اخرى من ارضروم تتألف من وحدات مشاة معززة ببطاريتي مدفعية. واتم (سامح باشا) حشد أفواجه حول حكاري على مشارف المدن التي تجاور المنطقة وهي ارضروم وارزنجان والموصل ودياربكر ووان، مغلقاً الممرات المؤدية من حكاري الى المناطق الكردية الأخرى. وابلغ القنصل البريطاني (اشوريان) زميله كلايتن بحقيقة الأمر بقوله:

«لم يعد بمقدور الكرد الموالين الانضمام الى الشيخ بسبب قيام الجيش باحتلال الممرات الجبلية»[19] ومن جهة اخرى اوفدت الحكومة - وسامح باشا مازال وجيشه معسكراً في وان - (بحري بك) ياور السلطان عبدالحميد الثاني[20] للقاء الشيخ واجراء محادثة معه. بغية صرفه عما انتواه ممنياً اياه بالوعود والهدايا، ولاقناعه باية صورة كانت. وكتب (زيليني) عن هذا احد تقاريره:

«ويؤكدون مع هذا ان الحكومة خصصت للشيخ راتباً تقاعدياً، كما ان (بحري بك) قدّم للشيخ

(*) قلنا لانعتقد ان الاسمين الانكليزيين نقلا بشكل يقربهما لفظاً للنطق الصحيح ولانملك مصدراً يعيننا على اثباتهما كما هما بالاصل اذ لم يعن المترجم بوضعها لا بالحرف اللاتيني ولا بالحرف الكريليكي وربما كانا (كارفر ،فريزر) على التوالي.

18- المراسلات المتعلقة باحوال السكان في آسيا الصغرى وسورية [تركيا رقم(4) (1880) ص (18)
The Conditions in Asia Minor and Syria Correspondance Respectin دائرة الوثائق البريطانية].

19- المصدر عينه.

20- هو احد ابناء الامير بدرخان بك الشهير.

سيفا هدية من السلطان وقلده وساماً »[21].

على ان بعثة (بحري بك) لم يحالفها النجاح. واصدر الشيخ امراً للموالين والاتباع في مناطقه بالامتناع عن دفع الضرائب والاتاوات. مبرراً ذلك بقوله انها ثقيلة ومجحفة[22].

في اوائل شهر آب العام 1879 امتنع كرد عشيرة (چراغلي) عن دفع الضرائب للقائمقام فوجّه اليهم قوة قوامها 400 جندي من (گەوەر)، واشتبك الفريقان في معركة دارت فيها الدائرة على الاكراد ولحقت بهم خسائر جسيمة، وعادت القوات التركية الى قاعدتها باربعين اسيراً.

وسارع الشيخ لنجدة الچراغلي. وارسل مبعوثيه الى الزعماء الكرد المجاورين، يناشدهم المشاركة في انتفاضة اخوانهم مصرحاً بان المناطق الكردية لم تعد بعد تحت حكم الترك، وحثّهم على اعداد العدة للهجوم على العمادية.

وبعث والي الموصل قوة مؤلفة من مائتي جندي الى منطقة (بالەک) لتحصيل الضرائب فجرد الشيخ قوة صغيرة بقيادة ابنه عبدالقادر لمواجهتها. الا انها هزمت في اشتباك ليلي. وفي الوقت عينه بعث قائمقام (باشقله) برسول الى الشيخ يطالبه بالضرائب المستحقة مع اعلان طاعته، فاعتقله الشيخ مشترطاً لتخليته اطلاق سراح الاربعين اسيراً الذين وقعوا بايدي الاتراك اثناء اشتباكهم مع القوة. ثم بعث والي (وان) اليه برسول طالباً منه ايضاحاً لموقفه من الاحداث ومما ينتويه. فرد بكتاب ذكر له فيه ان الجيش التركي أقدم على نهب وحرق عدة قرى في منطقة العمادية وفتك بالاهلين وانتهك الاعراض ومما جاء فيها:

«اني مارسلت ابني إلا للوساطة واحلال المصالحة بين الاطراف المتنازعة حال وصوله »[23].

وجدير بالذكر ان الجنود الاتراك كانوا في بعض الاحيان يكرهون القتال ضد الكرد الموالين للشيخ بسبب الاحترام والرهبة التي كان يشيعهما في نفوس سائر المسلمين. فهو على حد تعبير(كلايتن) في مقام القداسة عند المسلمين، وذو نفوذ عظيم[24].

ولقي الكرد تعاوناً وثيقاً من الآشوريين. فقد كتب النقيب كلايتن للرائد (تروتر) في 6 من ايلول 1879 معرباً عن شدة قلقة لهذا:

« أنشأ مارشمعون وعدد كبير من المسيحيين الوجهاء وذوي النفوذ في المدينة (وان) صلات مع الثائرين الكرد »[25].

واظهر الآشوريون في اماكن عدة عداء للمبشرين الامريكان. وحالوا بينهم وبين ارتيادهم مناطق

21- الارشيف الحربي - التاريخي للحكومة المركزية.

22- ارشيف السياسة الخارجية الروسية (البعثة الى فارس: 1877 - 1896).

23- المراسلات (المرجع السالف) تركيا رقم 4 (1880) ص79.

24- كذا ص 62.

25- كذا.

اورميه والموصل لغرض استكشاف الممرات والطرق. كذلك كان موقفهم من الانكليز الذين تربطهم صلات بالمبشرين. وايد مارشمعون مايحصل من تمخضات في حكاري[26] وانحاز الى جانب الشيخ بدليل المعاملة الحسنة التي كان المسيحيون يلقونها هناك. وتؤكد التقارير الانكليزية بأن الشيخ لم يكن مؤيداً لما تعرض له الآشوريون من اعمال النهب والسلب من بعض العناصر الكردية. ولأكثر من مرة تدخل ليعيد اليهم ماسلب منهم من ماشية. وقد اشاع هذا الموقف الآشوري الايجابي من حركة الشيخ كثيراً من القلق في المثلين الدبلوماسيين الانكليز سواء في تركيا او فارس. وتساءل (ابوت) بالأخير: «ايمكن ان ينحاز الاشوريون الجبليون في نهاية المطاف الى الثوار الكرد ما أن تبدء تباشير النجاح في الحركة الهادفة الى تحقيق استقلال الكرد وانفصالهم عن تركيا؟» واذا كان جوابه النفي فهو في الوقت عينه اقرار بالدور الهام الذي يعزوه الانكليز للآشوريين في الشرق الأدنى، كتب (آبوت):

"ليس هناك ظلّ من الشك في أن يغدو الآشوريون أمة سعيدة مزدهرة في ظل الحماية البريطانية، في الوقت الذي يمكن ان يكونوا عنصراً مفيداً للباب العالي في انهاء الاضطرابات في كردستان[27].

ورجّع صدى ثورة حكاري كردُ فارس فقد وجه الشيخ اليهم نداء الدعوة الى المشاركة في حركته، فكانت قبيلة الشكاك اول الملتحقين به اذ عبرت الحدود مجموعة كبيرة منها بسلاحها وانضمت الى قواته[28]. واتسع نطاق الثورة في كل من تركيا وفارس. ولم يكن بعجيب مبلغ الاهتمام الكبير الذي اولاه الدبلوماسيون الانكليز لها ورغبتهم في وأدها. يبدو ذلك من رسالة الرائد (تروتر) القنصل العام في ارضروم الى سفير بلاده في استنبول وفيها نسب الى (سامح باشا) التقصير بقوله أنه لايدرك أبعاد الحركة وعواقبها الوخيمة[29]. ووصفها بالخطورة. حتى انه بقي في ارضروم يبذل جهوداً عظيمة في سبيل القضاء عليها. ولم يتحرج من تزويد (سامح باشا) بكل المعلومات التي يحصل عليها عملاء الانكليز حول تحركات الثوار واتصالاتهم.

وحاول (سامح باشا) لقاء الشيخ، فرفض وبرر قتاله القوات التركية التي خرجت من الموصل بأنه انما يفعل ذلك دفاعاً عن السكان الآمنين الذين يتعرضون لاعتداءات الجنود. وكتب (كلايتن) لمرجعه بعد فشل حركة الشيخ معبراً عن ارتياحه بقوله ينقل اليه بشرى سارة... فقد زال الخطر كما أرى، من انتفاضة كردية مسلحة في الوقت الحاضر على الاقل[30].

ولجأ الشيخ عبيدالله بعد هذا الفشل الموضعي الى تاكتيك المساومة. بقي خلال هذا الاشتباك بعيداً. ولم يغامر بدخوله في معركة مع الجيش التركي الجيد التسليح وهو لم ينجح في توحيد القوى الكردية وضمان ولاء الزعماء. وبحلول الشتاء كان الوضع هادئاً ولم يبدر من الشيخ نشاط الآ انه

26- ارشيف السياسة الخارجية الروسية. بعثة الى فارس {1877 - 1896}.

27- المراسلات... رقم 4 (1880) ص 102.

29- ارشيف السياسة. المرجع السالف.

30- كذا ص 78.

توصل الى ان كرد حكاري لايستطيعون وحدهم تحقيق نصر على الترك ولذلك راح يفاوض الزعماء الكرد لتأليف اتحاد كردي قبلي. ووقف الباب العالي عاجزاً ازاء هذه المجهودات، وربما لم يشأ التدخل خشية انفجار عدائي عام، ثم رأى بالتالي ان يستخدم هذا الحلف ضدّ الارمن، لما من هذا الحلف من عداء لهم.

من ناحية أخرى، اتهمت جريدة "عثمانلي" الصادرة في القسطنطينية الأرمن بأنهم يبيتون خطة اجرامية بأرمنة الاكراد عن طريق تنصيرهم «وواقع الأمر - وهو ما دعا الجريدة الى هذا الزعم السخيف - أن الأرمن رحبوا بابناء الكرد في مدارسهم، واستتلت الجريدة بكثير من الديماغوغية تقول:

«ان الارمن ينتهجون سبلاً اكثر خطورة واجراماً من البلغار، فهؤلاء اعلنوا الثورة على تركيا وذبحوا الاكراد، في حين يحاول الأرمن جادّين أرمنة الاكراد، عن طريق تغذيتهم بثقافتهم... »[31].

وشرعت صحيفتا «وقت» و «حقيقت» تنشران المقالات في الدفاع عن الاكراد المساكين الذين سيفتك بهم الأرمن فتكاً ذريعاً.

وحاول الدبلوماسيون الانكليز باستماتة الحيلولة دون إقامة الحلف الكردي واثاروا مخاوف الارمن منه بدعاية واسعة ضدّه بينهم. وفي هذا يكتب (تروتر) الى كوشين السفير البريطاني.

«أكاد لااصدق ان الحكومة التركية ترتكب مثل هذه الحماقة... انه سيكون موجهاً ضدّ الحكومة نفسها »[32].

وبلغ من اهتمام الدوائر السياسية الانكليزية بهذا الحلف وتوجسها منه، انه طرح على بساط المناقشة في مجلس العموم البريطاني[33].

ان السياسة التي كانت تسير عليها الدولة العثمانية عادةً هي اذكاء نار النزاع بين القبائل الكردية من جهة، وبين تلك القبائل والأرمن من جهة اخرى، وبهذه الوسيلة كانت تقضي عن الثورات والانتفاضات.

وفضح الأرمن نوايا الحكومة العثمانية من تشجيع تكوين الحلف الكردي، في حين انبرت الجرائد التركية للتباكي على الاكراد والدفاع عنهم. وكتب احد الارمن في هذا:

«منذ فترة بعيدة، كانت سياسة الترك القضاء التام على الاكراد كقومية متميزة وبوصفهم عنصراً ضاراً، هؤلاء الذين لايرون فيهم اكثر من قطاع صرق ولصوص يجب ان يتم التخلص منهم والى الابد

31- اقتبسته جريدة "مشاك" الارمنية عدد 116 (1880).

32- مراسلات حول الغزو الكردي لفارس؛ تركيا رقم 5 (1881) ص 116[المرجع السالف].

33- هانسار: مناقشات مجلس العموم السلسلة الثالثة، تبدأ من اعتلاء وليم الرابع... لندن 1880ص 1405 المجلد260.لندن- Hansar's Parliamentary Debate Third Series Commencing With the AcCes-
.of William IV sion

في الاقاليم الشرقية ولاسيما التركية منها »[34]

هناك الكثير من المصادر التي تتحدث عن العلاقات الطيبة بين الارمن والاكراد. ولايتسع البحث للتفصيل في هذا الباب. على انه نرى من المفيد عرض بعض الامثلة عن رباط الصداقة الذي يشد بين الشعبين. وفي مقدمتها الرأي العام التقدمي الارمني حول المسألة الكردية.

من الاقتراحات التقدمية الارمنية لضمان تطوير العلاقات الصحية، إقامة اتحاد اخوي بين الشعبين في وجه محاولات الباب العالي لاحلال الفرقة والوقوف بحزم ضدّ كل المحاولات الرامية صهر القومية الكردية. واثيرت ايضاً مسألة ثورة مشتركة يقوم بها الشعبان معاً بتهيئة واستعداد دقيق. واقترح الكاتب الارمني (ثوراتونكيان) في احدى رسائله الى الباحث الارمني المعروف في الفولكلور الكردي المدعو (سرفاندزتيان) التفرغ لدراسة الاكراد لفائدة الأرمن. فالأمر المهم بالنسبة اليهم هو الإطلاع والبحث حول السبل السليمة لاقامة علاقات وثيقة مع الكرد.

عندما ثارت الضجّة في الصحف التركية والاوروبية حول قيام الحلف الكردي، انبرت الصحيفة الارمنية [ارڤبليان مامول] تندد في مقال رئيس، بموقف «بعض الدبلوماسيين الأرمن» مشيرة الى المواقف الودية الأرمنية نحو الشعوب المجاورة. وداعية الى توثيق عرى الصداقة مع الاكراد.

قدّر المفكرون الأرمن التقدميون تقديراً صائباً دور روسيا في تحرير الأرمن. وكانوا يأملون عين ذلك بخصوص الاكراد. كان هناك الفريق التقدمي الأرمني المتفهم حقيقة النضال الكردي وهم على ادراك تام عمق العلاقة الاقتصادية والاجتماعية التي تربط الامتين تاريخياً فضلاً عن معاناتهما من الحكم العثماني الجائر سوية. وهم على طرفي نقيض من المؤرخين الأرمن البرجوازيين الذين سعوا دوماً في كتاباتهم الى تصوير الكرد شعباً طبع على استعباد الأرمن ونهبهم. ان المفكرين الديمقراطيين الأرمن لم تكن لديهم اية شبهة في ان الكرد امة مستعبدة ضحية ظلم تاريخي كالامة الارمنية، وقد اظهرت كتاباتهم عطفاً خاصاً على اوضاع الفلاح الكردي المأساوية ضحية الاستبداد القومي الاجتماعي. وفضحوا فساد الموظفين الاتراك واعتداءاتهم على تلك الطبقة الكادحة من الشعب الكردي.

في العام 1860 قام لفيف من الشخصيات الأرمنية برأسة الكاتبين الاجتماعيين المشهورين (گركين سفارجيان) و (م. مانوكيان) بتأليف جمعية باسم (جمعية الثقافة الشرقية). من اهدافها نشر التعليم في كردستان. وقد ساهمت كثيراً في خلق جو ثقة بين الشعبين واقامة علاقات صداقة بينهما. وتواصل النشاط الارمني التقدمي في هذا الباب خلال العقدين التاليين من القرن. وقد اورد المؤرخ السوفييتي (نرسيسيان) في كتابه [النضال التحرري للشعب الارمني ضدّ الاستبداد التركي في[1850-1870] هذا الحدث الهام:

«أستناداً الى اللغوي الارمني المعروف (ستيكانيس ملخاصيان) انه رحل في بداية العام 1880 فريق من زعماء الحركة الوطنية التحررية الارمنية من القفقاس الى تركيا حيث أجروا محادثات سرية

34- مشاك (جريدة) العدد 167 للسنة 1880.

مع الزعيم الكردي (سمكو بك) ووعد هذا الاخير بان يعلن ثورة الى جانب الارمن متزامنة ضدّ الدولة العثمانية».

وفي العام 1880 جرى نقاش حاد بين جريدتي (ميگوهايستان) و (مشاك) حول المسألة الكردية. وكانت الجريدة الاولى تدافع عن وجهة النظر القائلة بضرورة التحالف الكردي - الارمني وتنتقد تناقض الجريدة الثانية في تصديّها للمسألة الكردية[35].

وتجدر الاشارة على الاخص بالمقال الذي نشرته (ميگوهايستان) في شهر تشرين الثاني 1880 بعنوان (الارمن والكرد) استطرق فيه كاتبه الى العلاقات التاريخية التي ربطت الامتين بوشائج الصداقة ووحدة المصير، وانحى باللائمة على البرجوازية الارمنية التي كانت تعد الكرد اعداء للارمن لااكثر. وقال فيها ليس من الحكمة والعقل في شيء أن يكون الاختلاف في الدين سبباً في التفرقة والعداء، وحاول شرح الدواعي والأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي تدفع الاكراد الى عمليات السلب والنهب وخرق القانون. معبراً عن عطفه الشديد على حال الفلاح الكردي البسيط ومنددا بالاقطاعيين الكرد والشيوخ واصحاب الالقاب، باعتبارهم لايمثلون الشعب الكردي وانهم مامثلوه قط يوماً[36] ودعا الارمن الى توثيق علاقات الصداقة المتينة، منوها بفوائدها العظيمة على الامتين مستشهداً بما حققه الارمن في هذا المجال في منطقة (يرزنگ).

وكتبت جريدة (مشاك) حول تمهيدات اوليّة لاقامة حلف كردي - ارمني - آشوري:

«أخيراً ظهرت بوادر تشير الى تقارب بين الشعوب القاطنة في ارمينيا التركية... واخيرا ادرك الارمن والآشوريون والكرد المصالح المشتركة التي تجمعهم، وانهم يحملون بالتساوي تلك الاعباء التي اثقلتهم بها الحكم التركي».[37]

لكن هذا الحلف المنشود، بقي حلماً، وكان لتركيا دور كبير في أحباطه، واكد نجاحها هذا احلال التفرقة بين الأمتين، فهو خطر على كيان الامبراطورية لاشك فيه، كما ان انكلترا لم تكن تحبذ مثل هذا الوفاق وان بدت في موقف الصديق و"المدافع" عن الارمن إذ كانت الدپلوماسية الانكليزية في حينه تعمل على تنفيذ تلك الاصلاحات الطفيفة التافهة.

وبدت الشعوب الاخرى التي تسكن الاقاليم الشرقية من الامبراطورية العثمانية وكأنها على أهبة لتحدي سلطتها كالاشوريين في منطقة (جوله ميرگ)، ومن ذلك ان مارشمعون اصدر امره الجازم بعدم القيام باي عمل من اعمال العنف ضدّ الكرد، ونقل عنه انه كان يشدد في الاشارة الى اهمية ابقاء علاقات ودية مع القبائل الكردية المجاورة وقال «ان للمواطنين كافة حقوقاً ولشرف كل مواطن في بلاده حرمة وهي حقوق مقدسة بصرف النظر عن الدين الذي يدين به والقومية التي

35- ميگوهايستان 1880 الاعداد 57 - 60.

36- ميكوهايستان العدد 88 (1880).

37- مشاك العدد 162 (1880).

ينتمي اليها »[38].

وبعث المراسل السياسي للجريدة الارمنية من ارضروم بخلاصة لخطاب القاه مارشمعون أمام قادة الثورة لافتاً انتباههم الى ان الحرب هي في سبيل انقاذ الشعب وان النضال يجب ان يكون موجهاً ضد الجنود والپاشوات الذين يمثلون السلطة[39].

وفي نبأ نشرته جريدة (مشاك) في 14 من ايلول. أن الفصائل الارمنية والآشورية المسلحة الثائرة حققت اتحاداً.

في عين الوقت تصاعدت حركة الثوار الكرد واشتد ساعدها.

لم يكن الشيخ عبيدالله يرى املاً في نصر الا بوحدة كردية. ولاجدوى من اي عمل طالما بقي الزعماء الكرد متفرقي الكلمة. ولهذا نشر نداءه بين الزعماء الكرد بدعوة لقتال الاتراك والفرس واشار عن طريق موفديه الخصوصيين الى مايعانيه الشعب الكردي، والحياة القاسية البائسة التي يحياها في ظلّ الحكم العثماني والفارسي. وان الاتحاد هو الضامن للنجاح، واطلعهم على اهدافه وخططه وانتشر موفدوه في مناطق واسعة وبلغوا روسيا[40] وطلبوا من الزعماء المحليين هناك اعلان انضمامهم الى الحركة ولم يفت ذلك على السلطات الروسية، ففي مذكرة لمسؤول ادارة قضاء (اچميازين) لمرجعه جاء هذا التحذير:

«ان الحركة الكردية في تركيا ذات طابع سياسي وديني أيضاً. واني ارجو ان الفت نظر سعادتكم الى مراقبة الاكراد القاطنين في قضائكم بصورة دقيقة للحيلولة دونهم ودون المشاركة في الثورة المرتقبة عن طريق ارسال قوى بشرية او عن طريق المساعدات المالية او غيرها »[41].

الا ان الشيخ عبيد ومشروعه كان يحظى بالتأييد في القفقاس ايضاً.

واظهر مافي الشيخ هو شخصيته الجذابة واسلوب تعامله وادارته. فقد كان هو وابنه شديدي الاهتمام بمشاكل الناس لايتحرجان من استقبال اي زائر يقصدهما في أي مسألة بغض النظر عن مركزه الاجتماعي. وذكر للقنصل البريطاني العام (ابوت) في اورمية ان الشيخ كان يستقبل المئات من القصّاد يومياً. وقال في تقريره له مؤرخ في 8 من تموز 1880 إنه يختلف اختلافاً كلياً عن كلّ الشخصيات التي قابلها سواء في تركيا او فارس[42].

وهناك شهود عيان ذكروا أن الشيخ كان يتصرف مثل حاكم حقيقي. وانه فرض في مقره اصولا للسلوك الاجتماعي. وكان ينزل العقاب الرادع بالمجرمين. وحرم تعاطي المشروبات الكحولية.

38- المرجع السالف.

39- ميگوهايستان العدد 72 (1880) 40 - جريدة وقت العدد في 1880.

40- جريدة وقت العدد في 1880.

41- ارشيف الارمن الرسمي.

42- المراسلات المرجع السالف {تركيا رقم 5 في 1881.ص9}.

ولبساطة عيشه وعدله تمتع باحترام عظيم من محكوميه، ولم يسمع عنه أخذ رشوة كما لم يؤثر ذلك عن اي من عمّاله ومخدوميه وكان الموت بانتظار كل من يخرق حدود القانون او يعتدي على الآخرين ولذلك ساد السلام والأمن في المناطق التي امتد اليها سلطانه، وكان متنوراً مشوقاً الى العلم والمعرفة يهتم بنقل ابناء جلدته الى العصر الحديث.

ولقيت اساليبه في الحكم استحساناً عظيماً عند الجماهير ولم يكن لهم عهد بمثلها من قبل ولم يعرفوا للعدالة والأمن والحماية من الظلم شكلاً لاسيما عند الطبقات المعدمة[43] فاطلقوا عليه اسم الأب. وكانوا ينهضون وقوفاً عندما يلفظ اسمه تعبيراً عن الحب والاحترام وعرفوا فيه مدافعاً عن حقوقهم ازاء الحكام الترك والفرس. كتب معاصر ارمني يصفه: «انه انسان رائع، شديد الحيوية جم النشاط، تواق للعمل، فيه لطف وذكاء، شديد الحدب والرعاية الأبوية للارامل والايتام، يتوافد الكرد من كل حدب وصوب الى شمدينان للتبرك برؤيته وعرض شكاواهم ومتاعبهم ولطلب النصيحة. وسماع مواعظه الدينية والنبوية وتقبّل وصاياه. ولم يكن احترامهم واجلالهم الشخصه كزعيم عادل انساني ليعرف حداً»[44].

كان في المقام الديني عند المسلمين السنية يلي مقام السلطان وشريف مكة، وكان اتباعه على استعداد لتلبية اي اشارة منه، كأنه رسول جديد من الله حل بهم[45]. وامتدت هيبته واحترامه الى المسيحيين ضمن منطقته والى الجوار بسبب سلوكه الودي. نحوهم، وقد كان يؤكد دوماً - استناداً الى (ولسن) بأن المسيحيين والمسلمين هم سواسية امام القانون وان حقوقهم واحدة.[46] واثر عنه اتصالات مع الرؤساء الأرمن الروحانيين المحليين بغية اجتذاب الارمن الى صفه[47] ومن ذلك ما أثر عن صلاته الوثيقة بالاسقف [اوهانس فرتابيت] الرئيس الروحاني في المنطقة بمقره في (باشقله) اذ كان دائم الصلة به بوساطة مبعوثيه، حيث يتم شرح اهداف الشيخ للاسقف المذكور وتبادل الرأي حول الاوضاع الراهنة والتدابير الواجبة. ويذكر هذا الاسقف انه اعتذر عن لقاء مباشر مع الشيخ رغم الدعوات العديدة[48].

واقترح الشيخ على مارشمعون حلفاً كردياً آشورياً. لكن الزعيم الديني الآشوري كان يتهرب من الموافقة كل مرة. ولايفسر هذا إلا بوجود اليد الانكليزية التي كانت تعمل على الحيلولة دون إتحاد كهذا. والمساعي التي بذلها الدبلوماسيون الانكليز في هذا تؤيدها المراسلات التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم وكثرة زياراتهم لمقر مارشمعون، ولذلك لم يشارك الزعيم الآشوري في ثورة الشيخ. معللا

43- عزيز ياملكي: كردستان وكورد احتلاللري. طهران 1946. ص 52.

44- مورج (جريدة روسية) العدد 8 الص 11-12 السنة 1906.

45- ولسن: الحياة والعادات الفارسية (المرجع السالف ص110).

46- المصدر عنه.

47- المراسلات (المرجع السالف (تركيا رقم 5- 1881) ص6.

48- المرجع نفسه.

موقفه هذا بان زعماء الاكراد المحليين لن يخلصوا للسكان المسيحيين كما تخلص لهم دول الغرب.

كتب نائب القنصل الروسي (كامساركان) من (وان) بتاريخ 29 نيسان 1880 حول هذا:

«ان أمل مارشمعون في مساعدة الدولة المسيحية العظمى (يقصد روسيا) هو الذي جعله يمتنع من التحالف مع الشيخ عبيدالله كما يبدو»[49].

وفي لقاء لمارشمعون مع هذا القنصل في شهر ايار من العام نفسه قال بكل صراحة انه رغم كل محاولات الشيخ لجره الى صفه، فقد أبى، عاقداً أمله على مساعدة الدول الاوروبية العظمى عاجلاً ام آجلاً في التخفيف عن آلام الرعايا المسيحيين في تركيا [50].

وجرى لقاء آخر للبطريرك الآشوري في (وان) بصورة سرية مع كلايتن وتروتر الذي كان موجوداً هناك وقتذاك ثم قفل راجعاً الى مقره.

واهتم الانكليز كثيراً بتشديد الرقابة على الحدود التركية الفارسية لمنع تسرب الكرد عبرها الى فارس بهدف احباط الحركة الكردية[51] وجرت للسفيرين البريطانيين في طهران والقسطنطينية محادثات كل من جانبه مع الشاه والسلطات ترمي الى تنسيق في عمليات عسكرية محتملة ضدّ الكرد على الحدود. وواصل (تومسن) السفير البريطاني في طهران اعلام حكومته بانتظام عن مساعيه في هذا الشأن وتم عقد اتفاق بهذا الخصوص بين الدولتين.

في تموز من العام (1880)شرع القنصل (كلايتن) في رحلة طويلة هدفها جمع المعلومات عن استعدادات الشيخ وعن الاوضاع في حكاري. وعبر في رسالة عاجلة بعث بها لتروتر من (باشقله) بأنه من خلال رحلته التالية الى (گڤوَر) وما جاورها حيث يقطن الآشوريون- سيكون بوسعه ان يجمع معلومات مفصلة وانه كذلك سيلاقي الشيخ[52].

وجلس كلايتن طويلاً في (قوچانس) مع مارشمعون البطريرك الآشوري ثم توجه للقاء الشيخ في شمدينان وجرى له هناك استقبال حافل، وقف المسلحون الكرد بالمئات صفوفاً له على طول الطريق. وخرج لاستقباله (سعيد آغا محمد صديق) وابن الشيخ (عبدالقادر). كان اللقاء الاول قصيراً رسمي الطابع وكان الشيخ يتحدث بالكردية. وفي اللقاء التالي بسط كلايتن موقف حكومته من تركيا. ونوه بشكل خاص بأن حكومته ترى من واجباتها الحيلولة دون اي شكل من اشكال الفوضى والاضطرابات التي تهدد وحدة الامبراطورية العثمانية الصديقة. وان زيارته هذه كانت بايعاز من سفيره للوقوف شخصياً وعن كثب على حقيقة الوضع.

نرى من الواجب ان نسترعي الانتباه الى اقوال كلايتن هذه.

49- ارشيف السياسة الخارجية الروسية: سفارة في القسطنطينية 1880.

50- مجلة (بابير) الارشيف الارمني1963. العدد الاول ص 88.

51- المراسلات (المرجع السالف) تركيا رقم. 1881. ص1.

52- كذا.

اجاب الشيخ بعد ان اصغى باهتمام: انه يشكر الحكومة الانكليزية. ولاسيما لموقفها الودي من تركيا. ونفي كل الشائعات حول وجود اضطرابات او فوضى في حكاري واكد استتاب الامن وهدوء الوضع في المنطقة[53]. ويذكر التاجر الارمني (بغدساريان) الذي كان من جملة الحاضرين وقد دون انطباعاته عنها. قال:

«خيم على الحاضرين جو من الانذهال لمنطق الشيخ القوي وحججه الدامغة، وحاول كلايتن عبثاً جر الشيخ الى مايمكن ان يدل على نواياه الحقيقة، بملاحظة انه يفهم جيداً تذمر الاكراد من الحكم التركي، وهو بالتأكيد نتيجة سوء الادارة. واعلن الشيخ في رده بان جميع الاكراد متفقون في هذا ومؤمنون به ابتداء من السليمانيه ومروراً بالعماديه واوره مار، وبوتان وساسون وسرت. وبهذا ختم الحديث بين الاثنين[54]»

واتفق ان كلايتن كان قد وصل اثناء قيام الشيخ بتهيئة اجتماع لزعماء الكرد الذين قدموا من السليمانيه والعماديه واورمار وبوتان وجبال ساسون وسرت وموش ووان الى جانب رؤساء آخرين قدموا من فارس. وقد اجتمع كلايتن ببعضهم ثم قفل راجعاً في اليوم التالي[55].

ورأت الحكومة التركية أن تستخدم ذلك الاجتماع لاغراضها، وانتهز الفرصة المشير (سامح باشا) والقائمقام (بحري بك) ياور السلطان للاجتماع بعدد من الزعماء الوافدين وسعيا لتوجيه الحركة المنتواة الى الأرمن.

بدأت اجتماعات زعماء الاكراد في شمدينان بنهاية شهر تموز 1880 . وهو اول مؤتمر في تاريخ الكرد خلال القرن التاسع عشر. واعلن الشيخ ان الهدف الرئيس من هذا الاجتماع هو اقامة حلف وحدوي بين القبائل الكردية والاستعداد لثورة. وساد الاجتماع جو عاصف اذ برزت خلافات حادة في وجهات النظر. في البداية كان هناك ميل لعديد من الزعماء الى توجيه القبائل ضد الارمن والمسيحيين عامة، بتأثير نص المادة 61 من معاهدة برلين التي اقرت بنوع من الاصلاحات، فُسرت بأنها حكم ذاتي للارمن. وشجعت السلطة التركية هذا المفهوم وبث دعاية بين الكرد بأن ذلك موجه ضدّهم[56].

53- مورج العدد 3 الص33 - 34 في 1905.

54- نشرت صحف كثيرة في حينه تخريجات تجانب الصواب عن الاسباب التي دعت كلايتن الى القيام برحلته في حكاري ولقائه بالشيخ. فصورتها بأنها تتفق تماماً وموعد الثورة التي بدأت في حكاري، فهي والحالة هذه ليست من قبيل الصدف. بل ساد الاعتقاد عند المسلمين هناك بان جولة كلايتن ذات علاقة مباشرة في تهيئة الثورة. وكان القنصل الروسي (كاماركان) يرى بحق وصواب ان الانكليز لم تكن لهم مصلحة في قيام الحركة الكردية بله تأييدها. وقال ان هذه الاقوال التي تتداولها الصحف غير صائبة... ومجرد رجم بالغيب. اك. بـ.كاماركان: غزوة الشيخ عبيدالله فارس في 1880. في: مجموعة دراسات جغرافية وطبوغرافية واحصائية عن آسيا.1884. الطبعة 11. ص45).

55- مورج: العدد 3 ص31: 1906.

56- أ. كالشوف: ملاحظات عن الاكراد ص18.

الا ان الشيخ وقف موقف المعارض، وبادر الى شرح عواقبه الوخيمة على مستقبل القضية الكردية. وفي معرض تفنيده هذا الرأي، قال: ان كان الباب العالي يؤيد الكرد تمام التأييد في الوقت الحالي، فهو يهدف من ذلك توجيههم ضد المسيحيين في الاناضول. وسيفقد الاكراد عطف السلطة التركية ما ان يتموا سحق الارمن[57].

وفوق ذلك فإن كل عمل معاد للارمن سيؤلب الدول الاوروپية على الاكراد. ودعا الى قطع كل صلة بتركيا واعلان استقلال كردستان. ونالت اقواله تأييداً من معظم المشاركين في ذلك الاجتماع.

وفي اثناء اعمال المؤتمر قرّر الشيخ اجراء تغيير في خطط الثورة المقبلة، واضعاً في حسابه الخلافات بين الزعماء الكرد وعدم رغبة كثرة منهم في القيام بعمل معاد لتركيا. وفي[58]. الاجتماع الأخير الحاسم في قرية (نهري) اعلن الشيخ مبرراته في الادعاء بحقه في زعامة الكرد، وقال ان سلاطين آل عثمان الذين اغتصبوا الخلافة على المسلمين، جعلوا من انفسهم سادة الاكراد، بدعوى سلطتهم الدينية وان الوقت قد حان لخلع هذا النير ومقاومة مستعبدي هذه الامة، بانشاء كردستان مستقلة. وهتف قائلاً «كفانا صبراً على الخضوع للاتراك المرتدين. يجب علينا ان نتحرر». ولم ينس الشيخ الحكومة الفارسية وقال «ان كلتا الحكومتين تقفان حائلاً دون تقدمنا وتحسين اوضاعنا»[59].

ثم عرض خطته الجديدة للثورة. وعين بلاد فارس منطقة للعمليات وشدد على مناسبة الظرف لها وانتهاز الفرصة قبل فوات الاوان- مشيراً الى وضع فارس السياسي والاقتصادي المنهار، والى كون الفرس اعداء الترك وهم يوجهون كل قواهم الى هذا المنحى، وحتى لو لم تكن انظار الفرس متطلعة الى التركمان فعلينا أن لانخشاهم. فالفرس يكادون لايستطيعون تجريد جيش قوامه مائة الف واذا تمكنوا فنصفه تقريباً من اخواننا الكرد[60]. ان الكرد هناك يعانون من الحكومة ولايمكن الصبر على المعاناة. اذن فتحرير الكرد من النير الفارسي سيكون المرحلة الأولى. وسيكون تحررهم من النير التركي المرحلة الثانية من حركتنا. وقاعدتنا الاقتصادية الرئيسة هي الاقاليم الخصبة من كردستان في فارس وهو الجانب الاضعف وعلينا ان نبدء منه[61].

ووافق المجتمعون وبدء الاستعداد للحركة. وفي المقدمة برزت مشكلة السلاح وشراؤه فتمّ أرسال وكلاء موثوقين لهذه المهمة، وارسل (سعيد ابن عبدالرحمن) الى (خوي) وسعيد صادق الى (سنه) وشيخ بهاء الدين الى (اورميه)[62].

57- ب.ي. افريانوب. الكرد في الحروب الروسية مع تركيا وفارس خلال القرن التاسع عشر الص 227 - 228.

58- تألف الاجتماع من خمسة من الشيوخ، وواحد وعشرين خليفة طريقة. واثنين واربعين مريداً وثمانية وستين من الاغوات الكبار. [راجع افريانوف. في حروب روسيا مع تركيا وفارس خلال القرن التاسع عشر: ص 228.

59- المرجع نفسه ص 229 .

60- كذا الص 229- 230

61- كذا ص 229.

62- ك.ب. كاماركان: ظهور الشيخ عبيدالله... ص39.

واهتم الشيخ بموضوع الخلاف المذهبي بين الكرد السنية والفرس الشيعة [63].

ووضع في حسابه ايضاً العلاقات بين تركيا وفارس، وكانت قد اصابها فتور وتدنت الى ابعد حد إثر الحرب الروسية التركية. واهتم ايضاً بوضع القوات الفارسية ومراكز تحشدها وكانت الحكومة الفارسية قد حشدت معظم قواتها في الحدود الشرقية بسبب مابدا نزاعاً بين انكلترا وفرنسا[64]. في حين لم يكن لديها قوات كافية على الحدود الشرقية مع تركيا.

واعتمد الشيخ ايضاً على سمعته الداوية ونفوذه الواسع في اوساط الكرد في فارس بل كان هناك عدد كبير من القبائل يأتمر بامره ويخضع له مباشرة. كان قد حالفه النجاح في احلال السلم والمصالحة بين عشائر مامش والمنكور والپيران المتنازعة[65]. ان درجة نفوذ الشيخ هناك يمكن قياسها بالتحول الذي ابداه (أبوت) القنصل الانكليزي في تبريز في تقريره للوزير المفوض تومسن المؤرخ في 15 من حزيران 1880. « .. تمكن الشيخ ان يضمن الى صفه جزءً كبيراً من قبيلة الشكاك التي عرفت باخلاصها للشاه سابقاً».

واقترح على سفيره أن يحاول حمل الحكومة الفارسية على ارسال الجنرال (كوب خان؟) من تبريز للقاء الموظفين الترك على الحدود فوراً، لبذل الجهود في ازالة التوتر بين الدولتين والتعاون فيما بينهما[66].

كما ان قدّر بان الوضع سيغدو اكثر سوء لو ترك الشيخ حراً في توسيع دائرة نفوذه على طول الحدود الفارسية وقال ان هذا هو رأي السلطات المحلية الفارسية أيضاً[67].

63- أ. كاتسوف المرجع السالف ص19.

64- جريدة غولوس العدد 292 السنة 1880.

65- ارشيف السياسة الخارجية الروسية (بعثه الى فارس: 1877 - 1896).[قلنا] كان حمزه آغا منكور (زعيم عشيرة المنكور) وهو أخلص الملتحقين بالشيخ. كان قد استدعاه (لطف علي ميرزا) حاكم صاويلاغ (مهاباد) المعروف بـ(شاهزاده كشيكچي باني) فاودعه السجن. الا انه وبمساعدة اعوانه تمكن من الهروب والعودة الى عشيرته بعد ان فتك بحراسه. وممن التحق بالشيخ: كاك الله آغا، ومامند آغا، وسوار آغا وهم من رؤساء (آكو) في بشدر. والتحق به من (زازا) عبدالله خان وابراهيم خان. ومن زعماء عشائر دزني وگه ردي انضم اليه الحاج پير داود آغا وعلي خورشيد آغا بايز. وكاكل آغا وجميل آغا. وانضم اليه سائر اغوات وشيوخ البلباس والپيران.

66- المراسلات (المرجع السالف: تركيا رقم 5 (1881) الص 8 - 9.

67- المرجع السالف ص 9.

-2-

هجوم الشيخ في فارس 1880

في اوائل شهر تموز 1880 أصدر والي اورميه أمراً للشيخ عبدالقادر ابن الشيخ عبيدالله بوجوب جباية الضرائب المستحقة على سكان منطقة سترماف وتسليمها للسلطة[1]. فأبى القيام بذلك وعندها كلف (علي خان) وهو زعيم كردي من تلك المنطقة للقيام بالمهمة. تلك هي السياسة التي كانت يتبعها الفرس لاحلال التفرقة والبغضاء بين الاكراد لضمان سلطتهم[2]. فأناب (علي خان) ابنه (موسى) للقيام بذلك[3]. وعندها قام الشيخ عبيدالله بمظاهرة عسكرية تأييداً لابنه الأمر الذي ارغم (علي خان) على النكوص والتخلي عن فكرة الجباية وبعث بابنه هذا الى الشيخ في حكاري معلناً ولاءه واحترامه لرغبة الشيخ، متهماً والي اورميه في الوقت نفسه بالعجز عن تنفيذ أمره بسبب معارضة الشيخ[4].

وفي شهر آب التالي تسارعت الاحداث لتجعل من الغزو امراً متوقعاً في كل لحظة. كان الزعيم الكردي الشهير (حمزه آغا) قد تهيأ بعد عودته من اجتماع شمدينان، ونجح في ضمّ عدد كبير من رؤساء العشائر الى معسكر الشيخ[5]. وكان التأييد والاجماع على الثورة في سائر الاوساط الكردية واضحاً. حتى أن القنصل العام الروسي في تبريز كتب الى مرجعه حول هذا التأييد الساحق قال: «لاقى الكرد في ظل الحكم الفارسي الذل والهوان وامسوا في فقر مدقع. وقد هاج هائجهم وافعمت نفوسهم بروح العداء للسلطة، وراحوا يستقبلون الشيخ بالحفاوة والترحيب العظيمين وقد رأوا فيه منقذا، وانحاز الجميع الى جانبه تقريباً»[6].

1- كان عبدالقادر وقتذاك مشرفاً على ادارة القرى الاربع في فارس، وهي هدية من الشاه لأبيه اهداها بعد الحرب التركية الروسية. وكل قرى سترماف تقريباً واهلها كرد سنيون - كانوا يدينون له بالطاعة ويدفعون له الضريبة.

2- ك.ب. كاماركان المرجع السالف ص36.

3- المراسلات (المرجع السالف تركيا رقم 5 (1881) ص9.

4- ك.ب. كاماركان المرجع السالف ص37.

5- ان العشيرة التي يرأسها حمزة آغا هي من قبائل البلباس ويشغل موطن سكناها الحدود التركية الفارسية وتكاد تكون مستقلة في شؤونها قلما تسمح للسلطة بالتدخل. ترحل شتاء الى الاراضي التركية وتعود صيفاً لتقضي الفصل في اعالي الجبال بين اشنويه ولاهيجان. اعتقل حمزة آغا في ايام الحرب التركية الروسية بأمر من والي بغداد وسجن فيها، ثم نقل الى استنبول وبقي هناك ثم سمح له بالعودة والسكنى في بغداد وبعد نهاية الحرب هرب الى فارس، واستأنف زعامته على قبيلته [مشاك العدد 203 - 1880].

6- ارشيف سياسة روسيا الخارجية. المرجع السالف بعثة الى فارس (1877 - 1896).

ونقم حاكم صاوبلاغ على (حمزة آغا) واعتزم معاقبته فما كان من هذا الأ واعلن تمرده والتحق بقوات الشيخ عبيدالله. الذي بعث بالف مسلح بقيادة عبدالقادر ابنه لانجاد (المنگور). ولوحظ وجود عدد من المسلحين البارزانيين في هذه القوة- وكانت بارزان بين القبائل الموالية له[7] وقتذاك. وتعاظمت هذه القوة بما كان ينضم اليها من رجال القبائل.

وبمقتضى الخطة أن القوات التي هي بقيادة عبدالقادر وحمزة آغا ستتقدم لاحتلال (صاوبلاغ) ثم تزحف على تبريز. اما القوة الثانية التي هي بقيادة ابنه الآخر (محمد صديق) فقد تحشدت في (ميرگەوەر) ووجهتها الزحف على اورمية واحتلالها. والقوة الثالثة كانت بقيادة محمد سعيد (خليفة) الشيخ في تكيته وقد انيط بها أمر الاستيلاء على جميع المناطق الواقعة غرب بحيرة اورمية فضلاً عن سلماس وخوي. وهاتان القوتان الاخيرتان- كانتا بأمرة الشيخ نفسه[8].

وعندما بلغت قوة عبدالقادر وحمزة آغا الصغيرة (ميرگەوەر) دون ان تلاقي مقاومة من الجيش الفارسي المرابط على الحدود - انضم اليها رئيس الاكراد المحليين بعدد يتراوح بين خمسمائة وستمائة مسلح. وبوصولها منطقة اشنويه انضم اليها حوالي أربعمائة مسلح.

في العاشر من ايلول اتمَّ الثوار احتلال اراضي منگور وانضم اليهم من هذه القبيلة الف مقاتل. وفي 15 منه دخلوا منطقة لاهيجان موطن قبيلة (پيران). ويقول كامساركان ان هذه القبيلة كانت اكثر القبائل تحمساً لقيام الوحدة الكردية[9]. اذ انها جردت 2000 من الرجّالة وألفاً من الخيالة انضموا الى القوات الزاحفة بدورهم. وبهذا انداحت رقعة الثورة وشملت مساحة واسعة من فارس الشمالية. وعلينا ان نولي اهتماماً خاصاً بتعامل الشيخ على الصعيد الدبلوماسي فقد سبق فبعث برسائل عدة الى الموظفين الفرس والى الدبلوماسيين الاجانب، ومنها يمكن تقدير تاكتيك الشيخ واهدافه ودوره في الثورة - واولها تلك التي بعث بها الى المبشر الامريكي (كوچران) في اورميه وقد طلب منه فيها اطلاع القنصل الانكليزي على الاسباب التي دفعت الكرد الى الانتفاضة.

في الرسالة الاولى المؤرخة في 25 من ايلول عرض الشيخ امثلة للجرائم التي يرتكبها الغرب بحق ابناء جلدته واعتذر عن سلوكه بانه السبيل الوحيدة. ومما ذكره قوله ان (شجاع الدولة) اعدم في 1879 خمسين رجلاً من اتباعه وسبب اضراراً في الممتلكات تقدر بمائة الف تومان وان رجال السلطة ضربوا الزعيم الكردي (فرج الله خان) حتى فاضت روحه وفرضوا على (عبدالله خان) و (ابراهيم خان) من اشنويه غرامة قدرها عشرون ألف تومان وهتكوا اعراض النساء الكرديات، فضلاً عن جرائم أخر كثار، بحيث ماعاد السكوت عنها محتملاً. وبعدها طلب الشيخ من (كوچران) عرض هذه التفاصيل على القنصل الانكليزي "كي تتضح وجاهة قضية كردستان ان طرحت على

7- حمزة عبدالله: شورشي بارزان- سليماني 1959. الص12 - 13.

8- ك.ب كامساركان المرجع السالف ص 40.

9- المصدر السابق.

بساطة البحث"[10].

وكرر الشيخ اسبابه في القيام بالحركة برسالتين لكلّ من (كوچران) و (اقبال الدولة) والي اورمية. وفي هذه الرسالة الموجهة للأخير منهما المؤرخة في 15 من ايلول تطرق الى المواقف الاجرامية للحكومتين التركية والفارسية، والى قضية كردستان. وكيف الصق بالشعب الكردي اسوء التهم وهو منها بريء إلا انه لم ينف تجاوزات واعمال لاقانونية اقدم عليها كرد واقرّ بوجود اناس مجرمين فيهم لكن «ليس عن العدالة في شيء ان يؤخذ البريء بجريرة المذنب ولا أن يوضعا في (سلة) واحدة، فيشيع عن سائر الكرد مايحط من سمعتهم كشعب، أناس همج، لايعرفون للقانون حرمة ولاطاعة لحكامهم[11].

وسمى الشيخ في رسالته تلك القبائل التي تثير القلاقل وتقوم بالاعتداءات في كل من تركيا وفارس. لكنه عزا اسبابها الى طريقة مواقف السلطة منها، وخصّ بالذكر قبيلة الشكاك في فارس والهركي في تركيا. مشيراً الى ان الدولتين لاتبديان اهتماماً بما يفعله هؤلاء، ولاتهتمان بدراسة البواعث التي تقودها الى الاعتداءات وتعملان على ازالتها. وهو ماشجعها على التمادي.[12] وانتهى الى القول:

«ولهذه الاسباب اتحد الكرد في كل من تركيا وفارس وقرّ قراراهم على انشاء دولة لهم تحقق سيادة القانون والأمن والنظام داخل حدودها. وانه يتعهد خطياً بأن لاتجد الفوضى محلاً في هذا الوطن[13].

وكتب ايضاً لعدد من الشخصيات البارزة الفارسية. منها رسالة الى [عباس ميرزا] احد المدعين بالعرش الفارسي. بعث بها برفقة اثنين من اتباعه هما [حسين قلي] و [عبدالرحيم]. حثه فيها على الوقوف الى جانبه. لكن عباس ميرزا اعتقلهما وسلمهما مع الرسالة الى الشاه[14].

وامتدت الثورة لتشمل الاقاليم الكردية كافة.

وفي متنصّف شهر ايلول اتم الكرد احتلال مقاطعة لاهيجان و(سردةشت) واجتمعت للثوار قوات هائلة بالاعداد الكبيرة التي التحقت بها. وكتب فارسيٌ حول هذا الى صديق له «الآن قامت قيامة الكرد ضد فارس، والأمر ليس قاصراً على مجرد عشرين الفاً»[15].

انضم الى قواته كل القبائل الكردية في فارس. من المنگوري خمسة آلاف، ومن (مامتش) ثمانية آلاف ومن زةرزة عشرة آلاف، ومن الموكري عشرة آلاف ومن ده بوكري خمسون الفاً ومن كةورك

10- المراسلات (المرجع السالف) تركيا رقم 5 (1881) ص 47.

11- كذا.

12- ارشيف سياسة روسيا الخارجية: الارشيف الرئيس 1880 - 1882.

13- المراسلات (المرجع السالف) ص 49.

14- كذا.

15- قفقاس. العدد 284. للسنة 1880.

والشكاك والجاف وپيران وآكو وزەرزى وغيرها ستة عشر ألفاً. وقالت الجريدة التركية (وقت) تصف مايحصل في فارس: "كان الاكراد يعانون كثيراً من الظلم والاضطهاد، وقد ابهظت الضرائب الثقيلة كواهلهم»[16].

وزحفت جموع الثوار على صاوبلاغ المدينة الرئيسة هناك دون ان تلقى مقاومة واسقط في يد القائمقام الاداري عندما وجد السكان على موعد مع المحررين واستعدوا للانحياز اليهم وسمح له وللموظفين الفرس بمغادرة المدينة بعد مفاوضة واعطاء الامان لهم تاركين الاسلحة والخزينة للفاتحين. وتم الاستيلاء على المدينة من دون اطلاق رصاصة واحدة[17].

واقام الشيخ ادارته في المناطق المحررة وعين موظفيه وشكلت حكومة مؤقتة لكردستان. واصدر إمام مسجد صاوبلاغ فتوى باعلان الجهاد على الشيعة الفرس. فأساءت الى الثورة واهدافها اساءة بالغة. وكان لها تأثير سلبي، فهي من جهة وضعت التعصب المذهبي فوق مسعى الكرد للاستقلال الوطني، ومن جهة زادت في مقاومة الشيعة الفرس، واحدث قلقاً ونفرةً عند المواطنين الفرس غير المسلمين[18].

لم يكن في الفتوى شيء حول هدف الكرد من حركتهم أي الاستقلال السياسي.

في الثالث والعشرين من ايلول أتم الكرد احتلاله مقاطعة (شه شوان) وفي السابع والعشرين استولوا على استاروك[19].

واشتدت مقاومة الفرس بعد عبور القوات نهير (سه آب) في المدن والقرى التي يشغلونها هناك. وصمدت مدينة (مياندواب) بصورة خاصة، فتركتها قوات حمزه آغا وراءها مؤقتاً متجهة الى (زەفره) فوقعت بيدها بعد يومين من القتال. ونكلت تلك الفئات التي ساعدت الجيش الفارسي ثم انثنى حمزه آغا الى مياندواب فاستولى عليها. وحاولت القوات الفارسية التي كانت مرابطة في هاتين المدينتين وقف زحف الكرد على (ملكنه). فجرت معركة دموية اندحر الفرس فيها ودخل الثوار تللك البلدة[20].

وتقدمت القوات نحو (تبريز) وظهرت طلائعها على مسافة قصيرة منها. فساد الذعر فيها وتسلح

16- "وقت" العدد 1868 ، للسنة 1880.

17- المراسلات (المرجع السالف) تركيا رقم 5 للسنة 1881. ص32.

18- اصاب المبشر الامريكي ولسن في قوله أن تنكيل الكرد بالشيعة الفرس كان خطأ فادحاً. فقد احيا روح المقاومة فيهم، وازال كل ماقد يشعر به هؤلاء من عطف على قضية الكرد [المرجع السالف ص 112].

19- ك.ب. كامساركان المرجع السالف ص 40. [قلنا] وجدنا صعوبة كبيرة في اثبات الاسماء الصحيحة لهذه المواقع الثلاثة رغم استعانتنا بخارطة مفصلة جداً لكردستان ايران وهي من الخرائط الحديثة. فليس فيها ماهو قريب من الاسماء التي نقلت عن الروسية. مع العلم ان الاسماء لاسيما للقرى والمواقع الصغيرة عرضة للتغيير.

20- المرجع نفسه ص41.

السكان وشرعوا في اقامة التحكيمات وحزمت القنصليات اوراقها توقعاً لترك المدينة. وقطعت الاتصالات البريدية[21].

وقد عزا مراسل صحيفة (التايمس) اللندنية النجاح الكبير الذي احرزه الكرد الى اعتبارهم حركة الشيخ حركة تحرير لهم[22].

كان الضباط والجنود الكرد في الجيش الفارسي يلتحقون بالثوار في احيان كثيرة[23] واتخذ عبدالقادر كلّ الاحتياطات لتأمين الحماية للسكان وضمان عدم التعرض لهم بسوء او المساس بممتلكاتهم ووضع الرعايا الروس تحت حمايته بنوع خاص وقد لاحظ (شولشفسكي) القنصل الروسي في تبريز ذلك فكتب في 20 من تشرين الثاني 1880:

«كان (هارتيون نزاربيكوف) الروسي الجنسية موجوداً طوال الوقت في صاوبلاغ وزار الشيخ عبدالقادر عدة مرات. وقد خصص له الشيخ عدداً من المقاتلين لحراسة وحماية مخازن المدينة التي يمتلكها الروس. كما طلب منه أن يصرف مقادير القمح والشعير بطريق البطاقات عندما تدعو حاجة قواته الى ذلك»[24].

إلا ان القوات التي كانت بأمرة الشيخ عبيدالله لم تحرز نجاحاً في منطقة اورميه لان السلطات الفارسية بما لديها من قوات في المدينة بقيت صامدة. وعندما حوصرت أرسل عبيدالله في 21 من تشرين الاول مبعوثاً يعرض الاستسلام، وكان من رأي الملالي (رجال الدين) الكبار تسليم المدينة ألا ان واليها (اقبال الدولة) اصرّ على المقاومة وبادر بتحصين المدينة واقامة المتاريس. واستعد الشيخ للقيام بهجوم واسع النطاق، وعندها طلب (اقبال الدولة) من القنصل الانكليزي (آبوت) التوسط لتمديد المهلة المعطاة كسباً للوقت. وبهذا يكتب القنصل:

«طلب منّي اقبال الدولة الاتصال بالشيخ عبيدالله لاقناعه بوقف الهجوم، كي ينفسح له المجال للاتصال بالعاصمة تبريز»[25].

وقبل (آبوت) وخرج في اليوم التالي للقاء الشيخ وابلاغه بطلب (اقبال الدولة) بالتأجيل. فرفض الشيخ ان تكون له اية علاقة بهذا الوالي، وردد لآبوت ماكان قد اكده مراراً حول الهدف الذي يسعى اليه مشيراً الى سخطه على الحكومة الفارسية. ثم بعث بعدها برسوله (سيد محمد) ليؤكد لآبوت موقفه الودي من الدول الاوروبية معتذراً عن قبول طلبه بالتأجيل بسبب الجرائم التي يرتكبها الحكام الفرس بحق الكرد، وخصّ بالذكر والي اورميه الذي يقف على رأس القائمة

21- ولسن. المرجع السالف ص 109.

22- جريدة "التايمس" العدد 17 - السنة الحادية عشرة 1880.

23- "تفقاس" العدد 317 للسنة 1880.

24- ارشيف سياسة روسيا الخارجية. بعثه الى بلاد الفرس 1877 - 1896.

25- المراسلات (المرجع السالف) تركيا رقم 5 في 1881. ص38.

وكتب آبوت عن هذا اللقاء:

«يقول الشيخ انه عازم على تطهير البلاد من قطاع الطرق، وعصابات النهب والسلب والقبائلية وغاراتهم المتواصلة في كل من تركيا وفارس، وان موظفي هاتين الدولتين قد عجزوا عن ذلك. وليس بمقدورهم حفظ الأمن والنظام وحماية السكان الآمنين، كما ان الدولتين لاتعترفان للمسيحيين بحقوق مماثلة للمسلمين، وهو عازم على احلال المساواة بينهما، مثلما هو مهتم بنشر التعليم وبناء المدارس، واعطاء الحرية التامة لاقامة المعابد الدينية المسيحية. وكل مايريده هو التأييد المعنوي من الدول الاوروبية العظمى» ويضيف الى هذا «انه يضع نفسه موضع اختبار فإن فشل في اقامة دولة كردستان، ونصب حكومة قوية عادلة، فأنه على استعداد للمثول امام اي مجلس قضاء اوروبي والرضى بأي حكم تصدره عليه»[26]. الا ان (آبوت) اوضح لموفد الشيخ بان انكلترا لن تكون طرفاً فيما يحصل الآن بين فارس والاكراد، ومع ذلك نجده يسعى للحيلولة دون التحاق زهاء ثلاثمائة من الآشوريين الجبليين المسلحين بقيادة المطران (ماريوسف) بالقوات الكردية وكذلك لاعاقة الآخرين القاطنين في اطراف بحيرة اورميه من الانضمام اليها[27]. فقد توجه الى الكنيسة الآشورية في اورميه والقى كلمة في المصلين، مذكراً اياهم بان بريطانيا لن تألو جهداً في الاهتمام باحوال المسيحيين وعليهم ان يثقوا بها ويبقوا خارج دائرة الحركة الكردية.

ظهر الموقف الودّي للشيخ ازاء السكان وفي مقدمتهم المسيحيين والرعايا الاجانب بكل وضوح في اول ايام العمليات الحربية. باتخاذه كل الاجراءات الكفيلة بمنع التعرض لهم باية صورة كانت، ومن ذلك انه وزعت أعلام زرقاء على المسيحيين لتركز فوق بيوتهم وبها يتم تمييزهم عن الآخرين[28] وحظر الشيخ على قواته مباشرة عمليات سلب ونهب في المناطق الخاضعة له. دليلاً على طابع الحركة الوطني الخالص ونشرت جريدة (ستاندرد) نقلاً عن مراسل لها نبأ قيام الشيخ بتنفيذ حكم الموت على ثلاثين من مسلحيه بسبب ارتكابهم جرائم ضد السكان الآمنين[29]. كما احاط آبوت علماً باستعداده للهجوم في موعد رسمه ليمنح السكان المسيحيين في المدينة فسحة وقت لمغادرتها قبل الشروع في العمليات[30]. واقترح عليه اثناء اجتماعه به أن يجول بصحبة (سيمون آغا) الأرمني للتنبيه ولاذاعة النبأ.[31] وبهذا يكتب:

26- المرجع نفسه ص39.

27- ابلغ (بلوفدن) المقيم البريطاني في بغداد السفير البريطاني (كوشين) في استنبول ان الشائعات تدور حول التحاق عدة الآف من الآشوريين بالانتفاضة الكردية.

28- المراسلات (المرجع السالف) تركيا رقم (5) 1881) ص13.

29- "ققفقاس" العدد 229.

30- المراسلات المرجع السالف. تركيا رقم (1881) ص38.

31- هو كرجي سيمون چيلنغازيان. كان موجوداً اثناء لقاء كلايتن بالشيخ. ويرى (ولسن) ان سيمون كان بصورة رئيسة مهتماً بسلامة المسيحيين. وتشير مصادر دقيقة الى انه روسي الجنسية. وكان احد مشاوري الشيخ عبيدالله. يستخدمه في مراسلاته الخارجية. وقد وصفته جهات بانه كان بمقام وزير خارجية للشيخ [ارشيف سياسة روسيا الخارجية. سفارة القسطنطينية 1881].

«وافقتُ على ذلك وفي التاسعة صباحاً، وصلتُ بصحبة الدكتور كوچران وسيمون آغا واثنين من الحرس الايراني الى مداخل المدينة الرئيسة»[32].

إلا ان (اقبال الدولة) استقبلهم باطلاق النار بغزارة وارغمهم على العودة من حيث اتوا ولدى علم الشيخ بهذا. طلب من آبوت ان يزوده بكتاب خطي يثبت موقفه هذا ليكون دليلاً في المستقبل على حسن نواياه[33]. الاّ ان آبوت لم يلب طلبه!

على أن أبوت قام في شهر تشرين الثاني بجولة واسعة، في تبريز، وفي المناطق الأخرى التي وقعت بيد الثوار باجازة الشيخ فمرّ بـ(تەرگەوەر) و (صاوبلاغ) و (اشنويه) للاطلاع على حقيقة الاوضاع والتعرف على النوايا المقبلة.

كانت الاوساط الحكومية التركية تتابع مايجري بدقة. فمن جهة كانت قد ساعدت عملا للتمهيد للحركة نكاية بفارس وامتداداً للعداء التقليدي، ومن جهة اخرى كان الخوف يمتلكها من عقبى النجاح الذي حققته الحملة. ولم يسع الباب العالي الوقوف موقف المتفرج، فقد بادر الى اصدار برقية يأمر بها قيادة الفيلق الرابع بالبدء بعملية التجنيد. وصدرت من مصرفي (ظريفي وفوستر) حوالات مالية رسمية باكثر من خمسين الف ليرة عثمانية واجبة الدفع في ارضروم ووان وسيواس وقسمون وتبريز استدراكاً لنفقات الحرب. وحذّر والي (وان) سراً بان لايدفع شيئاً مما بعهدته، بل يحاول «ان يجمع ثلاثين ألف ليرة من اي مكان!. واعرب القنصل الروسي بارضروم سفيره في رسالة عاجلة عن حيرته من تفهم هذه الاجراءات. «فلتسمع لي ياصاحب السعادة بالقول أنه تحصل أمور غير عادية في المعسكرات التركية. فقد تم تسليح افراد الفيلق بعدة كاملة وتجهيزات وإن لم اكن مخطئاً فان الباب العالي اصدر امراً فورياً بدعوة الوجبة الثانية من القرعة العسكرية للخدمة»[34].

وجرت حركة تحشد كبيرة للجيش التركي في ارضروم. اذ أرسل اليها ستة عشر فوجاً من وان وموش وبدليس وارزنجان، مع 28 مدفع حصار ذي عيار ثقيل مع طواقمها ورجال صيانتها، وانتقلت قيادة الفيلق الرابع مع هيئة الاركان من ارزنجان الى ارضروم. ومنها سيرت القوات المجتمعة الى وان لتكون قريبة من مرسح الاحداث.. وفي تشرين الأول زُوِّد (سامح پاشا) القائد العام في وان بستين الف قرش وستين عجلة محملة بالذخيرة، وباربعين حملاً من الملابس، ثم ضم الى الفيلق فيما بعد عشرون كتيبة مشاة.

وفي استنبول بدأت الدسائس تحاك بهدف القضاء على نفوذ الشيخ، بالاسلوب المعهود في ضرب زعيم كردي بآخر. وبثت اشاعات حول اعتزام السلطان استحداث ولاية كردية خالصة تتألف من ارضروم ووان ودياربكر والموصل وبتعيين عبدالله پاشا وهو من اهل السليمانية والياً عليها. وكان من

32- المراسلات المرجع السالف.

33- كذا.

34- كذا.

مقربي السلطان، وكان العداء بين هذا الأخير وبين الشيخ عبيدالله امراً معروفاً. ثم روجت اشاعة اخرى مؤداها ان عبدالله پاشا هذا قد اشتبك بجيشه في معركة ضد الثوار ترمي الى اعادة الهدوء في كردستان وابقائها ضمن الامبراطورية[35].

واتخذت الحكومة الفارسية كل مافي وسعها من اجراءات لمواجهة الخطر الماحق فسيقت القوة الرئيسة من طهران بقيادة (اعتماد السلطنة) نحو تبريز، فيما توجهت القوة الثانية بقيادة (حمزة ميرزا حشمت) من طهران الى الشمال وكان قد اشرف على تدريبها ضباط نمساويون فرافقوها والتحقت بها وهي في طريقها قوات من همدان وقزوين. كما توجهت من (خوي) الى تبريز قوات ثالثة بقيادة (تيمورخان)[36].

فيما كانت الاستعدادات الفارسية تجري. توقفت فعاليات القوات الكردية في منطقة تبريز تقريباً وانصرفت الى عمليات السلب والنهب وجمع الغنائم في اقليم اذربيجان ثم انفرط عقدها وتفرقت. اذ كان معظم من التحق بقوات الشيخ قبائليين معدمين عضهم الجوع بناب وضعفت نفوسهم أمام الغنائم والاسلاب فحملوا منها وسعهم حمله وعادوا بها الى اهاليهم. كل ذلك كان له التأثير الكبير على نتيجة الحملة.

وناشد الشاه كلا من روسيا وبريطانيا بطلب المساعدة عن طريق حمل تركيا على القيام بالتدابير الكفيلة باخماد الحركة.[37]

واستجابت روسيا «باجراء وديّ» فحشدت قوات عسكرية كبيرة في (نخشوان) القريبة من الحدود الفارسية واناطت قيادتها بالجنرال آلخازوف.

وفي 11 من تشرين الثاني. طلب الشاه من الوزير المفوض الانگليزي تومسن اثناء مقابلة بان تمارس حكومته الضغط على تركيا لتقوم من جهتها باعمال عسكرية ضد الكرد، ففعل وذكر في تقريره مامؤداه ان انتصار الكرد في فارس قد يكون حجة للتدخل الروسي في شؤون فارس... وان جلالة الشاه يخشى كثيراً ان تنتهز روسيا فرصة تلكؤ تركيا في القيام بعمل عسكري للتدخل بحجة تعرض مصالح رعاياها الكثر في اذربيجان الى الخطر في حين تقف حكومة الشاه عاجزة [38].

وكتب القنصل الانگليزي تروتر في الوقت عينه شيئاً بهذا المآل:

على الحكومة التركية ان تستغل فرصة فشل الشيخ في ايران لتوجه اليه الضربة القاضية في تركيا[39] أخيراً وبالضغوط البريطانية الروسية وضعت الحكومة التركية تسع كتائب على الحدود

35- الجريدة الرسمية العدد 263 في 1880.

36- صحيفة التايمس العدد (29) السنة العاشرة 1880.

37- ارشيف سياسة روسيا الخارجية (الارشيف الرئيس) 1880 - 1881.

38- المراسلات. (المرجع السالف) تركيا رقم 5 (1881) ص11.

39- المرجع السالف ص22.

الفارسية بقصد قطع طريق العودة على الشيخ. كما استخدمت حكومة الشاه قوات الخيالة غير النظامية وهي قوات مطوعة يندبها الشاه في احوال خاصة لمهمة معينة- وقد قدرت بزهاء عشرين ألفاً من القرتداغچي والشاهميكانچي - فأرتكبت من الفظائع ما يجل عن الوصف مارست من الوحشية والهمجية في ذبح الكرد الأبرياء مالم يسع الضباط النمساويين المراقبين انكاره[40].

وجند تيمورخان متولي (ماكو) كل ذكر قادر على حمل السلاح في منطقته استعداداً لمواجهة الشيخ. وبحسب ماذكر مينورسكي اثر جولته في المقاطعة: «الاعتقاد السائد لم يبق هنا من الذكور غير الشيوخ والاطفال»[41] بل اصرّ على أن يساهم الارمن في حملته هذه[42] وقد تجمع له قوة قدرت بخمسة آلاف تقدم بها نحو اورميه من جهة (سلماس) فارسل الشيخ قوة تتألف من ألفين اناط قيادتها بابنه محمد صديق. لكن تيمورخان تحاشى الاصطدام به ويمم شطر المدينة من جهة اخرى. فاضطر الشيخ الى مواجهة تيمور بنفسه. فحلت به الهزيمة في (بيلاو) وارغم على التقهقر نحو (جنكل) فاقتفى تيمور اثره. وفي طريقه اباح لجيشه نهب الارمن والكرد والفرس العزل. وساء حال قوات الشيخ المتراجعة نحو صاوبلاغ وتبريز ونكلت القوات الفارسية بالسكان الاكراد العزل تنكيلاً فظيعاً ولم تخالطها رحمة. مثلاً (صبحي ميرزا) حاكم مياندواب اقسم على قطع رأس كل كردي يقع بيده واقرته تبريز على اجراءته تلك وكافأته بمائة تومان[43]. ولم يسلم من الاعدام حتى اولئك الذين سلموا انفسهم واعلنوا ندامتهم وبهذا كتب شوليشفسكي:

«كل الكرد الذين جاؤا عن تلقاء انفسهم الى المعسكر الفارسي اما قتلوا واما كبّلوا بالاغلال»[44].

خيانة الزعماء الكرد، والانسلال من ساحة القتال، ارغما الشيخ عبدالقادر وحمزة آغا على التقهقر السريع. ونشبت معركة بين الطرفين في (پيناب) تكبد الكرد فيها خسائر فادحة[45]. وكتب عبدالقادر لوالده يفسر له اسباب الهزيمة ويعزوها الى خيانة الزعماء بالتخلي عنه... «انتقل عدد كبير من رجالنا الى صف العدو فخذلنا.. ولاذ رجالي بالفرار رغم محاولاتي لَم شعثهم طوال الايام الماضية، وكانوا قد قرروا الانسحاب.» وعدد في رسالته اسماء الذين خذلوه من الزعماء ومنهم جلال خان رئيس القره باغ واسماعيل حاجي خوشي. ولولا خوف البقية من المصير الذي ينتظرهم لتفرقوا هم ايضاً[46].

ان الضرر الافدح جاء من اولئك الذين انضموا الى الحركة لغاية السلب وجمع الغنائم. في حين كان الاقطاعيون منهم يُغلّبون مصالحهم الخاصة وينحازون الى الجهة التي تؤمنها لهم. ولم تواجه القوات

40- ل.ك. ارطامانوف اذربيجان الشمالية. تفليس الص 75- 78.في 1890.

41- ت.ف. مينورسكي: تقرير عن رحلته في خان ماكو (مواد للدراسات الشرقية) اصدار (1) ص 30- 1909.

42- مشاك العدد 199 ، في 1880.

43- ك.ب. كاماركان. المرجع السالف ص43.

44- ارشيف سياسة روسيا الخارجية. بعثة... المرجع السالف.

45- جريدة التايمس 1880,113.

46- المراسلات والمرجع السالف. تركيا رقم 1880,5 ص77.

الفارسية مقاومة تذكر اثناء تقدمها. ووجدت نفسها حرة في ارتكاب كل جناية متصورة. كانت تشعل النار في كل ماهو قابل للحريق اثناء مسيرتها ونهبت كل القرى الكردية وفتكت بسكانها دون رحمة ولم تستثن النساء والاطفال. ان الفرقة التي جاءت من طهران بقيادة (السپاه سالار) اشعلت النار في اكثر القرى التابعة لصاوبلاغ. وعن هذا ذكرت جريدة وقت « أمر السپاه سالار، بان لاتخالط جيشه اي رحمة، واحرق قرى الكرد واتلف مزروعاتهم. وترك السكان دون لقمة خبز يتبلغون بها[47]. بل امتدت يد التخريب والنار حتى الى القرى غير الكردية فمثلاً احرقت القرى التي تقع في منطقة مجيد خان. وكانت مؤجرة لأسرة نازابيكوف الروسية[48].

ولم تكن قوات (اعتماد السلطنة) و (حسام الدولة) بأقل وحشية من تلك. وبلغ الاستهتار بالجنود الى الحد الذي عجز معه ضباطهم عن احتوائهم وكبح جماحهم. ولوحظ ان الضباط النمساويين كانوا يشجعونهم وقد امروهم بحرق كل قوى (مجيد خان) وذبح اهاليها. وعندما استنكر (حسام الدولة) ذلك هدده أحدهم بشكوى ضده للمقامات العليا في طهران لأن لديه اوامر صريحة منها بعدم الابقاء على شيء اثناء تقدم الجيش[49]. ولم يتعفف الضباط الفرس عن الارتشاء من الاغوات والخانات الكرد لقاء عدم التعرض لقراهم. الا ان الحكومة فرضت على الكرد غرامة قدرها اربعون ألف تومان عقاباً[50]. وذكر شولشفسكي في رسالة بعث بها مؤرخة في 10 من كانون الثاني 1880، مقتل عدة الآف من الكرد واحراق مايزيد عن مائتي قرية لهم[51].

وتقهقرت قوات عبدالقادر وحمزة آغا حتى (ميرگەوەر) عن طريق لاهيجان واشنوية وتعقبهم الجيش الفارسي بقيادة العميد على خان وناصر الملك[52] وكان يتألف من اربع كتائب مشاة و 1500 من الفرسان مع اربعة مدافع. وفي تشرين الثاني عبرت القوات الكردية الحدود الى تركيا. وتقدمت طهران الى الحكومة التركية بطلب تسليم الرؤساء الكرد المشاركين في الحملة بتأييد بريطانيا والنمسا[53]. وكان من رأي السفير البريطاني في استنبول: اما انزال العقاب بالشيخ واما تسليمه للحكومة الفارسية[54]. وتلا الانسحاب اعلان زعماء الكرد في فارس، ولاءهم للشاه جميعاً باستثناء قبيلة المنگور ورئيسها حمزة آغا، فقد واصل المقاومة رافضاً كل ماعرض عليه من شروط سخية. فسيرت عليه اربعة افواج نظامية بقيادة (علي خان أفشار) ودمرت قراه واعتقلت العديد من اتباعه. وقد دون

47- وقت. بتاريخ 3 شباط 1881.

48- ارشيف السياسة المرجع السالف.

49- كذلك.

50- المراسلات (المرجع السالف) تركيا رقم 5 (1881) ص54.

51- ارشيف سياسة روسيا الخارجية. المصدر السالف.

52- المصدر عينة. وانظر المراسلات ابضا.

53- المراسلات (المرجع السالف) تركيا رقم 5 (1881) ص57.

54- الارشيف الرئيس لسياسة روسيا الخارجية.

كاتب هذه الحملة ثبتاً بالاسلاب التي حملها الجنود من افراد هذه القبيلة بما يقارب ألف حمل بعير[55]. ولاذ حمزه وجماعته بالجبال الحدودية وشرع في حرب عصابات[56] نال منها الفرس اذى كبيراً. واسقط في يد السلطة ولجأت الى الحيلة، أرسل (حسن علي خان) حاكم صاوبلاغ له عهداً مشفوعاً بقسم مغلظ أن يعفو عنه وعن اتباعه لو اعلن طاعته واخلاصه للشاه إلا انه نكث بعهده عندما اقبل حمزه آغا لاعلان ولائه في يوم عيد، فلم يستسلم وبقي يقاتل حتى قتل، فاحتز رأسه وارسل الى قائد الجيش الفارسي في اورميه[57].

وهرب كثير من الكرد خوف التنكيل بهم - الى تركيا. ويدعي الباب العالي أن عدد من لجأ منهم من اهالي اورميه وماجاورها يتراوح بين 60 الفاً و70. ووصل منهم الى حكاري وحدهها2000[58] ولم ينقطع سيل الهجرة. وبدت ذات طابع عام. وفي فارس بدأت عملية التهجير القسري وتم نقل كل سكان (ماكو) و (سنه) و (كرمنشاه) وغيرها الى مناطق نائية من غرب البلاد[59]. وآب الشيخ عبيد الى موطنه واستقر في شمدينان. في حين اسكنت القبائل الكردية التي انتظمت في صفوف القوات الفارسية المدن مثل عشيرة (زقرزة) في اشنويه[60].

وبقي الخطر من قيام عملية عسكرية ثانية ماثلاً للشاه وشدد الضغط على باب العالي بتشجيع من الدول الاوروپية مطالباً بتسليم الشيخ عبيدالله، وبعث بموفديه [ميرزا رضا خان] والضابط النمساوي البارون (فون ليتز) الى (وان) للمداولة في هذا الشأن. ووجهت مذكرة شديدة اللهجة الى الحكومة التركية متهمة اياها بالتهاون وعدم اخذ موضوع الغزو بحزم.

بعد عودة الموفدين خانبين[61] ردت الحكومة التركية على المذكرة في 28 من تشرين الثاني 1880. بسرد للاجراءات الحازمة التي اقدمت عليها ومما جاء فيها: «ان الاجراءات الحازمة التي تمّ اتخاذها هي التي احدثت الخلل في صفوف الكرد ومزقت صفوفهم وزرعت الخلافات فيما بينهم فسهلت للفرس النصر»[62] واتهم الباب العالي الفرس بدوره، باطلاقهم عصابات موالية لهم من الكرد للاغارة على الموصل وبغداد وعدم التفاتها الى الاحتجاجات التي قدمتها بهذه المناسبة.

وبالأخير تخلى الشاه عن مطاليبه واوعز الى سفيره في استنبول (محسن خان) بالاكتفاء من الباب

55- المراسلات (المرجع السالف) تركيا رقم5 (1881) ص80.

56- ولسن: المرجع السالف ص120 .

57- ارشيف السياسة الخارجية (المرجع السالف).

58- ققفاس العدد 304 للسنة 1880.

59- "ققفاس" العدد 304. للسنة 1880.

60- م. كوليو باكين. دراسة حول القوات المسلحة الفارسية للعام 1883. [من مجموعة دراسات جغرافية - طبوغرافية - احصائية عن اسيا] العدد4،ص 58. للسنة 1883.

61- المراسلات(المرجع السالف) تركيا رقم 5 .(1881) ص63.

62- كذا.

العالي بضماناتها حول القيام باجراءات فعّالة في المستقبل للحيلولة دون تكرار ماحصل[63]. وطال الاخذ والردّ في هذا الصدد ولم يبد من الباب العالي مايشير الى اعتزامه القيام بعمل ما ضدّ الشيخ، فاهتبل هذا فرصته وبدأ يستعد لعملية جديدة، متوجها الى زعماء الكرد بدعوة للمشاركة في ما انتواه. ولم يفقد في ما يبدو امله في روسيا. وفي اوائل ربيع العام 1880، كان ثم لقاء بين خليفته المدعو (محمد سعيد) وبين كامساركان، وكان يحمل اليه رسالة من كرد فارس اللاجئين الى حكاري. ونقل القنصل الروسي الى سفيره في استنبول (تيليدوف) ماجرى: قال ان الخليفة نقل عن شيخه مايؤكد استعداده للعمل دوماً بما ترشده اليه روسيا بصورة مطلقة، لوكانت مهتمة بمعرفة الاسباب للاحداث السابقة. وقال ايضاً ان الشيخ رفض دعوة الحكومة التركية للتوجه الى العاصمة لأنه قليل الثقة بالباب العالي وان ثقته بوعد روسيا بدعمه هي وحدها ستحمله على تلبية الدعوة والسفر الى استنبول[64] والظاهر ان الدروس التي تعلمها من حملة فارس الفاشلة احدثت أثرها في طبيعة نشاطه الجديد في التهيئة لحركة اخرى. وتبدو مثلاً في الرسالة التي كتبها الى خليفة الطريقة (الشگير) صاحب النفوذ العظيم، بخصوص الموقف الذي يجب اتخاذه من القضية الارمنية. قال فيها انه عندما تهيأ لحركته ركز كلّ اهتمامه على توحيد صفوف الكرد ووضع كل ثقته في مقدار ماسينجزونه لاقامة الدولة الكردية المستقلة. إلا أن الاحداث ايدت بأن ذلك ليس بكاف ومن المهم جداً الاعتماد على امور أخرى: وقد اثبت التجارب بان العداء الذي يكنه بعض زعماء الكرد للشعب الارمني الكريم الجانح للسلم الحق ضرراً بالغاً بالحركة. والضرورة تحتم الآن توحيد الجهود والمقاصد مع الارمن من خلال نضالنا... و

«اني ورغم كل شيء أثق بالارمن اكثر من ثقتي بالترك والفرس. الفرس يكرهوننا اشد كره، والترك يتخذوننا اداة لتنفيذ سياستهم».

وهو يقترح على الشيخ وقف كل عمل عدائي ضد الكرد، وعدم خداع النفس وتمنيتها بالوعود التركية...

«ايها الأخ توقف عن ملاحقة الأرمن، وكف عن الاساءة اليهم فنحن نعيش معهم، وليكن موقفهم من الحكومة مايكون، لاتصغ الى أحد ولاتصدق احداً. ان التجربة اثبتت باننا لعبة في يد الترك ليس غير»[65].

وامتنع الشيخ الخليفة عن التعاون في رسالته الجوابية المؤدبة.

ولقيت استعدادات الشيخ تجاوباً عظيماً ولم يقتصر ذلك على الكرد بل تعداه الى العرب والآشوريين، ففي شهر كانون الثاني من العام 1881 وفد الى مقرّه 500 من العرب المسلحين، من

63- كذا.

64- ارشيف سياسة روسيا الخارجية: سفارة القسطنطينية 1881.

65- ققفاس العدد 343 للسنة 1880 . انظر ايضاً ميگوهابستان العدد 98 للسنة 1880.

ولايتي الموصل وبغداد. معربين عن استعدادهم لخوض المعركة معه[66].

وكان قد جمع في حينه قوة من الكرد تناهز خمسة آلاف.

كان قد حقق صلات ودية في السر مع العدد من الموظفين الترك والقائمقامين في تلك الانحاء. فمثلاً كتب الى قائمقام (شتاغ) يطلب منه ارسال بندقيات.

«زودني بما تستطيع الحصول عليه من البندقيات من نوع مارتيني، تَيّه غْلي (شنايدر) (ونشستر). ولاسيما الكثير من طراز مارتيني»[67].

وادرك حاجة قواته الى التدريب العسكري النظامي فاستخدم لهذا 26 ضابطاً تركياً متقاعداً بمرتب شهري قدره ليرتان لكل منهم. وبذل جهوداً كبيرة لكسب الآشوريين الى صفّه، وتبودلت رسائل كثيرة بينه وبين مارشمعون. وفي اوائل العام 1881 بعث بمطران لهم في شمدينان الى (قوچانس). ونشرت جريدة "مشاك" الارمنية ان البطريرك الآشوري مع خمسة عشر رئيس عشيرة (مالك) وعدوا بدعم الشيخ حال قيامه بحركة جديدة ضد فارس[68].

تعمد الباب العالي اطالة المحادثات حول مصير الشيخ مع السلطات الفارسية. الاّ ان الحركات التحضيرية التي لوحظت، اثارت مخاوف الحكومة التركية فاتخذت اجراءات احتياطية. منها انها جردت من ولاية (وان) قوة تتألف من كتيبتين (لوائين) مشاة، باربعة مدافع جبلية وبطرية مدفعية ميدان واناطت قيادتها (بسامح باشا)[69] ثم وجهت في الوقت عينه ياور السلطان (احمد بك)[70] للشيخ بغية اقناعه بالسفر الى استنبول. فاعتذر بالمرض معبراً في الوقت نفسه عن طاعته وولائه للسلطان[71] ومارست انكلترا وروسيا في عين الوقت ضغوطاً عظيمة على الباب العالي للحيلولة دون قيام حركة ثانية. وكتب اللورد گرانڤيل للكونت (داڤيرين) في شهر كانون الثاني 1881 حول عمل مشترك تقوم به دولتاهما بخصوص القضية الكردية وقال في رسالته:

«في الماضي حققت الوساطة البريطانية الروسية نجاحاً في الحيلولة دون وقوع حرب بين تركيا وفارس. وفي الامكان ان تحقق مثل ذلك الآن. من الممكن اعادة حالة السلم والهدوء الى الدول التي تصدر منها تلك المشاكل[72]».

إلا أن السفير البريطاني (كوشين) طلب بصراحة من الباب العالي فرض عقوبة على الشيخ ان لم

66- الارشيف الرئيس لسياسة روسيا الخارجية 1 - 9 للسنوات 1880 - 1882. قسم 8. جزء 29. الورقة 136. انظر ايضاً الجريدة الرسمية العدد 239 للسنة 1882.

67- المرجع نفسه. سفارة القسطنطينية (1881) جزء 1567. ورقة 13.

68- "مشاك" العدد 46 للسنة 1886.

69- ك.ب كاماركان. المرجع السالف ص45.

70- ارشيف السياسة الخارجية الروسية الرئيس 1880- 1882.

71- مشاك العدد 72 للسنة 1881.

72- المراسلات (المرجع السالف) تركيا 5 - 1881. ص75.

يكن في وسعها تسليمه للسلطات الفارسية[73].

وابرق (ناصرالدين شاه) للقيصر، يرجوه التدخل بصورة خاصة في القضايا المتنازع عليها بين حكومته وتركيا. وقد جاء فيها:

«اتقدم اليكم باحرّ الرجاء لاتخاذ كل ماترونه ضرورياً من الاجراءات لتعزيز الأمن في اذربيجان[74] فطلبت روسيا من الباب العالي اتخاذ الحيطة لمنع حركة أخرى. وعندها وجه الباب العالي انذاراً نهائياً للشيخ يدعوه فيه الى المثول بين يدي السلطان فوراً وفي الوقت نفسه ساق قطعات من الجيش الى حكاري.

واقترح الشيخ تشكيل لجنة خاصة تضم ممثلين اوروپيين لدراسة اوضاع كردستان وطالب بوقف التحشدات العسكرية في حكاري[75] الا انه اضطر بالاخير الى السفر وكان بمعيته ماهو اشبه بحرس شرف يتألف من كتيبة خيالة وبطريتي مدفعية «لاحباط اية محاولة فرار قد يعمد اليها»[76] واستقبله السلطان بحفاوة، وخرج الناس والوجهاء لرؤيته واكتظت بهم الشوارع اثناء مرور موكبه. الا انه كان في الواقع اسيراً في حمى السلطان وليس ضيفاً على حد قول (ولسن). وفي تشرين الاول من العام 1881، تقدم لوزارة الخارجية التركية بمذكرة يطلب فيها دعمه في مطالبته الحكومة الفارسية بتعويضات عن الخسائر التي الحقتها القوات الفارسية بالسكان الكرد[77]. مشيراً الى ان مادعاه للقيام بحملته هو الجرائم التي ارتكبتها تلك الحكومة ازاء ابناء جلدته هناك. واحيلت طلباته تلك الى السفارة التركية في طهران في 24 من تشرين الثاني. وفيها ايضاً اشارة الى الاعمال اللاقانونية التي مازالت ترتكب على الحدود «مما يؤدي الى إثارة الضغائن واستمرار اعمال العنف»[78]. فردت طهران على مزاعم الشيخ والحكومة واشارت الى ان تبادل مثل هذه التهم الباطلة يلحق الضرر الكبير بالعلاقات "الودية" بين البلدين[79].

ولم يهدأ للشيخ بال وواصل اتصاله بابنه عبدالقادر واتفق على الهروب. وفي نهاية شهر حزيران من العام التالي اعتزل في غرفته معلناً انه سينقطع للعبادة ولايريد أن يواجه احداً خلال ذلك[80] ثم تنكر بزي تاجر وتسلل بجواز سفر مزور الى الساحل واستقل باخرة تابعة لشركة (باك) الفرنسية اقلته الى (بوتي) ومنها الى كردستان[81].

73- ارشيف السياسة الخارجية (المرجع السالف).

74- كذا.

75- الارشيف الرئيس لسياسة روسيا الخارجية (المرجع السالف).

76- س.گ. ولسن المرجع السالف ص75 .

77- الارشيف الحربي التاريخي - الحكومة المركزية.

78- المصدر نفسه.

79- كذا.

80- ولسن. المصدر السالف ص121.

وانتشر نبأ عودته في طول البلاد وعرضها عند ظهوره على الحدود الروسية التركية وخرجت جموع القبائل الكردية لاستقباله والتقاه ابنه عبدالقادر يتقدم آلافاً من المسلحين[82]. ونزل الشيخ ضيفاً على الخوري (اوهانيس كاجوني)، راعي كنيسة ارمنية في شمال (وان) ونقل عنه قوله في جمع من الارمن:

«شكراً لكم على استقبالكم. ان اخلاص وطيبة قلب الارمن أمران معروفان عندنا وعليها بنيت صلات صداقات وعلاقات اجدادنا من قديم الزمان يجب ان لاننسى ذلك. انني اعدكم بان شعبنا لن يقدم بعد الان على مايلحق الأذى بالارمن»[83].

ثم استدار الى الكرد الذين كانوا يرافقونه وناشدهم بان يعتبروا الارمن اخواناً لهم وان يجنّبوهم كل اساءة. وانه سيعد كل ماتلحق بهم من اساءة اهانة شخصية له[84].

المتنى تابعت السلطات التركية تطورات الاحداث واخذت تحصي خطوات الشيخ واحدة واحدة وازعجها كثيراً تقرب الشيخ من الأرمن والاشوريين. فعمدت الى تشويه حقيقة مايحصل كأن انتهزت مناسبة الحريق الذي شب في سوق مدينة (بدليس) وفيه اكثرية دكاكين تعود لباعة من الارمن فاتهمت به اتباع الشيخ. وعاد الشيخ الى (باشقله) في طريقه الى مسقط رأسه الا ان قائمقامها منعه من المرور عبرها وبعث بقوةٍ لتحول بينه وبين ذلك وحصل اشتباك، آثرت القوة التركية بعده الانسحاب، وقُدِّر عدد من انضم الى الشيخ بخمسة آلاف[85] وخرج زعماء القبائل لاستقباله وهو في طريقه حتى قريته (ناوچيا).

وقامت قيامة الحكومة الفارسية وبادرت الى تعزيز المخافر وحشد القوات على الحدود. وشخص (امير نظام) الى سلماس للاشراف على التدابير وتفقد القوات هناك واصدر بياناً في شهر آب يهدد اولئك الذين قد يختارون الالتحاق بالشيخ، وينذرهم بشديد العقاب[86] وبدأت السلطة في اورميه بترميم سور المدينة بمزيد من العجلة[87] في الوقت الذي جردت قوات تركية كبيرة وارسلت الى منطقة (وان) منها ابرع كتائب مشاة، و 14 مدفعاً من ارضروم وارزنجان ثم اندفعت 15 كتيبة تركية الى حكاري بقيادة الفريق موسى باشا. وعانى السكان المحليون من هذه القوات اثناء مسيرتها ما ارهقهم، وكتب مراسل صحافي من ارضروم في هذا:

81- الارشيف الرئيس لسياسة روسيا الخارجية 1- 9. قسم 8 جزء 54. ورقة 13.

82- مشاك العدد 163 للسنة 1882.

83- كذا - العدد. 189 للسنة 1882.

84- مشاك العدد 189

85- كذا العدد 229 الجريدة الرسمية. العدد 239 للسنة 1882.

86- مشاك. العدد 196 للسنة 1882 .

87- ارشيف سياسة روسيا الخارجية (المصدر السالف) 1882 - 1883.

«الودّ مفقود بين الاهالي وبين الجنود في هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية. ولم يكن هناك اي امل في كسب عطف السكان لسوء سلوكهم. فقد فرض عليهم اطعام القوات وايواؤها. والمساكين لايملكون حتى حذاء ينتعلونه. ان هؤلاء الجنود عبء ثقيل عليهم[88].

ولم يكن الشيخ يملك القوة الكافية لمواجهة الجيش التركي فلجأ الى اسلوب المطايبة واعلن انه لن يقدم على اي مغامرة عسكرية وان ذهنه منصرف الآن الى الاحتفال بزواج ابنه لكنه كان في الوقت نفسه منشغلاً بالتهيئة لنزال جديد. وبعثت الحكومة بموفدها (يوسف بك) لاقناعه بالاخلاد الى السكينة فلم يظفر منه بطائل، فعادت وارسلت (كامل بك) احد امناء سر السلطان ليعرض عليه الانتقال الى مدينة في الحجاز والعيش على نفقة الدولة هناك ووعده بمرتب شهري قدره 150 ليرة ذهبية مع امتيازات اخرى[89] فرفض وتحصن في قلعة (اورهمار)، فالقى الجيش التركي عليها الحصار[90] استسلم الشيخ دون قتال حقنا للدماء واعلن رغبته في سكنى مدينة الموصل. فوافقت الحكومة، الا انه لم يخرج من القلعة الى منفاه وتعلل باعذار. فبدأ (موسى باشا) بضرب القلعة بالمدافع وبعد حصار دام 18 يوماً وساعتين لم يخفت فيها هزيم المدافع استسلم الشيخ وهدمت القلعة التي كانت مناعتها حديث الصحف الاوروبية عند بنائها[91].

وارسل الشيخ الى الموصل. بحراسة اربع كتائب من الفرسان وأُلحقت بها من (كهوەر) في نهاية تشرين الاول كتيبتا مشاة بقيادة مصطفى باشا. لمسك الطريق المؤدية الى (نهري) من (اورهمار). ثم عززت بكتيبتين اخريين. وفي عين الوقت أُخذُ (محمد صديق) ابن الشيخ رهينةً الى استنبول «وكل ذلك خشية ان يقوم (عبدالقادر) بمحاولة انقاذ ابيه. واعلن الشيخ ابنه هذا خلفاً له، فصار الآن يقود القوات الكردية بدل ابيه ولايدين بالطاعة للحكومة»[92].

ولم يقع اختيار الموصل منفى للشيخ موقع رضى السلطات الفارسية فهذه الولاية ذات الاكثرية الكردية تدين بالولاء للشيخ وهو يتمتع بنفوذ كبير فيها فاوعزت الى سفيرها في استنبول بالاحتجاج على هذا والطلب باسم الشاه نفي الشيخ الى مكان يبعد كثيراً عن الحدود الفارسية[93].

واكد السلطان للسفير (محسن خان) ان تلبية هذا الطلب لم يعد صعباً وقد تقرر ان يكون منفاه في جزيرة العرب. قال له:

«اني لادرك مخاوف الشاه. وهوفي مثل هدفه وهو اشاعة الهدوء على الحدود. والاضطرابات محتملة في كل وقت وأنا لاارضى بها مطلقاً. سيبقى ابنه الاكبر لدينا رهينة وسنحقق مطلبكم ونصل

88- الجريدة الرسمية المصدر السالف، العدد 239

89- الارشيف الحربي التاريخي للحكومة المركزية.

90- الارشيف الرسمي لسياسة روسيا الخارجية 1882 - 1883.

91- مشاك. العدد 244. للسنة 1882.

92- ارشيف سياسة روسيا الخارجية الرئيس.

93- عين المصدر.

الى هدفنا من دون اراقة دماء»[94].

ورأى وزير الخارجية الفارسية ان احتجاز (محمد صديق) لاقيمة له. والافضل هو القاء القبض على عبدالقادر فهو أقرب الى والده اهدافاً وغاية.

ولم يكن وزير الخارجية مبالغاً. ففي شهر تشرين الثاني هاجم عبدالقادر قوة تركية صغيرة بالقرب من قرية (كەپتان)[95] كانت بحراسة والدهُ الى منفاه في الموصل، وتمكن من انقاذه. وعندها طلب (كامل بك) رئيس القوة النجدة من والي بغداد والموصل معا..

وتقدمت الكتائب الاربع المرابطة في (نهري) نحو القرية بقيادة العقيد حسين بك. وفي ممر (كرد بوغاز) الجبلي نشبت معركة مع القوة الكردية ومنيت بالهزيمة وتمّ القاء[96] القبض على الشيخ وابنه داخل القرية في 12 من تشرين الثاني بعد مقاومة دامت ست ساعات وجيء بالشيخ الى الموصل. ثم نقل بعد فترة الى مكة هو وابنه[97]

وهدأت الحال. واسرع زعماء القبائل باعلان الطاعة.

***

انتفاضة الشيخ عبيدالله بأبعادها الكبيرة لم تكن مفاجأة لكل من تركيا وفارس وحدهما، بل كانت كذلك لروسيا وانكلترا وغيرهما من الدول. وقد فسّرت الاوساط الحكومية في هذه الدول اسباب قيام الانتفاضة بأنها بتحريض خارجي.

كانت الجرائد التركية والانكليزية تميل الى الاعتقاد بان الروس وراءها في حين رأتها الصحافة الروسية والارمنية والفارسية بأنها من تدبير تركيا وانكلترا.

وفي مقالة نشرتها جريدة الديلي تلغراف بعنوان "لماذا ثار الكرد؟" دافعت عن سياسة انكلترا الاستعمارية في الشرق الاوسط. ورأت ان التقارب الذي حصل بين روسيا وفارس اثناء قيام الانتفاضة قد اقلق بريطانيا الى اقصى حد، فروسيا هي سبب قيامها ولطالما كانت تبحث عن ذريعة للتدخل في شؤون فارس واحتلال رقعة جديدة منها[98].

وحذّر الانكليز الشاه بوصفهم اصدقاء اوفياء، من نوايا روسيا وان على فارس الاعتماد على تركيا وعدم التوجه الى الروس بطلب المساعدة لئلا يستخدموا ذلك ذريعة للتدخل.

وشاركت (وقت) التركية الجريدة الانكليزية في هذا الرأي. ونشرت في عدد منها ان روسيا قدمت

94- الارشيف الحربي - التاريخي للحكومة المركزية.

95- تبعد القرية مسافة تتراوح بين 60 و 70 كيلومتراً عن مدينة راوندوز.

96- الارشيف الرئيس لسياسة روسيا الخارجية 1882 - 1883.

97- إسلام انسكلوبيديي (دائرة المعارف الاسلامية. اسلام عالمي تاريخ، جغرافية، اثنوغرافية وبيولوجي لغتي.68 چوز.1955. استنبول ص 106.

98- وقت: العدد 1858 السنة 1880.

مساعدة مالية للكرد وامدتهم بالسلاح[99].

وايدت روسيا الرأي السائد في فارس، بأن لبريطانيا ضلعاً. ونشرت جريدة (ققفاس) رسالة واردة من ايران يعزو كاتبها نجاح الكرد الى تأييد بريطانيا:

«بفضل مكائد الانكليز تمكن الشيخ عبيدالله من اثارة كرد فارس. وكان القنصل البريطاني في اورميه على صلة دائمة به يقدم له المساعدة المادية والمواد الغذائية بحجة بسط هذا الوحش حمايته على الأرمن التاعسين والبروتستانت»[100].

وتنفي الوثائق البريطانية ذلك وتؤكد بطلان الادعاء ففيها بعكس ذلك من الوقائع مايدل على معاداة بريطانية للحركة.

ونسبت الصحافة الارمنية لتركيا دوراً غير قليل في تنظيم الحركة، ولم يكن من الصعب فهم ذلك، لأن السلطة التركية كانت تؤلب الكرد على الارمن دائماً.

على ان اقرب التفاسير لطبيعة الحركة الى الصحة - من بين المصادر والدراسات التي رجعنا اليها هو ماجاء في مقالة "الكرد والفرس" المنشورة في جريدة "انكولسكي"[101] فقد اعتبرتها حركة قومية تهدف الى الوحدة والاستقلال وان مادعا اليها هو احوال الشعب الكردي البائسة كما كانت ايضاً نتيجةً لتعسف الطبقة المحافظة الفارسية، فثار الكرد واقتحموا الحدود الفارسية[102]. مما يدعو الى العجب ان كاتب المقالة لاينظر الى الحركة مثلما اعتاد الآخرون النظر اليها باعتبارها شبيهة بما هو مألوف من الحركات المعادية للشعوب غير الاسلامية. فالكرد هم الآن منحة الزمن وروح العصر[103].

وبهذه الصفات التي خلعها الكاتب على الحركة، يبدو أن ماتمخضت به البلقان وغيرها من الشعوب من الحركات القومية كانت تحتل مخيلته. ويتابع الكاتب قوله: لم يثر الكرد بتحريض من الشيخ عبيدالله ولا من اجل الغنائم والاسلاب بل كانت ثورتهم نتيجة لتسرّب المبادىء والافكار القومية في هذه البقعة المنسية من آسيا. ولهذا فلا بد ان يتردد صدى المسألة الكردية في ارجاء العالم الدبلوماسي بوصفها حدثاً هاماً من احداث الشرق الاوسط[104].

ويعتبر الكاتب الشيخ عبيدالله قائداً شعبياً سعى بوعي قومي ناضج الى توحيد الكرد كافةً في فارس وتركيا في امة واحدة ودولة قومية واحدة بزعامته:

99- المصدر نفسه العدد 1868 السنة 1880.

100- ققفاس العدد 284 للسنة 1880.

101- انكولسكي: العدد 44. ص 720- للسنة 1880.

102- المصدر عينه.

103- جاءت جريدة (ققفاس) بعين الرأي فقد كتب صاحب مقالة "التدخل في فارس" كان للشيخ اغراض أخرى من حركته وليس مجرد غزو». [العدد 317 للسنة 1880].

104- انكولسكي، المصدر السابق ص 722.

«بلغ هذا الزعيم الكردي... بقواه العسكرية الرئيسية الضفة الشرقية لبحيرة أورمية الامر الذي يدل على براعة ستراتيجية لقائد كان هدفه الاوحد في حياته الاخذ بيد شعبه في ارتقاء سلم الحضارة والحرية المادية والمعنوية وعلى أسس جديدة، انه يقود الحركة القومية بشكل عقلاني وحنكة. لقد عرف الاكراد بالهمجية وكثرة الاعتداء على الشعوب غير الاسلامية. اما الآن فهم لايكتفون بالعطف على المسيحيين بل نجدهم يهتمون بأمنهم وينشدون صداقتهم وانه لشاهد على الانقلاب الرائع الذي حققه الشيخ في هذا الشعب. وكما يدل كذلك على مبلغ رغبتهم في كسب عطف اوروبا المسيحية وفي اسوء الاحوال العمل على تحييد الدول العظمى في كفاحهم إن قصروا عن الحصول على دعمها لهم[105]
لقد منيت انتفاضة العام 1880 بالفشل وبها بلغ نضال الشعب الكردي المتواصل اوجه في سبيل حريته وخلاصه من التبعية التركية والفارسية في إبان مرحلة التدخل الاوروبي في شؤون الشرق الاوسط تدخلا فعّالاً.

ومن اسباب قيام الكرد، الازمة الاقتصادية التي امسكت بخناق منطقة واسعة من كردستان بسبب الفقر الاقتصادي التركي والفارسي. واستغلال الفلاحين وتحميلهم اعباء ضرائب فادحة. فضلاً عن هزيمة العام 1878. وكل هذا ادى الى افلاس الفلاح وعجزه التام عن تدابير امور عيشه وستر خلته. وفي رسالة كتبها مجهول من تبريز، ذكر أن ثورة الكرد في بلاد فارس، دليل على خوفهم من مجاعة ثانية قد يكون فيها القضاء عليها، كتلك التي عاناها قبلاً[106].

يعزى سبب فشل هذه الحركة الى الفوضى وافتقارها الى التنظيم، وفيها كان للعداوات بين القبائل المنضمة دور رئيس، خصومات لم يفلح الشيخ في معالجتها رغم كل ماتمتع به من مهابة ونفوذ.

بعد الفشل الاول انحل الحلف الكردي الذي اقسم على الولاء والاخلاص للمبادىء التي آمن بها الشيخ وعمل لأجلها. ولم يكن هناك برنامج محدد، ولا اساس واضح يقام عليه بناء مستقبلي. فضلاً عن تعذر فهم المنطق القبلي المحدود لطبيعة الاهداف. وقد كتب مراسل صحيفة انكولسكي في هذا الصدد:

«كان باستطاعة هذه الثورة ان تمزق بلاد فارس تمزيقاً لو ساد الوفاق بين الزعماء الكرد»[107].

تمكنت السلطة التركية والفارسية من استغلال ضيق الافق الطبقي عند الكثير من زعماء الكرد، والافادة من خصوماتهم واحترابهم الداخلي. في المرحلة التي سبقت الثورة وفي اثنائها.

ولايقل عن هذه الاسباب اهمية فقدان التعاون بين الكرد وبين الارمن والاشوريين. فبسبب الموقف العدائي الذي اتخذته الحكومتان الروسية والانكليزية بدت الثورة في أعين الكثير من الآشوريين والأرمن حركة مريبة لافائدة لهم فيها. وفي الوقت عينه قامت الحكومة التركية بدور كبير في نزع

105- المصدر نفسه.

106- مشاك العدد 190 للسنة 1880.

107- انكولسكي العدد 44.ص 720، للسنة 1880 .

الثقة بين الاطراف المسيحية وبين الكرد، لأنها كانت تخشى دوماً من وحدة قصد تجمع بين الشعوب التي تحكمها.

ولم تلق الحركة اي دعم او عطف من اية دولة اوروبية. بل ان انگلترا كانت مهتمة بنوع خاص في القضاء على اية محاولة تحرر كردية. لأنها كانت تدعم وحدة الامبراطورية العثمانية. ولقد انتهزت فرصتها بقيام الثورة لتقوية مركزها عند الدولتين الفارسية والتركية. كلاً على حدة، وعلى حساب تشجيع حالة الجفاء بين الدولتين، اي بقطع كل شكل من اشكال الروابط بين اكراد تركيا وفارس عن طريق تحكيم وتحصين الحدود.

دیڤید مَكْداوِلْ

David Mc Dowell

قيام الشيخ عبيدالله النهري

مستل من كتابه تاريخ الكرد الحديث باللغة الانكليزية. صدر في العام 1996- بكل من لندن ونيويورك. وقد اتينا الى التعريف بالمؤلف في مقدمة الكتاب فلتراجع.

1- عهد ظهور الشيوخ الروحانيين.
2- الشيخ عبيدالله النهري.

- I -

عهد ظهور الشيوخ الروحانيين

الفراغ الذي ساد المجتمع القبائلي (بالقضاء على الامارات الكردية شبه المستقلة) احدث أزمة في مسألة فضّ النزاع بين أسرة وأسرة، وقبيلة وأخرى. بل بين اعضاء الاسرة الواحدة أو افراد القبيلة أنفسهم. فالامراء الأقدمون والرؤساء الاعلون كان بوسعهم التدخل بمثابة محكمين ووسطاء، لأنهم قلما يكونون اقرباء تصلهم بالاتحاد القبلي صلة رحم - باستثناء الاسرة الخاصة باضيق اطار وكانوا يملكون تلك السلطة التنفيذية التي تمكنهم من فرض احكامهم وان لم تكن تلك الاحكام حيادية دائماً.

كل هذا ماعاد له وجود.

وبات مقدراً ان يحل الشيوخ الروحانيون كلهم في فض تلكم النزاعات بمثابة وسطاء ومحكمين وكعامل توحيد في الوقت عينه.

كان الشيوخ الذين ينتسبون لواحدة من الطرق الصوفية موضع احترام ونفوذ في قبائل التركمان والكرد عدة قرون. ويعود نشوء هذه الطرق وظهور الأخويات الصوفية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر لامثال [الشيخ صفيّ الدين] رأس الاسرة الحاكمة الصفوية. وربما كان هو بالذات كردياً. وقد أضت طريقته المعين الذي امتاز منه القزلباش ممارساتهم وشعائرهم.

طريقة أخرى هامة ظهرت في نهاية القرن الرابع عشر هي الطريقة النقشبندية التي تعاظم امرها ونبه ذكرها بصورة خاصة في دياربكر في القرن السابع عشر.

كانت السلطة تنظر الى هذه الطرائق نظرة ارتياب وبشيء من القضرة بسبب استقلالها عن كلّ اجهزة الدولة الاسلامية المقررة وبممارساتها الغريبة الشاذة ان لم تكن بمعتقداتها. فهي والحالة هذه مكامن فتنة، وعامل اثارة شغب. والخوف كان مركزاً بصورة خاصة في حدود الامبراطورية العثمانية الشرقية، حيث حققت حركة القزلباش تلاحماً بالغ الخطورة مع البكتاشية. كان الكثير من القزلباش من معتنقي الطريقة البكتاشية، او من اولئك الذين انتظموا تحت لوائها وعلى المذهب الشيعي المتطرف الى الحد الذي كاد معه تُنكر عليه اسلاميته. وكان للبكتاشية بعض روابط بالنقشبندية. والواقع هو ان (حاجي بكتاش) مؤسس الطريقة - وهو من صوفية شمال شرق ايران في القرن الثالث عشر - كان بالذات من تبعة الطريقة النقشبندية حيناً. ومع وجود هذه الرابطة المبهمة فان النقشبندية كانت تدعو الى التمسك بمبادىء اهل السنّة سيما بخصوص تأكيدها على تمسكها بأصول الشريعة. ولقد وجدنا العديد من العلماء، ورجال الفكر والمعرفة وعلية القوم في القرن السابع عشر إما من اتباع

الطريقة النقشبندية او الطريقة الاخرى المعروفة بالخلوتية. وقد شقت الاولى لها طريقاً الى قصر السلطان. والواقع ان النقشبندية نهضت (أو مازالت تنهض) بدور كبير الاهمية في حياة تركيا الدينية منذ القرن الخامس عشر. على ان نشاطها وفعالياتها مع هذا كانت موضع رقابة دقيقة[1].

مع هذا (فالقادرية) كانت الطريقة الشائعة الغالبة في كردستان عند بداية القرن التاسع عشر. وهي الطريقة التي أنشأها الولي والصوفي الشهير عبدالقادر الجيلاني (الجيلي). وبمجيء العام 1880 كان في كردستان اسرتا شيوخ قادرية. اسرة (البرزنجة) وهذا اسم قرية قريبة من مدينة السليمانية. واسرة سادة (النهري) في حكاري التي تدعّي انحدارها من صلب عبدالقادر الجيلي. وكلاهما يدعي نسبه الى العترة النبوية. ويجاهد كل منهما لوصول اعضائها الى مرتبة المشيخية من خلال الطريقة القادرية لضمان سيادة وراثية وسلطة على الاتباع[2]. وكان مقدراً ان تنتظم شبكة من الاتباع والمريدين قائمة على هاتين الاسرتين لتشمل معظم ارجاء كردستان. الاّ انها كانت وقتذاك في دور هجعة وسبات على الاغلب.

إلا ان طريقة جديدة اخرجت شطَنَها من الفرع المجدديّ للطريقة النقشبندية سرعان ماتقدمت على القادرية في كردستان واكتسحت معاقلها. والقائم بهذه الحركة النقشبندية الجديدة هو الشيخ خالد أو (مولانا خالد). وهو من قبيلة الجاف المولود في حدود 1770؟ في مقاطعة شهرزور. ويبدو أنه تلقى دروسه على كلّ من الاسرتين القادريتين[3] قبل رحيله الى دمشق في طريقه لاداء فريضة الحج في العام 1805.

رحل الشيخ خالد الى الهند في 1810 لمصاحبة شيخ نقشبندي مجددي معيّن. ومن الواضح ان هذه الصحبة خلفت فيه اثراً عميقاً. وعاد الى السليمانية في العام التالي وسرعان ما التف حوله اتباع كثار الى الحد الذي اثار سخط البرزنجه وغيرهم من القادرية عليه.

ومن بين اعظم مزاعمه إثارة هو ادعاؤه معرفة الغيب، والمقدرة على تجنيب الشر والاذى. والاتصال بالارواح. وبها كسف شمس القوى التي كان سادة البرزنجة يدعونها وقفاً عليهم. أما بالمستوى الاكثر واقعية، فلابد وان النفوذ الذي حظي به عند الامراء البابانيين هدد مركز آل البرزنجة تهديداً مباشراً، وبلغ التوتر الحد الذي حمل الشيخ خالد على اخلاء الميدان بالرحيل الى بغداد.

في العام 1820 دعا محمود باشا بابان الشيخ خالد الى السليمانية ومن المحتمل ان ذلك كان

1- نوهنا في السابق كيف ان (شرف خان البدليسي) ربما كان يدين بنفوذه الى مكانة والده الرفيعة. ان الخطر الكبير الذي كان يمثله الزعماء الروحانيون للسلطة بلغ درجة ان حمل السلطان مراد الرابع على اعدام الشيخ (محمد الاورميي) احد مرشدي النقشبندية في كردستان خشية قيام حركة تمرد جماهيرية [راجع ڤان بروينسن: دياربكر. ص 52.]

2- الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو اسرة الشيوخ الطالبانية الذين لم يدّعوا بانحدارهم من العترة النبوية.

3- علينا ان نلتزم جانب الحذر في التسليم بمقولة وجود مولانا خالد في حمى آل برزنجه بسبب الخصومة الشديدة بينهم وبين الجاف آنذاك. ومهما يكن من امر فالثابت ان مولانا خالد رُشّح للطريقة القادرية الا انه لم يسلكها فعلاً.

بايعاز او تشجيع مقصود من السلطات العثمانية. فالنقشبندية على الضد من خصومها الطرق الاخرى كانت وقتذاك تنعم بعطف خاص من الاوساط العثمانية الرسمية بسبب تمسكها الشديد بالأصول الشرعية على المذهب السني[4]. فقد كانت السلطة تأمل في تقوية الشعور السنيّ في السليمانية وابعاد امراء البابان عن المغازلات المتواصلة العنيدة مع شيعة ايران. على ان اقامة مولانا خالد في السليمانية لم تطل، فقد بارحها فجأة في ظروف يلفها ضباب الغموض على مايبدو ولم يعد اليها وقضى بقية حياته في دمشق (توفي في 1827). ومن هذه المدينة اتسعت دائرة نفوذه لتشمل كل سورية ومايليها.

إلا ان الشكل الخالدي من الطريقة النقشبندية اكتسح كردستان وسرى فيها كما تسري النار في الهشيم، لتسلب بسرعة خاطفة من القادرية مواقعها. كانت الطريقة القادرية مقبولة وحسنة وهي سيدة الميدان لامنافس لها. لكن كان بمقدور مريدي الشيخ خالد ان يغدوا خلفاء ومرشدين وكان بوسعهم تسليم الطريقة الى خلفاء من بعدهم يضعونهم على الطريق ويختارونهم ولهؤلاء الخلفاء ان يسمّوا ويعينوا (خلفاءهم) بدورهم لمن يطمح الى المشيخة.

من الواضح ان المجددية النقشبندية كانت لكل عالم ديني اكثر جاذبية من غيرها لأنها تتيح له المجال ليغدو شيخاً له مدرسة مريديه وشبكة تتسع لنفوذه. وفي الواقع ان عدداً كبيراً من القادرية تحول الى النقشبندية الجديدة ومنهم معلم الشيخ خالد القديم (الشيخ عبدالله النهري).

لدينا شواهد من تاريخ متقدم عن دور شيوخ النقشبندية الذين بدأوا يمثلونه في فضّ الخلافات وحسم المشاكل على الصعيد السياسي. فضلاً عن المقام الرفيع الذي احتلوه. ففي العام 1820 وجدنا الشيخ خالد وسيطاً ومحكماً بين الزعماء البابانيين بخصوص المساعي والدسائس الايرانية ربما بتشجيع من الدولة العثمانية.

بعد انتقال الشيخ خالد الى دمشق ثبتت أسر مشيخية (مرشدية) للطرق الصوفية. كلاعبات مركزيات في عالم السياسة بكردستان وهي: الاسرة البارزانية. وأسرة سادة نهري. وكلاهما نقشبندي وكأسرة البرزنجة التي استعادت نفوذها في السليمانية بوراثتها مركز امراء بابان - وهي قادرية[5].

يرى [مارتن ڤان بروينسن Martin Van Bruiessen] وهو حجّة كبرى اوروبية في شؤون المجتمع الكردي. ان الاسر الدينية المشيخية كانت تحتل المقام الارفع من الاهمية في تلك المناطق بكردستان حيث عدد القبائل اكثر من غيرها، وحيث تكون اكثر عرضة لنشوب النزاعات والثأرات. فترى هذه الاسر تتدخل في اصول الخصام لتبدو وساطتها البارعة امراً لاغنى عنه. وهي بالمقابل اقل نفوذاً في الانحاء التي مازالت فتحتلها قبائل قوية منيعة الجانب كقبائل الجاف، أو في امكنة غير قبائلية

4- عندما لوحقت البكتاشية في العام 1826 نزعت منهم تكاياهم ومدارسهم وسلمت لأصحاب الطريقة النقشبندية.

5- هناك آخرون لايقلون عنهم مقاماً واحتراماً لكن باتباع ومريدين أقل كشيوخ القادرية البريفكان وشيوخ بامرني النقشبندية.

اصلاً، كالبلاد المحيطة بديار بكر. حيث النزاع القبلي لااثر له أو انه نادر الوقوع لايدعو الى وساطة.

لايقنع هؤلاء الشيوخ بمجرد حث رؤوساء العشائر على اطلاب خبراتهم في الوساطة. بل يعملون جاهدين على خطب ود الكرد البسطاء المعدمين لاسيما اولئك الذين يقفون في اسفل درجات السلم من المجتمع الطبقي، كالفلاحين غير القبائليين الخاضعين لزعماء القبائل.

واليك مثالاً: البارزانيون في نظر بعضهم ليسوا قبيلة بمعنى الكلمة الدقيق ابداً. فان افرادها- وبصرف النظر عن الاسرة المشيخية بالذات - هم في الغالب من الفلاحين الذين فصلوا انفسهم عن القبيلة الزيبارية وغيرها من القبائل المجاورة. فالرباط هنا هو رباط روحي - محلي. لا رباط قرابة أو انتماء لأصل واحد. الشيوخ البارزانيون شيدوا بناءَ حَدْبٍ ورعايةٍ وحققوا تلاحماً بين الجماعات المتكاثرة من اللاجئين هرباً من النظام العشائري.

وزجَ هؤلاء الشيوخ أنفسهم في حلبة النفوذ. فافادوا من سلطة زعماء القبائل السابقين المتدنية عن طريق المصاهرة. وبهذا ثبتوا اسس سلطتهم السياسية المتعاظمة. وقد ناسبت هذه العملية كلاً من الشيخ والرئيس القبائلي. إذ نالت السلطة المضمحلة لهذا الاخير الحماية الضرورية من تحالفها مع المكانة الدينية.

واستخدمت الغيرة على الدين سلاحاً سياسياً.

في العام 1843 علمنا بان الشيخ (طه النهري) وهو ابن اخ الشيخ (عبدالله) وخليفته، قد ساهم بقسط في اثارة المخاوف الاسلامية من التهديد المسيحيّ. وشجع فعلاً (بدرخان) على مهاجمة النساطرة الآشوريين. وربما كان الدافع له مزدوجاً: الخوف من تجاوز البعثات التبشيرية الاوروبية حدودها من جهة، والكره الشديد للمسيحيين النساطرة المقاتلين الأشداء الذين كانوا خصوماً لامير حكاري الأعلى من جهة أخرى.

على ان التعصب الديني لم يكن قاصراً على المسيحيين. يروي لايارد 1848[6] انه التقى بمحض صدفة شيخاً اشتهر بكرهه الشديد لليزيدية- واحد من اولئك المتعصبين المتشددين الدينيين الذين هم لعنة كردستان. هذا الاتجاه كان يتفق تماماً مع حضّ الشيخ مريديه وتحريضهم. فالى جانب ايصائهم بالتمسك التام باحكام السنّة كان يشير على اتباعه بان ينهوا صلاتهم بالدعاء الى الله ليهلك اليهود والمسيحيين والمجوس وشيعة ايران[7] بعد سقوط الامارة البوطانية، لجأ (الشيخ طه النهري) الى

6- لايارد [الكشوف.. ج 1 ص 38]. سبق واوردنا نبذة عن هذا المنقب والدبلوماسي الانكليزي في ترجمة الجزء الاول من هذا الباب فلتراجع.

7- بطرس ابو منه: المجددية النقشبندية في بلاد آل عثمان في مفتتح القرن التاسع عشر. منشور في "العالم الاسلامي" المجلد 22. السنة 1982. ص15.

Butus Abu Manneh: the Nagshbandiyya, Mujaddiyya in the Otoman Land in Early 19th Century (Die Welt des Islam) (قلنا): الكاتب المنقول عنه هنا واسمه يدل على انتمائه الديني انما ينقل مجرد اشاعات كثيرة ينشرها خصوم الطريقة بين العامة فيتداولونها لتغدو حقيقة. والرواية ظاهرة التلفيق وهي من تلك التهم=

(موسى بك شمدينان) وهو واحد من بقايا الزعماء القبائليين. وسرعان مابدا وكأنه الشخصية المهيمنة الطاغية على نفوذ الزعيم القبائلي وبالفعل - عندما خلف الشيخ عبيدالله اباه السيد طه- في وقت ما من 1860 و 1870- كان سادة نهري يحكمون شمدينان عملاً وامتد نفوذهم ليشمل سائر ماعرف في الماضي بامارات البوتان وبهدينان وحكاري بل حتى اردلان.

= التي كانت تلصق بالنقشبندية وغيرها من الطرق سابقاً ولاحقاً لاسيما بزعمائهم ومرشديهم. فما كان من تمسك النقشبندية باصول الدين الحنيف واحكام القرآن التي تعتبر المسيحيين واليهود والمجوس من اهل الكتاب (اهل الذمة) يتنافى مطلقاً مع الدعاء من الله بمحقهم وازالتهم.

-2-

الشيخ عبيدالله النهري

في نظر الكثيرين يظلّ الشيخ عبيدالله نهري اول زعيم قومي كردي عظيم. إلا أن الدلائل قد لاترقى بنا الى مرتبة الجزم بهذا..

في العام 1880 غزا الشيخ ايران مدّعياً انه يعمل باسم الأمة الكردية وبعث برسالة الى [وليم آبوت] القنصل البريطاني في تبريز مبرراً فيها حركته:

«الامة الكردية... امة مختلفة، دينها مختلف (عن دين الآخريات) وشرائعها وعاداتها تفترق... زعماء وحكام كردستان سواء اهم من رعايا ايران أو من رعايا تركيا، وسكان كردستان بأسرها متحدون ومتفقون على أن الاحوال لايمكن ان تستمر بهذا الشكل بحكومتين (آل عثمان والاسرة القاجارية) وانه من الواجب أن يعمل شيء في هذا الصدد حتى ان الحكومات الاوروبية بعد ان تدرك الحقائق ستقوم بالتحقيق حول اوضاعنا، نحن أيضاً شعب مختلف ونريد ان تكون امورنا بيدنا[8].

أخذ الدپلوماسيون البريطانيون في كل من ايران وتركيا كلامه مأخذاً جديا[9] وربما كان موقف القاجار من ذلك مماثلاً، ومع هذا وبصرف النظر عن هذا الادعاء، فالثورة التي تزعمها الشيخ لم تكن في حينه تعطي دلائل كثيرة على هذا. فقد بدت لااكثر من انتفاضة قبائلية من قبيل ما ابتليت به هذه المنطقة إلا انها كانت على نطاق واسع جداً يفوق العادة.

بل كانت على درجة كبيرة من الخطورة والاهمية. فبغض النظر على الاضرار التي انزلتها بالمنطقة - اثارت ولاول مرة في التاريخ الكردي دلالات واشارات مبهمة لكلمة القومية التي اكتنفت الثورات الكردية التالية.

بدأت الثورة في ايلول العام 1880. واشعل فتيلها عبدالقادر ابن الشيخ. وكان وقتذاك في ايران يمثل والده في تلك القرى الواقعة على الحدود التي دانت بالولاء لسادة النهري. وبسبب هذه الصفة ولاختيار حاكم اورمية اياه وسيطاً محكماً ومسؤولاً عن هدوء وسكينة القبائل المحليّة. ويبدو ان السبب المباشر لاعلان الثورة هو العقوبات الوحشية التي انزلتها السلطات المحلية بعدد من زعماء

8- الاوراق الپرلمانية Parliamantary Papers (تركيا - رقم 5 للسنة 1881. وهي مراسلات بخصوص الغزو الكردي ايران. رسالة موجهة من الشيخ الى الدكتور كوچران مؤرخة في 5 تشرين الاول 1880. ضمن تقرير صادر من آبوت الى تومسن: اورميه في 7 تشرين الاول 1880.

9- «بدون شبهة يبدو... ان هدفه هو قطع صلة الولاء لكل السكان الكرد بتركيا وفارس... وأن ينشيء امارة كردية مستقلة تحت رئاسته.» [الوثائق الپرلمانية: تركيا رقم 5 {1881}. من تومسن الى گرانفيل في طهران. 31 تشرين الأول 1880. انظر ايضاً الملحق في رقم 22: من تروتر الى كوشن. طرابزون في 20 تشرين الأول 1880.

القبائل من دون استشارته[10]. كان هذا تجاهلاً خطيراً لمقام الشيخ لأن فيه القضاء على دور عبدالقادر في الوساطة وهو الدعامة التي تقوم عليه هيبة المشيخة بين القبائل.

فعنده، كان الخيار الوحيد هو قيادة هؤلاء الزعماء الساخطين في ثورة[11] وقد بدأها باحتلال بلدة صاوج بولاق (مهاباد الحالية) وبعدها طلب من سائر القبائل الكردية المرابطة جنوب (بانه) و (سقز) اعلان الانضمام اليه. فلبّى معظمهم نداءه وان شاب تلبيةً بعضهم شيء من التردد وعلى مضض، كقبيلة (مامهش).

وزحف بجيش يبلغ تعداده عشرين الفاً - شرقاً بمحاذة ساحل بحيرة اورميه الجنوبي خارج موطن الكرد. وقبل مغادرته (صاوجبلاق) سُمع كبير علماء المدينة السنّي يعلن الجهاد على الشيعة. وعندما فتك اهالي بلدة (مياندواب) برسله اليهم ورفضوا استقباله وتهيأوا لمقاومته، هاجم المدينة واقتحمها عنوةً واعمل السيف في رقاب الفين من الرجال والنساء والاطفال على ماقيل قبل ان يزحف على (مراغه).

في الوقت نفسه عبر رتل كردي آخر الحدود الى ايران من حكاري وكان بقيادة الشيخ (محمد صديق) ابن الشيخ عبيدالله الاكبر متجهاً الى الجانب الغربي من بحيرة اورمية لحماية انسحاب (عبدالقادر) اخيه، كما عبر رتل آخر بقيادة الشيخ (سعيد) خليفة الشيخ عبيدالله. وتقدم جنوباً.

من بين الذين حالفوا الشيخ وساندوه في هجومه، قبيلة التياري النسطورية[12].

وعبر الشيخ الحدود بشخصه في أواسط تشرين الاول.

بدا الشيخ عبيدالله استاذاً بارعاً في فن التضليل الإعلامي. فمن جهة ادخل في روع السلطات التركية ماجعلها تعتقد بأن لادخل له في ثورة ابنيه. وفي عين الوقت ناشد التركمان في ايران الانضمام اليه في قتاله الفرس. ونقل عنه تصريح مؤداه انه ما أن يصفي الحساب مع الفرس حتى يستدير الى تركيا. من جهة أخرى كان خليفته (سعيد) منشغلاً في نشر الإدعاء بان العثمانيين يساندون هجوم الكرد على ايران.

ادعى الشيخ عبيدالله انه يعمل على اقامة إمارة كردية مستقلة. وشرع في القضاء على عصابات قطاع الطرق التي جاءت من مختلف القبائل، وقال ان كل مايريده من الدول الاوروپية ولاسيما انكلترا هو المساندة الادبية. إلا أن تقدمه شرقاً ماوراء حدود كردستان وايقاع المذبحة بسكان (مياندواب) وتدمير مابلغ عدده ألفي قرية وتشريد عشرة آلاف من سكانها لايبدو متسقاً مع ادعائه ولايستقيم في المنطق.

وفشل الشيخ قبيل عبوره الحدود في محاولة كسب (عباس ميرزا) الأخ غير الشقيق لشاه ايران

10- من ذلك ان واحداً منهم ضرب الف سوط. كما تم اعدام عشرة من افراد القبائل.

11- فضلاً عن انضمام قبائل موكري ومنگور وزازا وتركمان قفرةپپاغ الشيعة.

12- انسحب التياري فيما بعد عندما ادركوا نوايا الشيخ الحقيقية.

المولود لام كردية – الى صفه. وكان هذا قد قضى معظم حياته في تركيا مبعداً. وتلك المحاولة كانت ترمي الى منازعة الشاه عرشه.

في عين الوقت بادر الى إخطار (آبوت)[13] بان الكرد ماعادوا بعد الآن يتحملون عبء الضرائب التي تعتصرها منهم الحكومة الايرانية، ولا الصبر على عجزها عن وقف عمليات السلب والنهب التي تتعاطاها قبيلتا الهركي والشكاك الكبيرتين.

بعبارة أخرى: قصد ان تبدو ثورته احتجاجاً على العجز الايراني وعلى عمليّات الشقاوة المحلية. اما بخصوص قبيلتي الهركي والشكاك، فيكاد يكون من المؤكد أن هدفه هو اعتزامه الدفاع عن القرى الموالية لسادة نهري وحمايتها من هذين المعتديين الخطرين المنافسين. وكان في ماmضى على اتم استعداد للدفاع عن اعمال الشقاوة التي يقدم عليها الهركي في اماكن آخرى ازاء تدخل السلطة التركية قبل سنة واحدة.

وأما عن الشكاك فانهم كانوا قد عبروا الحدود الى تركيا وسعدوا باوقات طيبة من غارات سلب ونهب وقطع طريق استجابةً لاعلانه الجهاد في العام 1877. لكن الآية انقلبت الآن، بسبب السبيل التي راح الشكاك يسلكونها في نشر سيادتهم وارهاب المنطقة التي كانت حمايته في حكاري وبرادوست وعلى كل جانبٍ من الحدود وقد بات واضحاً عجز السلطات الحكومية عن وقف تلك الإنتهاكات.

ففي حين يبدو قيام ابنه بالثورة بمثابة ردً على الوحشية الايرانية التي مارستها عقاباً للكرد الموالين للشيخ فضلا عن، والانتقام المسعور من الشيعة في (مياندواب)، بدأوكأن عبيدالله من جهته قلقاً بقدر ذلك من تهديد الشكاك الى الحّد الذي امكن معه التوفيق مع دعوى القومية الكردية.

عندما اشرف شهر تشرين الاول على نهايته لم يبق من قوات الشيخ عبيدالله العشرين الفاً التي كانت بأمرته قبل اسبوعين غير الف وخمسمائة. فقد قفل معظم أفراد القبائل عائدين الى مواطنهم وهم مثقلون بالاسلاب والغنائم.

كان الشيخ وابنه (محمد صديق) قد القيا الحصار على مدينة (اورميه) بما لايزيد عن ستة آلاف باكثر التقدير. ولعلمها بأن المقاومة الشديدة التي أبدتها المدينة كانت بسبب اقتراب نجدة قادمة، دبّ الخور في معنويات المهاجمين. كانت النجدة الايرانية تتألف من اثني عشر ألف جندي برتلين: رتل قوامه خمسة آلاف يتقدم من جهة ساحل البحيرة الغربي، والرتل الآخر من حافتها الجنوبية الشرقية. وقد تهيأ هذا الرتل لعملية انتقامية وحشية ضدّ السكان غير الشيعة قلّ نظيرها. إذ وقع الجنود ذبحاً وتقتيلاً دون تفريق بين المذنب والبريء. وعلى سبيل المثال وُجِد ان عدد ضحايا هذه القوة من النساطرة

13- التقى آبوت الشيخ عبيدالله في اثناء حصار اورميه، وعندها طلب منه حماية ترافقه حتى خروجه من منطقة الثوار. وقد كتب بذلك لمرجعه الا انه لم يكشف عما دار بينهما من حديث الأ بعد سنة واحدة (وثائق الخارجية 248 - 382) من آبوت الى گرانڤيل 1 تشرين الاول 1881.

يفوق بكثير جداً عدد من هلك بايدي المهاجمين.

عادت قوات الشيخ من حيث اتت، والقت القوات الحكومية لكلتا الدولتين القبض على اعداد كبيرة في طرفي الحدود، وقتلت كثيراً منهم.

ونزولاً عند ضغوط الحكومات الاوروبية الديلوماسية ابعد الشيخ اولاً الى استنبول ثم الى الحجاز حيث توفي في العام (1883).

بقيت آثار الدمار والمشاعر المتخلفة مما حصل في سهل اورميه الشهير باسم (حديقة ايران) سنوات عديدة. وقد ادى هذا الى فرض ضرائب اغاثة في انحاء أخرى من البلاد بغية اصلاح ماخربته الحرب في المنطقة. فقد فاق الغزو كل الاضطرابات القبائلية السابقة. وكتب في ذلك واحد من المبشرين «حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى كانت الاحداث التي تقع في المدينة تؤرخ اعتباراً من مجيء الشيخ»[14]. لوكانت الوقائع تؤيد الادعاء بقومية الثورة. فما الذي يمكن استنتاجه من اقوال الشيخ عبيدالله وتصرفاته؟ لدينا بعض دلائل من تقارير القناصل البريطانيين العامين على جانبي الحدود. فمن زيارة قام بها وليم آبوت لاورمية من مقره في تبريز، كان ماتبادر الى ذهنه انّ هدف الشيخ عبيدالله هو ان يحكم امارة كردية مستقلة بضم اجزاء كردستان في كل من ايران وتركيا معاً[15].

«قد يكون الشيخ بسبيل بسط سلطته على رقعة أوسع من مجرد إمارة كما يؤهله له نفوذه الروحي، لكن ليس من المحتمل ان ترحب به تلك القبائل التي تميل الى القادرية. بل واكثر منها [الشكاك] مصدر شكواه، دعك بالقبائل التي لاتدين له بالولاء ولاتدخل في دائرة نفوذه.

تقدم (هنري تروتر) القنصل الانكليزي العام في ارضروم برأي حاسم في موضوع ذلك الولاء للحكومة العثمانية الذي كان امراء الكرد قبل نصف قرن على استعداد للقبول به، اذ كتب في رسالة له الى سفيره يقول:

«في اعتقادي ان الشيخ يدين للسلطان العثماني بنوع من ولاء قلّ ام كثر. وهو على استعداد للخضوع له وطاعته مادام قادراً على التخلص من هيمنته واشراف الموظفين العثمانيين، وشريطة ان يعتبر الرئيس الحاكم لكردستان عملياً de Facto وقانونياً de lege[16]»

وهذا يوافق ماذهب اليه القنصل في (وان) بقوله (لتروتر) قبل سنة واحدة. ان الشيخ راغب كل الرغبة في اعلان الطاعة للسلطان مقابل الاعفاء من الضرائب[17] وهذا ماأيده الشيخ شفوياً اثناء مقابلته (آبوت) خارج اسوار اورميه. سأله آبوت هل ان...

14- ماري شد: في مقياس الرجل. نيويورك 1922 ص 45. باقتباس من (جويدة): الحركة القومية الكردية ص267 .

15- الاوراق البرلمانية تركيا رقم 5 .(1881) من آبوت الى تومسن اورمية 7 تشرين الاول 1880 ضمن رقم 61.

16- الاوراق البرلمانية. تركيا رقم 5 (1881). من آبوت الى تومسن. اورمية في 7 تشرين الاول 1880. ضمن رقم 61.

17- عين المصدر من تروتر الى كوشن. طرابزون 20 تشرين الأول 1880 ضمن تقرير كوشن الى گرانفيل. طرابزون 24 تشرين الاول 1880.

«هدفه إقامة امارة لكردستان منفصلة ومستقلة عن الباب العالي، أو أنه يرمي الى ضم الاجزاء بعضها الى بعض لغرض احلال الأمن والنظام والقضاء على الفوضى، وقيامه رئيساً للامة الكردية مسؤولاً امام السلطان عن حسن سلوكها وعن جباية الضرائب فاجاب الشيخ على هذا بقوله. ان ولاءه للسلطان ليس موضع شك. لكنه لايثق مطلقاً بالپاشاوات (يقصد الموظفين)[18]. ويبدو حين يستخدم مفاهيم القومية كما هي معروفة في اوروپا وقتذاك، فهو اكثر ميلاً الى احياء امارة ذات حكم ذاتي كتلك الامارات التي كانت موجودة قبل قيام الادارة العثمانية بتطبيق [التنظيمات][19].

الاوراق الپرلمانية رقم 4 (1880) من كلايتن الى تروتر. (وان) 10 ايلول 1879... يريد ان ينشيء امارة مستقلة من البلاد التي يسكنها الكرد تتعهد بدفع مبلغ من المال للحكومة العثمانية مساو للضرائب الحالية التي تجبى منها.

بهذا وحده لايمكن تفسير موقف حكومة استنبول. لماذا كانت متساهلة مع الشيخ عبيدالله الى هذا الحد، او فلنقل مترددة الى درجة كبيرة في نفيه بعد ذلك؟[20] علينا ان نتذكر الظروف التي اكتنفت البلاد عندما استُخْلف عبيدالله اثر وفاة عمّه. كانت فترة عمت فيها الفوضى وتدنت الحالة الاقتصادية الى اسوء درك في شرق الاناضول تجلّت في عجز العثمانيين عن تحقيق سيادة القانون وحفظ الامن فيما يتعدى حدود المدن المباشرة. فضلاً عن الزيادة المطردة في فرض الضرائب وبعضها بالاصل مرهق، ثم محاولة فرض الخدمة العسكرية الالزامية. كل ذلك ادى الى الحاق الدمار في اقليم عمته الفوضى ونخرت فيه اعمال الشقاوة وغياب حكم القانون. ومن دون سطوة مهابة لزعماء محليين اقوياء، كان بوسع اي قبيلة ان تسطو على المسافرين وتسلبهم كل ماتستطيع سلبه، وان تغير على القرى وتعبث فيها نهباً. وقد شهد عدد لايقع تحت حصر من الرحالة الاجانب القادمين الى هذه الانحاء بان اعمال الشقاوة وقطع الطرق بلغت بالحالة الاقتصادية الى شلل تام.

المبادلة التجارية على الطرق كانت عرضة للسلب، والقبيلة تحارب القبيلة، والانعكاسات التي تخلفها مشاعر العداء والبغضاء تتبادلها القرى. وفي الجوار يجد بعض الموظفين العثمانيين فرصته في الربح بالتعاون مع رؤساء العصابات والعمل معهم يداً بيد. في حين كان بعض الموظفين الحريصين الامناء يدرون جيداً بأنهم لن يتمتعوا باسناد الحكومة عند امتحان الادارة ووقوفها بحزم بوجه الزعماء

18- وزارة الخارجية 248 / 383 من آبوت الى گرانڤيل. تبريز. تشرين الاول 1881.

19- [قلنا] في الثالث من شهر تشرين الثاني 1839. اصدر السلطان عبدالمجيد الاول وهو من السلاطين المصلحين (1839 - 1861) المرسوم المعروف بـ(خطّ همايون) فور جلوسه. وقد عرف وهو المراسيم الأخرى التي الحقت به (بالتنظيمات الخيرية). او (بخط شريف كلخانه). والغرض منه تحديث تركيا واصلاح الادارة واعادة النظر في الضرائب والغاء الضرائب الزراعية وفرض التجنيد الالزامي. وضمان سلامة الرعايا وممتلكاتهم وشرفهم بقطع النظر عن قومياتهم وعقائدهم وتحقيق المساواة للجميع امام القانون الخ... آه.

20- ببداية العام 1881 لم تقدم استنبول على عمل لوقف الشيخ وكانت ايران غاضبة والشيخ يهدد بغزو ثان. ولم يقبض عليه ويرسل الى استنبول حتى حزيران 1881. الا انه هرب في ايلول 1882 وعاد الى نهري.

المحليين الاقوياء، او الشيوخ وإن استنبول لن تساندهم في اجراءاتهم. واختلال النظام مع الحرمان يزيد من ضراوة القبائل في تحركاتها بين قرى الفلاحين كرداً اكانوا أم ارمن ام خليطاً.

وبعبارة اخرى كان الشكاك والهركي. اعداء السلطان مثلما هم اعداء الشيخ عبيدالله عندما يطلق لهم الحبل على الغارب.

ثم هناك مسألة العداء المتزايد للرعايا المسيحيين. فالارمن والآشوريون كلاهما كان هدفاً. الارمن بسبب تنامي الشعور القومي فيهم، أو باعتبارهم عنصراً من عناصر التهديد الروسي فيما بعد. الاشوريون النساطرة كانوا كذلك موضع شك. ففي كل عام كان يرحل من اورميه الى روسيا خمسة آلاف منهم للعمل هناك، فضلاً عن اعداد منهم تفد الى حكاري بمثابة عمال زائرين.

وفي هذا المحيط ذي النظام المختل. اظهر الشيخ عبيدالله استعداده وبملء رغبة في مساعدة السلطان ضدّ التهديد المسيحي. وكان قد عين قائداً عاماً للقوات القبائلية الكردية إبان الحرب الروسية التركية للعام 1877 - 1878. الامر الذي اضفى عليه مركزاً وسلطاناً رسمياً اكبر بكثير مما كان يمارسه اي كردي ايام حكم الأمراء قبل نصف قرن. وكان الشيخ قد اعلن بالمناسبة حرب جهاد وبدا هذا للزعماء القبائليين بمثابة الضوء الاخضر لمهاجمة القرويين الارمن[21].

بدت نظرة الشيخ الى المسيحيين غامضة. لكن نظرته السياسية كانت اوضح. فالاهالي الارمن هم خطر جديّ على المصالح الكردية وحرب 1877 - 1878 نقلت تركيا الى برلين حيث انيط بالدول الاوروبية بنوع خاص حماية الارمن (المادة 61 من المعاهدة). وهي كما رآها المسلمون بمثابة الخطوة الأولى لإقامة دولة ارمنية مستقلة. وبالفعل بدت بريطانيا شديدة الاهتمام بالاصلاحات العثمانية، جادّة في ضمان حماية حقيقية للأرمن وغرضها ازالة التبرير تتخذه روسيا للتدخل باتخاذها الاضطهاد المتوالي الأرمني ذريعةً. وكان للضغط الاوروبي تأثيره الحتمي في المنطقة. فقد سأل الشيخ عبيدالله احد الموظفين العثمانيين: "ماهذا الذي أسمعه؟ بأن الأرمن سينشؤن لهم دولة مستقلة في (وان) وان النساطرة سيبادرون الى دفع الراية الانكليزية ويعلنون تبعيتهم لانكلترا؟[22]».

وها هنا بالتأكيد يكمن مفتاح الحل لطلبه من الانكليز الاعتراف بالكرد (كأمة قائمة بذاتها). لو كانت الهوية السياسية النسطورية الارمنية الهدف المنشود كما كان الشيخ يخشى، فسيكون قيامها في قسم من منطقة نفوذه. والقضية واضحة «إما هم وإما نحن». وبناء على هذا عمد الشيخ على مايبدو الى صب القضية الكردية في قالب القومية المدنية بالمفهوم المتعارف عليه عند الحكومات الاوروبية.

21- في العام 1878 كان لنفوذ الشيخ عبيدالله الفضل في انقاذ جمع كبير من المسيحيين الذين استهدفوا لمذبحة في (بايزيد) وقد حظي بثقة المبشرين الامريكان في (اورميه) على انه كان يعرف قبل عشرة اعوام بوصفه المدبّر اللجوج في الهجوم على الارمن والنساطرة.

22- الوثائق: تركيا رقم 5 (1881) من كلايتن الى تروتر، باشقله 11 تموز1880 ضمن محفظة رقم 7.

قد يبدو من الغرابة بمكان أن يبلغ السخاء بالسلطان الذي قام في ما مضى باخضاع الامارات الكردية عند تطبيق "التنظيمات" الى حد منح الشيخ عبيدالله هذا القدر الكبير من السلطة. لماذا لايستأصل بدل ذلك التهديد الارمني- الروسي باجراء الاصلاحات التي يريدها البريطانيون؟

ان فترة التنظيمات (1826 - 1876) كانت مجالاً للباب العالي حاول من خلاله وبصورة مطردة وضع نظام الامبراطورية على الخطوط الاوروبية. لكن لم يكن ذلك ممكناً من غير تصاعد السخط والاستياء بين مسلمي الاناضول الذين كانوا يخشون مغبة اي اصلاح موحى به من قبل الاوروبيين.

في العام 1876 نُصب (عبدالحميد الثاني) سلطاناً جديداً. ولم يكن مصلحاً - كما فهم فيما بعد - وبكل الصدى السلبي من المسلمين حول فسح السبيل للدول الاوروبية والسماح لها بنفوذ اكبر في عالمي السياسة والتجارة - وبمنح حقوق متساوية للمواطنين العثمانيين غير المسلمين- قررّ هذا السلطان الدفاع عن امبراطوريته الاسلامية لابسبيل التحرر الذي بلغه أوجه لفترة قصيرة فحسب بدستور العام 1876، بل بالمركزية المنحصرة بشخص السلطان نفسه والرجوع الى القيم الاسلامية والى العسكرية. من جهة أخرى: الموظفون العثمانيون في الولايات كانوا من التنظيمات اشبه بحصان طروادة[23] للاصلاح الاوروبي فضلاً عن قادة مجتمع من امثال عبيدالله.

كان السلطان (عبدالحميد) يشعر بأنه اكثر امناً وسلامةً مع المسلمين التقليديين. والشيخ عبيدالله بمقامه الروحي العظيم في شرق الاناضول كان اثمن نصير بوصفه قطباً من اقطاب الدفاع عن الاسلام لايمكن تجاهله رغم سلوكه السريع التحول. اذ ما ان يمنح رسمياً هذا القدر الكبير من السلطة الزمنية حتى يبدو نزعها عنه من اصعب الامور.

في العام 1879 لم تكن استنبول تشّخص الشيخ عبيدالله بمصدر خطورة محلية. وفي شهر ايلول من تلك السنة انزل قائمقام (گەورە) وهو موظف عثماني محليّ- عقاباً ببعض اتباع الشيخ من قبيلة الهركي بسبب ارتكابهم اعمال الشقاوة وقطع الطريق. لكن الشيخ لم يكن بوسعه ان يسمح لممثل الحكومة المحلي بتدمير مقامه ومنزلته، فبادر في اوائل السنة التالية الى ارسال ابنيه على رأس قوة لمهاجمة الجيش المرابط هناك. وعندما اندحرت قواتهما اعلن الشيخ براءته ووضع اللوم كلّه على ولديه ورحلهما عبر الحدود وفرض عليهما السكنى الجبرية في القرى المجاورة داخل ايران ريثما تهدأ الاوضاع. وبالنتيجة اسقطت التهمة عنه وزيد في مخصصاته الرسمية. وعزل قائمقام (گەوەر) المسيء!! والسلطان الذي لم يطل به الزمن حتى هيمن على كثير من شؤون الامبراطورية، شعر كما يبدو بأنه أسعد حالاً في التعامل مع هذا الشيخ اللغز من تعامله مع موظفيه الاصلاحيين.

والى جانب كل هذه الارهاصات المحلية كانت هناك اشاعات حول وجود مادعي بـ(العصبة

23- [قلنا] في الياذة هوميروس: عندما عجز الحلف الاغريقي عن فتح مدينة طروادة لجأ الى الحيلة، بنوا حصاناً خشبياً عظيماً مجوفاً يتسع لعدد من المقاتلين اخفوهم فيه وتظاهروا بالانسحاب وركبوا سفنهم متظاهرين بالعودة. فعمد الطرواديون الى جرّ الحصان الخشبي الى داخل المدينة. وفي هدأة الليل خرج المقاتلون الكامنون داخله وفتحوا ابواب المدينة للجيش الاغريقي المنتظر فدخلها واستولى عليها. واعتقادي هو ان التشبيه هنا واضح للقارىء.

الكردية). وهي في الظاهر جمعية قومية أسسها الشيخ بنفسه ولابد انه كان يريد بها توسيع دائرة اتباعه، ولكن وجَبَ ان تضرب على نغمتها القومية ببالغ الحذر.

ولتعقيب أمر هذه العصبة لانملك من الوسائل مايزيد قليلاً عما وجهته البطريركية الارمنية من اتهام حولها- ان كانت موجودة اصلاً - فهي لم تصدر اي تصريح ولم تقم باي نشاط بهذا العنوان. إلا ان البطريرك الأرمني ربما بسعة من حيلة ادّعى ان الباب العالي كان يرعى العصبة بهدف ازهاق انفاس القضية الارمنية.

انه لتفسير مقنع ومعقول تماماً. مشروع تمّ طبخه في استنبول وأعطي به اجازة رسمية غير معلنة لتأسيس حركة بزعامة الشيخ لمعادلة التهديد الارمني.

مادعا اليه الشيخ من قيام كردستان مستقلة فاعلة في مثل هذه البقعة المشحونة بالقلاقل من الدنيا في العام 1880 لن يكتب له حظ من البقاء كثير ولابد وان الحكومة العثمانية كانت تدرك هذا. لكن مشروع اقامة كردستان مستقلة مثل تأسيس العصبة الكردية السريعة الزوال، هي معادلة مفيدة للمطاليب القومية الارمنية في كفتّي ميزان السياسة آنذاك وخصوصاً لو تمكن الشيخ من ضمان تعاون ما للنساطرة والارمن على إشغال ثورة. ولو انهما تعاونا فسيكون من السهل جداً القضاء على الحلم الأرمني في تحقيق كيان لقوميتهم في ظلّ الحماية التي كسبوها. وأبعد احتمال، لو جاءت الى عالم الوجود امارة كردية مستقلة فعلاً، فلا مناص من أن تبقى معتمدة على السلطان.

هناك أيضاً مسألة تحكيم أسس السلطة العثمانية في التخوم الشرقية من الامبراطورية. ليس ثم شك في أن ذلك سيتحقق نوعياً بضم الاقاليم القبائلية الكردية المشرفة على سهول اذربيجان الغربية. وقد سبق للشيخ أن اقام الدليل على مدى ما يتمتع به من نفوذ على القبائل الكردية في ايران عندما لبّى بعضها دعوته الى الجهاد وانضمّ الى قواته لمحاربة الكفار في العام 1877. والباب العالي الحريص على مركزه في الشرق، ربما نظر الى هذا الغزو من خلال ضوء ستراتيجي، فبعد مرور خمسة وعشرين عاماً على هذا الغزو نجده يفيد مرة اخرى من الضعف الايراني للسيطرة على هذا الاقليم[24].

لم يكن بودّ الحكومة العثمانية ان تفصح عن هذه الرغبة او تذيعها مادام وجب عليها أن تنفي أي تشجيع لمغامرة الشيخ عبيدالله وفي حين ظلت الحيرة تتجاذب السفير البريطاني وقتذاك، فبالامكان أن نحرز ماجرى في تلك الأيام:

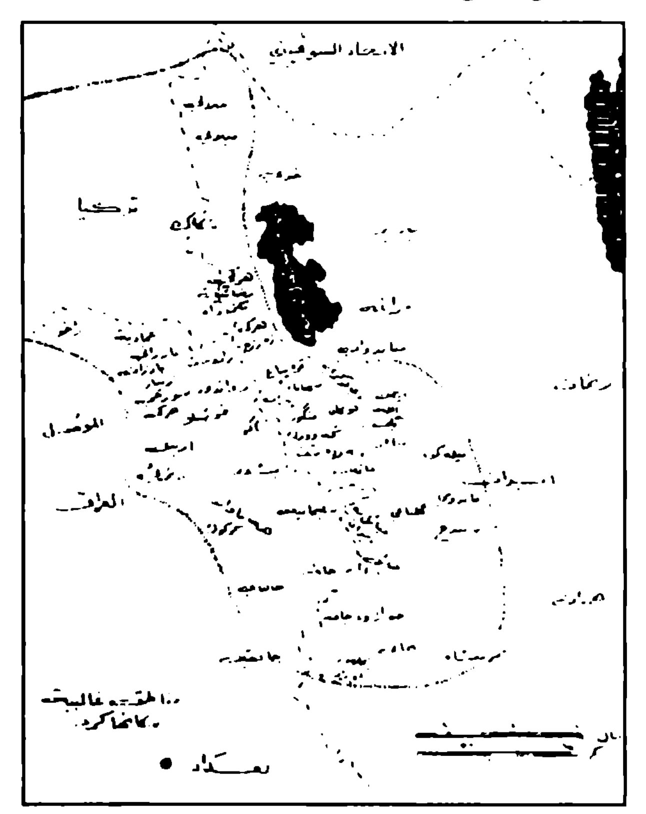
«مرة اخرى تعذّر عليّ التأكد من المدى الذي يمتد اليه اعتقاد الباب العالي في جدية نية الشيخ عبيدالله باقامة كردستان مستقلة. وانطباعي العام ان أسيم (قسيم) باشا نفسه [وزير الخارجية

24- [قلنا] يشير كاتب هذا البحث الى قيام الجيوش العثمانية عند اول دخول تركيا الحرب الى جانب دول الوسط في الحرب العالمية الاولى العام 1915 بغزو الشمال الغربي من ايران واحتلال معظم الاراضي التي كانت مرسحاً لعمليات الشيخ عبيدالله الحربية طوال مدة الحرب تقريباً.

العثماني] لم يكن نفسه يعتقد بوجود حقيقي لأي تخطيط طموح كهذا »[25].

كان وزير الخارجية العثماني يعرف ان الشيخ عبيدالله النهري هو نقشبندي شديد التمسك بطريقته. وان مولانا خالد كان قد لقّن مريديه وخلفاءه وجوب «الدعاء لبقاء الدولة العثمانية العلية، ركن الاسلام وحامية حمى المسلمين. والنصر على اعداء الدين المسيحيين الملاعين والايرانيين المحتقرين »[26].

ربما كان ذلك أكثر خفاء عن الاوروبيين من المراقبين العثمانيين: ان الشيخ عبيدالله بقي مخلصاً لمرشده الروحي من المبدأ الى المنتهى.



تمثل هذه الخارطة منطقة حركة الشيخ عبيدالله في ايران وموقع سكنى العشائر الكردية التي ورد ذكرها في الكتاب ممن شارك في حملته

25- الوثائق. تركيا رقم 5 (1881) من كوشن الى گرانفيل.

26- ابو منه: المرجع السالف ص 15. [قلنا] سبق وابدينا رأينا فيما يكتبه (ابو منّه) هذا بصدد النقشبندية وحركة الشيخ عبيدالله والرأي الذي نقله الكاتب له هنا يجب ان يؤخذ بكثير من التحفظ لأنه لايستقيم مع المعطيات التي جاءت في الفصول السابقة. راجع الباب الثاني من هذا الكتاب حول النقشبندية].

الباب الثاني

الطريقة النقشبندية

واثرها في الوعي القومي الكردي

الباب الثاني

الطريقة النقشبندية

واثرها في الوعي القومي الكردي

-1-

تمهيد

بعد فراغي من الباب الأول ترجمة وتصحيحاً وتعليقاً بدا لي اني سأترك في نفس القاريء ظمأ لمعرفة جانب من القوى التي استنجد بها صاحب السيرة ليؤلف بها القلوب ويشحذ الهمم ويحشد الأتباع.

كان الشيخ عبيدالله دليلاً نقشبندياً. ولانكران قط في ان شهرة مقامه الديني سبقت شهرته في الحقل الوطني، بل وطأت الأولى للثانية في العالم الكردي. والنقشبندية هي طريقة من الطرق الصوفية التي انتشرت في العالم الاسلامي ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي لتجد لها المجال الاوسع والارحب في كردستان دون سائر بلدان العالم الاسلامي.

ما الذي يسعني عرضه على القاريء من النقشبندية؟ والى اي حدّ سأقف بهذا العرض؟ من هو مؤسسها؟ من الذي نقلها الى كردستان؟ من هم ابرز شيوخها ومرشديها؟ ماهو دورها في تنمية الشعور القومي الكردي؟ كيف احتل شيوخها الساحة؟ ماهي طبيعة الظروف التي سهلت ولوجها الى ديار الكرد وفي هذا الوقت المتأخر وقد سبقتها طرق اخرى اوغلت جذورها في اعماق تربتها خلال قرون تزيد عن الثلاثة؟ وكيف تسنى لها ان تكتسح الميدان وتغدو سيدته؟

ثم ماهو التصوف؟ ما طبيعة التصوف الاسلامي عموماً ومكوناته؟ لايؤهلني البحث الى التفصيل في الباب طبعاً وسيكون تعريفي بالتصوف الاسلامي مختصراً جداً قد لايُغني المتتبع [1] الاّ انه يكفي في رأيي للإمام والتعرف الى المصطلحات الخاصة التي سترد في سياق البحث ليس إلاّ. وسأبدأ به.

1- أغنى الباحثون الغربيون والمستشرقون ورواد البحوث الاسلامية المكتبة العالمية والاسلامية بالألف من الابحاث ومئات من الكتب والترجمات التي تدور في فلك التصوف الاسلامي، وتعدادها أو احصاؤها من المستحيلات. على اني اود الاشارة هنا بنوع خاص الى اعلام ثلاثة من المستشرقين الذين كشفت ابحاثهم وآثارهم عن الجوانب الفلسفية والعمق الفكري للتصوف الاسلامي. منهم الاب اليسوعي لويس ماسينيون (1883-1962) عضو الاكاديمية الفرنسية. المتخصص باول شهيد صوفي الاسلام «ابي المنصور الحلاج» والى الاستاذ الباقعة گولدتسهير (1850-1921) مترجم العديد من كتب المتصوفين العظام و شعراء الصوفية. والى الاستاذ رينولد الين نيكلسن (1868-1945) ناشر ومترجم ديوان (شمسي تبريز) و(تذكرة الاولياء) للصوفي الشهير (فريدالدين العطار). وللاستزادة، اود الاشارة الى البحث القيم عن التصوف الذي كتبه هذا الباحث في كتاب (تراث الاسلام. الذي قمنا في العام 1953 بترجمته كاملاً الى العربية واعيد طبعه ثلاث مرات. (انظر البحث في الطبعة الثالثة من الترجمة دار الطليعة: بيروت الص -347 303: السنة 1978). ومن المؤسف له اني لم اجد في كل ماقرأت لهؤلاء ولغيرهم وما اكثره - من تطرق فهم الى مسيرة التصوف الاسلامي في كردستان ونفوذه في المجتمع الكردي والى رواده العظام خلا ان ادارياً و سياسياً =

A

اوليات عن التصوف

لفظة "صوفية" و"تصوف" مشتقة من كلمة صوف ويقصد بها الخرقة او البتّـة الخشنة غير المصبوغة التي كان الصوفيون الاوائل يتخذونها لباساً دلالة على الزهادة والتقشف والعزوف عن متاع الدنيا، وهو ثوب النساك النصارى من قديم العهد (وتدعى ايضاً بالرقعة: من الترقيع).

عقائد الاسلام البسيطة، والفقه الذي زادها عمقاً وتلويناً لم تكن تختلف في بساطتها عن العقيدة المسيحية، وكما زيدت هذه تعقيداً وتلويناً بمعلمي القرن الخامس حتى السابع الميلادية، كذلك الحال بالعقيدة الاسلامية، كلاهما بالاصل كان يعوزهما دائماً ذلك العنصر الروحي الذي لايستغني عنه اصحابه اثناء سعيهم الى غرسه في النفوس لاسيما بين غير العرب الذين فاقوا فاتحيهم حضارة وثقافة وكانوا جزء من تلك الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف.

ذلكم هو العنصر العاطفي الروحي. وقد سدت هذه الحاجة بتأثير المذاهب المسيحية الشرقية. على ان قولنا هذا لايعني بان الصوفية الاسلامية هي امتداد للتزهد والرهبنة المسيحية. فاصول التصوف اسلامية مستقلة تماماً خالصة المنشأ بالدرجة الاولى.

والصوفيون المسلمون لايعدمون قط عناصر صوفية زهدية في آيات القرآن تمازجها اهداف وغايات متعددة الالوان تناولوها بالشرح والترديد والبسوها المعاني الخاصة وقلدوها الدلائل والبشائر. [مثلاً: الآيات في سور النساء والبراءة والاحزاب].

ان مذاهب التصوف الاسلامي المتطورة او فلنقل (طرقه) تدين بالكثير لتلك الآيات.

ظهرت كلمة التصوف في المآثر العربية ولأول مرة في منتصّف القرن التاسع الميلادي. واشار الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) الا ان الكيميائي والفلكي العربي الشهير جابر ابن حيان (ت. حوالي 776) هو اول من اطلق على الزهاد هذا الاسم.

في مبدأ الامر كان التصوف الاسلامي حركة زهد وتقشف قائمة على الاعتزال الفردي والتأمل. وتأثرت بالافكار المسيحية واليونانية (الافلاطونية الحديثة والغنوصية) والبوذية الا انها مالبث ان نفضت عنها هذه البدع عندما ظهرت الطرق الصوفية واحتلت اراء الغزالي مكانتها الحَرية بها في العقيدة الاسلامية وسنتصدى لهذا بعد قليل.

= بريطانياً وجد لنفسه وقتاً في متابعة ذلك ليقدم لهؤلاء العلماء اول بحث صوفي كردي في كتابه (كرد وترك وعرب) وقد نقلناه الى العربية في العام (1970). [انظر الص 61-77 وما بعدها من الترجمة] وهو بحث دقيق رغم قصره قد يحث المهتم على اطلاب المزيد لكنه لاينقع الغلة بحد ذاته كذلك اشير الى كتاب (يي ردش) بارزان وحركة الوعي القومي الكردي 1826-1914: طهران 1980 وفيه معلومات جديدة عن حركة التصوف في كردستان وهو من الذين انتبهوا الى تأثير الطرق الصوفية في إيقاد جذوة الوعي في المجتمع الكردي. وسنشير اليهما في المواضع المناسبة.

هذه الشوائب التي المعنا اليها ادت بصوفيين كبار الى فكرة وحدة الوجود والحلول. اي الاتحاد بالذات الالهية وهو ما انكرته الطرق الصوفية التي خرجت الى النور في القرن الثاني عشر الميلادي لتقضي على الفكرة الحلولية بكل تعقيداتها.

والتصوف بالاصل وبابسط تعريف هو السبيل العاطفية لتطهير النفس البشرية بحيث تتعرف الى الله وتتوصل الى محبته لمجرد المحبة لا لاكتساب الرضوان والثواب في الآخرة. فهو ليس مجموعة تعاليم بل هو وجهة تفكير وشعور في مسائل الدين، ويمثل حركة معاكسة للنظرة العقلية في الدين وحصره في قوالب واطر ضيقة. والاساس هو شوق للتقرب الفردي المباشر الى الله وتعامل شخصي مع الحقائق الدينية. فليس من سبيل الى الله غير الحب. وهو جوهر السلوك عند المتصوفة. والممارسة العملية هو الترديد غير المنقطع لاسم الله ويسمى عندهم بـ(الذكر). واما (الطريقة) فهي كما وصفها الكتاب المتأخرون: مجموعة الفضائل المكتسبة بالممارسة (المقامات). والظروف التي يتقلب فيها الصوفي هي (احوال) وللاحوال مراحل، اولها مرحلة التوبة والهداية، تليها المعرفة بـ(السلسلة) ثم انكار الذات، الفقر، الصبر على المكاره التوكل على الله... الخ... وكل (حال) يهيء الصوفي الى (حال) آخر.

على ان (السلسلة) تختلف والطرق تتمايز والتفاصيل تتشعب بالنسبة للمرشد أو الرأس (الدليل). وعلى التلميذ (المريد) وهو المبتديء ان يضع اعمال القلب فوق اعمال الحواس الاخرى وان يُفَوِق النية على العمل.

وضع متصوفة القرن التاسع الميلادي اسس نظرية التصوف وجملة قواعده وطرقه بصورة عامة بدءً بالصوفي ذي النون المصري (ت859م) ومروراً بالبسطامي الفارسي (ت875م) وابي طالب المكي (ت 988م) والقشيري (ت1074) والهجويري (ت1063) ثم الامام الغزالي الشهير (1058-1111).

يعرض لنا الغزالي صورة ذهنية حية لهدايته الى التصوف في كتابه «المنقذ من الظلال». قال:

«... وظهر لي ان اخص خواصهم (الضمير يعود للمتصوفة) ما لايمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات (اي سلوك طريق التصوف)... ولما احسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري. التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لاحيلة له، فاجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه، وسهل علي قلبي الإعراض عن الجاه والمال والوُلْد والاصحاب...

... ثم اني لما فرغت من العلوم اقبلت بهمتي على طريق الصوفية فابتدأت في مطالعة سبلهم فعلمت يقينا انهم ارباب احوال لا اصحاب اقوال وظهر عندي، ان لامطمع لي في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ثم لاحظت احوالي فاذا انا منغمس في العلائق و قد احدقت بي من كل جانب ولاحظت اعمالي واحسنها التدريس فاذا هي غير خالصة بل باعثها ومحركها طلب الجاه.

فتيقنت اني على جرف هارٍ، وأني قد اشفيت على النار ان لم اشتغل بتلافي الاحوال»[2].

من بين حقائق وثوابت تقررها هذه الفقرة التي دونها واحد من اعاظم المفكرين، لا على النطاق الاسلامي وحده بل بالنطاق العالمي- ان النزوع الى التصوف لايأتي بالدراسة والعلم وانما بالاحساس العاطفي الداخلي. وان التلميذ (المريد) لا يتطلب منه ان يحرز قدراً من المعرفة او ان يجتاز امتحان قبول تفحص فيه ملكاته العقلية. كل هذا يفسر لنا القوام الاجتماعي الذي يضمه اطار الطريقة الصوفية حيث غالبية المريدين هم من قبيل ما نصفهم بالجهلة أو البسطاء الاميين القادمين من نهاية السلم الطبقي، الى جانب جمهرة كبيرة من العلماء والشعراء والكتاب الذين بلغوا اعلى درجات المعرفة والقادة والزعماء الذين تبواؤا أرفع المناصب.

واول الطرق التي نفذت الى اعماق مجاهل كردستان هي الطريقة القادرية نسبة للقطب أو الولي الشهير الشيخ عبدالقادر الگيلاني او (الجيلي) 1077-1166م.

لقيت قبولاً عاماً لتمام موافقتها المذاهب السنية. ومنها المذهب الشافعي الذي يعتنقه جل الكرد. ولم تعتم بعدها الصوفية اذ سرعان ماغدت دين الجماهير لا في كردستان وحدها بل في العالم الاسلامي. وبات تلامذة (الدليل) او القطب الذي ذاعت انباء حياة الطهر والنقاء والزهد والعفة حوله ينتظمون في اخويات (حلقات).

ويقوم على رأس الطريقة او فرع من الطريقة الشيخ أو الخواجة وهو بالكردية "الپير".

وبمؤهلاته الخاصة يكون مرشداً (دليلاً) أو قائداً روحيا للمريدين. والتعليم ان هو الا الطريقة. والمدرسة هي حيث اتخذ الشيخ مقره وتدعى (بالتكية أو الخانقاه).

بعد ان يعلن المريد الندامة والتوبة يبدأ بتسلم (الطريقة) من يد الدليل. فأذا احسن سلوكها منحه الدليل الاجازة بها وعينه (خليفة) اي خلفاً له في الارشاد، اهلاً لتلقينها للآخرين. فأذا بلغ درجة من الكرامة كان له ان يظهر بمظهر الشيخ او الدليل لجيل جديد من المريدين.

2- المنقذ من الضلال: ط القاهرة. 1938ص 25 وما بعدها.

كثيراً مايكون (التصوف) ملجا للنفوس الحائرة الحساسة ودليلاً على استسلامها بعد التأمل الفكري العميق في احوال الدنيا ومصائرها. وبافضل مايصوره لنا هذا اليك الفقرة التالية التي يكشف فيها الغزالي عن معاناته واختباراته الشخصية قال: لم ازل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد اناف السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق... واتوغل في كل مظلمة واستكشف اسرار مذهب كل طائفة. لا اغادر باطنيا الا واحب ان اطلع على بطانته ولاظاهريا (اصحاب المذهب الظاهري) الا واريد ان اعلم حاصل طهارته. ولافلسفياً (يقصد اصحاب عقيدة الافلاطونية الحديثة) الأ واقصد الوقوف على كنه فلسفته ولامتكلما (اصحاب علم الكلام الجدليين) الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولاصوفيا الا واحرص على سر صوفيته ولامتعبداً الا واترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته. ولازنديقاً معطلاً الا واتجسس وراءً للتنبيه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته، وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من امري وريعان عمري غريزةً وفطرةً من الله تعالى وضعها في جبلتي لاباختياري وحيلتي. [ص22-23- عين المصدر].

وكل اجازة بالطريقة يجب ان تتضمن قائمة كاملة باسماء الخلفاء الروحيين السابقين مسلسلة تبدأ من ابي بكر الصديق والامام علي ابن ابي طالب وهما المرجع الأخير لكل طريقة. وتختلف السلسلة بين طريقة واخرى بعض اختلاف. وسيأتي الكلام عن هذا في موضعه. [راجع الملحق].

ويسمى ابناء الادلة والشيوخ هؤلاء شيوخاً ايضاً الا ان وراثة اللقب وحدها لاتمنحهم حقاً في جمع مريدين جدد حولهم أو ان يتخذوا مقام (الدليل) الا بعد اخذهم الطريقة عن سلفهم بالشكل الذي ذكرناه، أو بالتسمية أو التعيين وفق هذا الشرط ايضاً.

و لمن يزعم لنفسه انحداره من نسل علي وفاطمة الزهراء فيهم، ألحقُ في اضافة لقب السيد. ويضيف (ادموندز):[3]

«في كردستان الجنوبية يطلق على المريدين من اتباع الطريقة القادرية اسم [الدراويش] اما اتباع الطريقة النقشبندية فيسمون (بالصوفية). على ان الفرق لايراعى هناك بدقة في الظاهر».

-B-

نشوء الطريقة ومؤسسها:

ساعرض في هذا القسم نبذة تأريخية موجزة لسيرة مؤسس الطريقة النقشبندية واتابع مسيرتها انتشارها في العالم الاسلامي متوقفاً عند نفوذها الى كردستان واستظهارها على الطريقة القادرية. وهو ماسأخصص له فصلاً آخر.

تسميه الكتب والمدونات (بالخواجه) وهذا لقب تركي يعادل لقب الشيخ أو الدليل أو الپير او القطب. وهو[بهاءالدين محمد ابن محمد] المولود في 1318م والمتوفى في 1389م وصفة [نقشبند] التي عرفت بها طريقته فيما بعد، فهمت احياناً بعلاقتها بصنعة التطريز أو النقش على الطيالس البخارية (نسبة الى مدينة بخارى) التي تسمى كُميخا، اذ قيل ان بهاءالدين كان فعلاً يعاون اباه في هذه الصناعة. الا ان الاشُيع المعروف انها اتخذت اسماً للطريقة اشارة الى نقش اسم [الذات الالهية] على لوح القلب المتطهر عن طريق (الذكر) الصامت المتواصل.

وعند اهالي (بخارى) الذين انزلوا بهاءالدين منزلة وليهم وشفيعهم بات يعرف بلقب [خواجه بلاء گردن = السيد دافع البلاء] اشارة الى القوى التي حظي بها للحماية ودفع الاخطار. في حين عرف في بقاع اخرى من العالم (كالهند وتركيا وايران وكردستان) بلقب (شاهي نقشبند).

وذكروا انه ينحدر من سلالة الامام جعفر الصادق. لكن، مع ان اسم هذا الامام يظهر دائماً في (سلسلته) الخاصة، الا ان الكتاب السابقين والمعاصرين لا يقرنون لقب (السيد) باسم بهاءالدين.

ولد في قرية قريبة من بخارى عرفت انذاك باسم [قصري هندوان] ثم ابدل اسمها بـ(قصري

3- كرد وترك وعرب: المرجع السالف ص65- ترجمتنا العربية.

عارفان) تيمنا به واجلالاً واسرع [خواجه محمد سَمَّاسي] السليل الخامس للصوفي الشهير ابي يوسف الهمداني المروَي (ت 1140م) الى تبنيه روحياً وهو صبي (فرزند)، واسلمه الى مقدم مريديه (خواجه امير كلال) لتثقيفه وتعليمه. ويعتبر (امير كلال) السلف المباشر (السلسلة بهاءالدين) لانه هو الذي سلمه (جوهريات الطريقة)، وصلة الرفقة (نسبتي صحبت) وارشادات في تقاليد (تعليم ادابي طريقت وتلقيني ذكر)[4].

الا ان بهاء نفسه رأى في الحلم اسلافه الستة من السلسلة، بدءً بالخواجة عبدالخالق غجدواني (ت 1222م) احد خلفاء الهمداني ووجده يحرم عليه اموراً من بينها الزامه بتلاوة (الذكر) بصمت تام لا باللفظ ولا بالصوت، خلافاً لما كان مرشده (امير كلال) وحلقته يمارسانه.

وبعد فترة من الزمن اذن له مرشده بمصاحبة شيوخ آخرين من الترك والتاجيك، ومن اوائل من صحبهم (مولانا عارف ديگراني) الذي مارس معه الذكر (الصامت).

وبعده قفل الى الدليل الاخر في (نخشاب) ثم الى الشيخ (خليل عطا) الذي لازمه اثنتي عشرة سنة كاملة، ليعود بعدها الى مسقط رأسه ويبدء في تلقين طريقته لتلامذته ومعظمهم من بخارى وجوارها وفي هذه الفترة رحل عنها ثلاث مرات، اثنتين لاداء فريضة الحج والثالثة لزيارة (هرات) وفيها التقى اميرها (معزالدين حسين) فشرح له طريقته.

وادركته المنية في الثالث من ربيع الاول (791هـ = 1389 م) ودفن في قريته التي ولد فيها وبات ضريحه مزاراً يحج اليه المسلون من سائر اقطار اسيا. ولاهل بخارى لذكراه احتفالات خاصة.

لبهاءالدين من الخلفاء الرؤوس: خواجه علاءالدين العطار (ت1393) الذي اكرمه بتزويجه بابنته. وخواجه محمد پارسا (ت1419) وهو كاتب غزير المنتوج يعد واضع الحجر الاساس للآثار الخطية للطريقة النقشبندية. ومولانا يعقوب چرخي (ت1447). وهو ابرز هؤلاء الثلاثة. الا ان ثانيهما كان اكثرهما نشاطاً في ضمان استمرارية الخط النقشبندي. على ان الفضل في تفوق الطريقة النقشبندية وسيادتها على اواسط اسيا واقتحامها الافق الاسلامي الارحب منه - كان يعود بلا جدال الى المرشد الخواجه عبيدالله احرار (ت1490).

لم يترك بهاءالدين آثاراً قلمية، لكن تعزى اليه ادعية واوراد باسم "اوراد بهائيه". بل اثر عنه أنه كان يثبط عزم تلاميذه ومريديه على تدوين اقواله. غير ان الملامح الاساسية لتعاليمه لايصعب التوصل الى معرفتها، ليس بسبب مانسج من القصص الاسطورية التي حجبت كثيراً من الحقائق عن سير العديد من كبار الصوفية. بل بسبب كثرة ضعف المصدر والايجاز فيها. فمن الصعوبة وبنوع خاص ان نقع على السبب الذي جعله يبدو الشخصية الرئيسة المرجعية والصلة المركزية في "السلسلة" التي هو جزء منها - بدلاً من (الغجدواني) مثلاً. فالغجدواني هو اول من وضع المبادىء الثمانية

4- نفحات الانس [عبدالرحمن جامي] ص 381 يلاحظ من هذا ومن كل ماسيرد من مصطلحات الصوفية انها عربية خالصة أو عربية محرفة قليلاً على الطريقة الفارسية.

الاساسية للسلوك الروحي المعروفة بـ(الكلمات القدسية) وقد وردت جمعاً في سائر كتب النقشبندية حتى زمننا هذا، سيما حقيقة قيام بها ءالدين باضافة ثلاثة مبادىء اخرى اليها، قد تعد دعماً واسناداً لمبادىء الغجدواني وبواقع تقدم هذا عليه زمنياً.

وهذه هي: (وقوف زماني) اي الادراك الزمني والفحص المستمر للحالة الروحية في اثناء الذكر. و(وقوف عددي) اي الادراك الاحصائي وهو ضبط عدد ترديد كلمات الذكر كي يمنع من تدخل الافكار الدخيلة: اي التركيز الفكري. واخيراً (وقوف قلبي) اي اداراك القلب بتحويل الاهتمام بالقلب المادي لجعله قادراً على المساهمة في الذكر.

وكما تجد، فسائر هذه المبادىء الثلاثة تتعلق بالذكر.

و لما كان بها ءالدين قد ناىء بنفسه عن حلقة (امير كلال) باصراره على (الذكر الصامت)، فيستنتج من هذا ان مسألة تحريم اللفظ في الذكر كان مسألة حاسمة في تكوين الطريقة النقشبندية ونأيها عن الطرق الاخرى.

تؤكد النقشبندية بالدرجة الاولى ضرورة توجيه حياة المرء بكليتها الى الله. الى العيش بمحضر منه. الى نفس امتلات حباً به. متوجهة بالعبادة اليه رأساً دون وسيط أوالانصراف الى امور دنيوية أو توقع ثواب أو جزاء دنيوي وبضمنه المديح والثناء عند التحدث مع اخرين يجب ان تقف الذات على محبة الله وحده.

وتؤكد النقشبندية بالدرجة الثانية التمسك الشديد بالاصول السنية من الشريعة الاسلامية وهي كما يصفها م. موليه "M.Mole" (احد المتعمقين الفرنسيين في دراستها) ان «هدف الصوفية النقشبندية التواصل مع الله بالتأمل فيه ومن خلال التماس المباشر بالرسول والاولياء والصديقين. فاذا وجب وامكن ان يعرف الله مباشرة فيجب ان يكون بالامكان انتفاء الحاجة الى معلمين مرئيين او الاتصال بمرشدين غير مرئيين.».

فالمرشد الى الطريقة والحالة هذه يقصر عمله على اراءة الطريق للمريد ولا اكثر، وهذا هو هدف الطريقة. ليس هناك في العلن موسيقى أو رقص أو مظاهر خارجية بل مجرد ترديد لاسم الله مرات. أو عبارة لا اله الا الله ترافقها حركة: مثل موازنة الجسم أو التنفس. والاداء العلني هو اقل شأناً من (الذكر) في الخلوة. اسم الله لاينطق به ولكن يستحضر ذهنياً في نحوةٍ وخلْوة. وبشكل متواصل ولايشغل عن ذلك مزاولةُ اي عمل أو تصريفُ شأن من شؤون الحياة. بل بتركيزٍ (توجّه) وباعين مسبلة الاجفان أو مغمضة وبكل الحواس متوجهة نحو القلب مع استحضار صورة (المرشد) أو(الولي) في القلب. ومن اجل بلوغ هذا الغرض بالذات كان الانضباط الادبي مبنياً على احترام (المرشد) أو (الشيخ) وطاعته لأنها اول خطوة في درب التسامي الروحي. فمن خلال (فناء الذات) في المرشد الى الفناء في الذات الالهية من خلال الاولياء والرسول.

انتشار الطريقة

ظاهرة نجدها في تأريخ النقشبندية تلفت النظر فلا يمكن اغفالها:

فمع ان اول قيام لهذه الطريقة كان بين الناطقين باللغة الفارسية وان كل كتبها الاولى تقريباً دونت باللغة الفارسية. الا ان تأثيرها في المجتمع الفارسي وفي بلاد فارس كان قليلا لايعتد به عند مقارنته بالانتشار الواسع اولا في تركمانيا (ماوراء النهر) وآسيا الصغرى والهند واقاليم كثيرة من البلاد الناطقة بالعربية واخيراً وبصورة خاصة في كردستان حيث كان لها موقع الصدارة.

وعلى اية حال وجب علينا ان نقرر واقعاً اطبق عليه جميع من كتب حول النقشبندية، هو ان بهاءالدين وان كان واضع اسسها واليه نسبت، فانها لم تمارس نفوذاً سياسياً طوال حياته.

وعلينا الاقرار بان (الخواجه محمد پارسا) الذي مر ذكره وهو اقوى العلماء العظام من المرشدين النقشبنديين كان المقنن للطريقة والواضع اسسها واليه يعود الفضل في النفوذ السياسي الذي حازته ايام الحكم التيموري، وقتما امر السلطان [ميرزا شاهرخ] بعودة هذا العالم الديني الى بخارى، وتعزى التقاليد الثورية التي عرفت بها الطريقة فيما بعد الى الشيخ الدليل عبيدالله احرار(ت 1490 م). الذي اقحم نفسه والطريقة في ميدان النشاط السياسي وتدخل من خلال مريديه العديدين ليجعل للنقشبندية المقام الاول في معظم بلاد ماوراء النهر (تركمانيا). كما امتد نفوذها خلال هذه الفترة الى (هرات) جنوباً بمساعيه ومساعي الدليل سعدالدين القشغري (ت1456 م) وهذا يمثل الجيل الثالث ابتداء من بهاءالدين.

هيمنت النقشبندية على الحياة الدينية والثقافية في ايام العهد الاخير من حكم الاسرة التيمورية[5].

في اواخر الحكم التيموري هيمنت على افاق النقشبندية شخصية طاغية في (هرات) هي شخصية الشاعر الكبير والصوفي الشهير عبدالرحمن جامي (ت 1492) اكان من آثاره الفنية والادبية المتعددة الالوان. رسالة اوقفها على شرح وتبسيط مبادىء الطريقة النقشبندية عنوانها "سردشتيي طريقي خواجكان"[6].

فضلاً عن استطرادات حول الطريقة وتنويهات باوليائها الكبار تجدها مثبوتة في سائر اثاره،

5- نسبة الى تيمورلنگ او تيمور الاعرج (1336-1405) احد احفاد جنكيزخان وملك المغول. من اعظم الباطشين الفاتحين في تأريخ العالم دانت له خوارزم وقشعر وفارس والعراق وسورية ومصر، وابناؤه واحفاده تولوا الحكم في بلاد فارس وآسيا الوسطى خلال القرن الخامس عشر الميلادي. وانقسمت دولتهم الى فرعين رئيسين: (مهران شاه) غرباً و(شاهرخ) شرقاً، ومؤسس هذه الدولة الاخيرة استقل بخراسان وما وراء النهر وقد عرف هذا الملك بالتفتح الذهني والنزوع الى المعارف والعلوم فازدهرت بلاده وبلغت شأواً كبيراً من النشاط العقلي. وقد عرف من خلفائه (الوغ بك) العالم صاحب المصنفات. قضى الصفويون على دولتهم.

6- نشرها عبدالحي حبيبي في كابل بافغانستان في 1946 وهي باللغة الفارسية.

ولاسيما روايته عن مجهوداته في نشر الطريقة ونجاحه في ضم الاديب الوزير والرجل الدولة «مير علي شير نوائي» ونجاحه في حمل السلطان (حسين ميرزا بأيقْرا) على ان يسبغ عليها حمايته ويشملها بعطفه.

وبعد ثلاث أو اربع سنين من سقوط القسطنطينية بيد السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح (1429-1481) في العام 1453، وجدت النقشبندية سبيلها الى العاصمة العثمانية الجديدة التي عرفت بـ(استنبول).

وقيض للنقشبندية في اوائل القرن السادس عشر ان تنتشر في اقاليم قزوين بمساعي مريد متفان للدليل (عبيدالله احرار) يدعى [الشيخ علي الكردي]. تبثه دائرة المعارف الاسلامية بأن اصله من مدينة العمادية في كردستان العراقية[7]. وكان قد قضى عدة سنوات في خدمة (احرار) يُعلّم اولاده قبل رحيله الى قزوين. كان الصفويون القزلباش[8] انذاك يتعقبون اتباع النقشبندية ويعملون فيهم ذبحاً وتقتيلاً اذ وجدوا فيهم منافساً ايديولوجيا خطيراً وخصماً مقارعاً عنيداً لمفاهيمهم الصوفية فقبضوا على الشيخ (علي الكردي) وأعدموه الحياة. ولقي عين المصير واحد من خلفائه الستة على الاقل، كما هربت اعداد كبيرة من المريدين ولجأت الى اسيا الصغرى. مع ذلك بقيت (تبريز) مركزاً هاماً لنشاط النقشبندية (صنع الله كوزكُناني: ت 1523)، احد مريدي علاءالدين مكتبدار (ت 1486) وخليفة من خلفاء (سعدالدين القشغري) في هرات. وقد تمتع ببعض نفوذ في بلاط دولة الخروف الابيض (اق قوينلو)[9] ونجا من سيف الصفويين الفاتحين على ما يبدو. وابنه (ابو سعيد الثاني) اعتقله الصفويون ونكلوا به لكنه تمكن من الفرار والهجرة الى استنبول وحظي برعاية السلطان سليمان وعطفه.

7- راجع دائرة المعارف الاسلامية مجلد 7 ص 935- طبعة بريل في هولندا السنة 1993.

8- لفظة تركية معناها الرأس الاحمر، عرفت بها القبائل التركمانية التسع أو (السبع عند بعض المؤرخين) بسبب لون عمائمهم التي يغلب عليها الاحمر. وهم اتباع الطريقة الصوفية التي اسسها الشيخ جنيد والد الشاه اسماعيل الصفوي وتولى امرها بعد وفاته (الشيخ حيدر). الف القزلباش النخبة الممتازة لجيش اسماعيل وبهم توصل الى عرش فارس وهذه الطريقة التي عرفت فيما بعد بالقزلباشية تؤمن بالحلول لكنها ترفض الممارسات والشعائر الاسلامية وتنزل الائمة الاثني عشر منزلة تقديس. ولقد قيل ان (الشيخ حيدر) كان المسؤول عن فرض كسوة الرأس التي اشتهروا بها ليمتازوا بها عن سائر الناس وهي قلنسوة كبيرة من الجوخ حمرا، فيها اثنا عشر لفة على عدد الائمة الاثني عشر وقد عرفت بـ(تاج حيدري). لقبهم اعداؤهم بهذا الاسم على سبيل الاستهزاء، والتحقير الا انهم مالبثوا ان اتبنّوا اللقب لانفسهم باعتزاز. (استخدمه فضل الله خنجه روزبياني على سبيل التحقير في كتابه مهمان نامة بن بخارة في 1485 نشره منوچهر ستوده في 1962- طهران). وذكر روزبياني انهم كانوا يطلقون صيحة حربية عند كرتهم على اعدائهم: هي قوربان اولديگرم بيروم مرشدم: ومعناها: مرشدي مولاي روحي لك قربان.

9- مجموعة من القبائل التركمانية شعارها (خروف ابيض) غزت اعالي الفرات ودجلة واقامت دولة عرفت بهذا الاسم في حدود 1466 برئاسة (قره عثمان) واتسعت رقعتها لتضم مساحة تمتد من دياربكر شمالاً حتى بغداد ومن ارمينيا حتى خراسان ومن حكامها حسن الطويل (اوزون حسن) فاتح بغداد. قضى عليها الصفويون في 1508.

هناك خليفة آخر للكوزكناني، هو(علي جان بادام باري) الذي استقر في قرية (بادام يار) بالقرب من تبريز وبدء لنفسه بخط نقشبندي استمر اكثر من جيلين.

لابد ان يكون تغلب الصفويين، ايذانا بدق ناقوس الفناء للطريقة في شمال وغرب فارس. فبسبب اخلاص الطريقة النقشبندية الشديد للمذهب السنّي باتوا هدفاً للاضطهاد الصفوي.

كتب (ميرزا مخدوم شريفي) وهو من علماء السنية وغير نقشبندي بعد لجوئه الى ارض العثمانيين:

كلما شوهد امرء يمارس (الذكر) أو(المراقبة) قالوا مشيرين اليه، هذا نقشبندي وجب قتله[10].

ربما قدر للنقشبندية الدوام في (اورميه) فترة من الزمن. أو ربما وجد اتباع لها في أنحاء من كردستان الايرانية. وماعدا ذلك فان الصفويين اتموا عملية استئصالها واخماد انفاسها حتى ان ملا محمد باقر مُجلسي (ت 1699) شعر بثقة لتعقيب على بداية افول شمس الدولة الصفوية بقوله:

ان اسماء اعلام النقشبندية العظام الذين ذكرهم (جامي) في كتاب [نفحات الأنس]. لم تعد معروفة قط لأي احد باستثناء الجهلة الازوبك [اوزبكان نادان].

واول (پير) نقشبندي في دولة آل عثمان نبه ذكره واشتهر امره هو [ملا عبدالله الهي سماڤي]، كان قد رحل الى سمرقند ليتلمذ على الخواجه عبيدالله الذي جاء ذكره. وبعد ان تسلم الاجازة عاد الى مسقط رأسه (سماڤ) وبقي فيها سنوات قبل ان يلبي ببعض تردد الدعوة للاقامة في استنبول. وفي مسجد (زيريك) هناك اسس اول حلقة تدريس نقشبندية في اسيا الصغرى (تركيا) وما لبث ان وجد نفسه محاطاً بعدد كبير من الاتباع والمريدين المخلصين، لكنه آثر حياة العزلة و الدرس وكسب المعارف، فترك العاصمة الى (فردار ينبي ينيچسي) في تراقيا. وهناك توفي (1490)، وخلفه الرئيس هو (امير احمد بخاري: ت 1516) وكان رفيقه عند عودته من سمرقند. اسس خانقاه في استنبول ارتادها عدد كبير من المريدين بينهم كتاب وادباء من ابرزهم الشاعر (محمود لامعي چلبي: ت1532) بقيت هذه الخانقاه حية حتى مطلع القرن العشرين الا انها لم تؤت الحظ الذي نالته في القرون الخوالي.

وثم مريد شهير اخر لخواجه(عبيدالله احرار) هو(بابا حيدر السمرقندي: ت 1550) اوجد السلطان سليمان القانوني له خانقاه في (ايوب) بدت بمثابة دار ضيافة للنقشبندية القادمين من اواسط آسيا. [اتت النار عليها في العام 1912] وقد ظل النقشبندية يهاجرون من تلك البقاع الى انحاء من الامبراطورية العثمانية عدة قرون لاسباب مختلفة.

* * *

لامناص لمتتبع تاريخ الطريقة النقشبندية في تركيا والاناضول من ان يصل الى النتيجة الوحيدة، وهي انها تعكس كل ماطرأ عليها من تطور في الهند، وكانت هذه البلاد مركزها الفكري الرئيس منذ

10- "النواقض لبنيان الروافض" من مخطوطات المتحف البريطاني تحت رقم Or 7991 قسم A96.

عهد الشيخ (احمد سرهندي) الذي اشتهر بلقب المجدد (ت 1624).

وهذا الفرع "المجددي" الذي استحدثه، حمل اعباءه (الشيخ محمود مراد البخاري: ت 1729). وهو احد مريدي خواجه (محمد مراد معصوم) ابن سرهندي وخليفته الاكبر وسيأتي الكلام عنه وشيكاً.

الانتشار الثاني للفرع المجددي، كان مصدره (مكة).

عرفت هذه المدينة المقدسة عند الحجاج المتقاطرين من العالم الاسلامي بكونها مركزاً هاما للاشعاع النقشبندي منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادي. وفي اوائل القرن الثامن عشر وحتى اواسطه كان (الشيخ محمد امين تكت: ت 1745) هناك ممثلاً لخواجه معصوم.

ادخل الطريقة الى الهند خواجه باقي الله (1564- 1603) في اواخر القرن السادس عشر.

وسرعان ماغدت تتمتع بنفوذ قوي في حياة مسلمي الهند، وبقيت قرنين من الزمن السلوك الروحي الرئيس في تلك البلاد ومع ان (اولياءً) من السلسلة النقشبندية كانوا قد زاروا هذه البلاد ايام (بابر)[11] (وهمايون)[12] ولقوا حظوة واكراماً لديهما. الا ان مؤسس اول خانقاه هناك هو على ماذكروا (خواجه باقي الله) الذي جاء الى دلهي[13] من كابل وزرع سلسلة في الهند بحسب تعبيره هو نفسه. وقد اعتُبِط وهو في عز شبابه (لم يعمر اكثر من اربعين عاماً) الا انه ترك اثاراً عميقة في حياة الناس بسبب بساطته وبشاشته وروحه العالية وانسانيته. وبمثل هذه الفضائل انقادت اليه شخصيات دينية وسياسية رفيعة المقام وانتظمت في حلقاته النقشبندية مريدينَ وتلامذةً. قيل كان (باقي الله) حلولياً - مؤمناً بوحدة الوجود[14]، و يتجلى ذلك في اشعاره الوجدانية الرقيقة التي تعبر عن عواطفه

11- هو ظهير الدين محمد بابر (483-1530). احد عباقرة الحكام في كل زمان و مكان. مؤسس سلالة المغل الامبراطورية في الهند. ابوه من احفاد تيمورلنك وامه من سلالة جنكيزخان. في 1494 خلف اباه حاكماً على فرغانه وفي 1505احتل كابل ثم سمرقند 1511 وقندهار 1522 وتوجه الى الهند فاستولى على دلهي واگرا وقوض مملكتي جونپور وراجستان وامتدت دولته حتى البنغال. كان كاتباً كبيراً. من اثاره سيرة حياته (ربما كانت اول سيرة يدونها اديب سياسي لنفسه) وتعد من انفس الادبيات التركية. و له ديوان شعر باللغة الفارسية.

12- هو ابن بابر وخلفه (1508-1556م). هزمه في 1540 شير شاه الافغاني وطرده من دلهي الا انه استعادها من خلف لهذا الحاكم الافغاني. عرف ايضا كوالده بتتبعاته العلمية. وكانت له مكتبة تضم عشرات الالوف من الكتب النفيسة في شتى المعارف. ويذكر ان موته كان نتيجة لسقوطه من رفوف مرتفعة في تلك المكتبة.

13- والاصح: دهلي. ويلفظها الهندوس بتخفيف الهاء.

14- pantheism - اي الاتحاد بالذات الالهية ووحدة الوجود تبعاً وتقوم فلسفة هذا المنحى على اساس ثنائية الطبيعة الالهية ويتجلى ذلك في هذه الابيات التي قالها احد اوائل الصوفية الحلوليين ابو منصور الحلاج:

اء انــا ام انــت هـذيــن آلهــين ... حـاشـاي حـاشـاي من اثبـات اثنين
هـويــة لـك فـي لائيــتي ابـداً ... كـلي مع الكـل تلبيـس بوجـهين
فــاين ذاتك مني حـيث كنت ارى ... فـقـد تعـين ذاتي حـيث لا اين
وايــن وجــهـك مقـصـور بناظرتـي ... في ناظر القلب ام في ناظر العين؟
بـيـنـي وبيـنـك اني يـزاحمـني ... فـارفـع بأنك اني مـن البين

[اي: آلهي ازل الضمير انا الذي يفصلنا عن بعضنا].

اللامتناهية في العشق الالهي. وعرف بديوان قصائد باسم (عرفانيات باقي)[15] الا بعض النقشبندية يدرأون عنه التهمة ويصرون على انها فرية من عمل خصوم الله.

برز من تلاميذه الشيخ احمد سرهندي (ت 1642) الذي اغنى السلسلة النقشبندية بايديولوجية متميزة، ودفع فيها قوة حركية الى جانب تنظيم فاعل. وبدأ فابعد نفسه عن الحلولية بانكاره وحدة الوجود، وتقدم بنظريته الخاصة التي سماها بـ(وحدة الشهود) اي وحدة الظواهر في العالم، وجأر بالتنديد بالبدع التي ادخلها الصوفية وروج لها الامبراطور اكبر[16]. الذي بدء يسعى منذ العام 1582 الى التوحيد بين الاديان متوصلا الى واقع كونها تنبع من معين واحد وان تعاليمها تلتقي في نقطة واحدة في النهاية. فاعلن عن دين عقلي توحيدي [دينيي الهي]. وهو ثمرة دراسة شخصية مستفيضة للهندوسية والزرادشتية (البارسية) والحيانية وكذلك المسيحية دراسة شاملة على يد اليسوعيين البرتغاليين الذين كانوا يقيمون في بلاطه. الى جانب تبحره في اصول الشريعة الاسلامية وفرقها ومذاهبها. وخطته في هذا ان يوحد الهند التي كانت تمزقها الحزازات الدينية والانشقاقات بدين واحد يقوم على المبادىء والمعطيات الرئيسة لتعاليم كل الاديان.

عارض الشيخ سرهندي تجربة (اكبر) ومن وصفهم معه بـ(علمائي سوء = علماء السوء) وحذر المسلمين من مغبة ترك ممارسة شعائر الاسلام واحكامه مثلما حذر غير المسلمين من التجربة مستشهداً بالاية "لكم دينكم ولي دين: الكافرون" وهو مانعته بـ(المكتوبات) [ضد الملفوظات: انظر ما سبق].

لم يكن السرهندي النقشبندي يشجع على اجتناب الحاكم والدولة بل كان يؤمن بوجوب اقامة رابطة حوار معهما في سبيل احداث تغيير في وجهات نظر السلطة وارشادها. وقد حفظت له مراسلات حادة العبارة شديدة اللهجة مع امراء المغل من امثال الامير [عبدالرحمن خان خانان] و[ميرزا عزيز كوكا] و[فريد بخاري] وآخرين.

ونجح في استمالتهم وحملهم على الاخذ بوجهة نظره.

وسجلت له مساجلات دينية مع جهانگير (1619) خليفة (اكبر) - الذي ضاق به ذرعاً فاعتقله وحبسه في احدى القلاع. الا انه اخلى سبيله بعد سنة واحدة.

وظلت تعاليمه وممارساته النقشبندية قيد التطبيق عند الصوفية النقشبندية، وحرص عليها خلفاؤه من اولاده واحفاده ومريديه.

كان للنقشبندية دور هام ايام حكم المغل الهند وفي تلك الفترة تكاملت اصولها وثبتت جذورها وتميزت (سلاسلها) عن غيرها ونأت بنفسها عن سلاسل الطرق الاخرى.

15- طبع في دلهي: 1965 [انظر دائرة المعارف الاسلامية المرجع السالف ص 1938].

16- حكم بين (1556و1605 وتبوء العرش و له من العمر خمسة عشر عاماً يعتبر اعظم ملوك المغل في الهند. كان انساناً متفتح الذهن للغاية عالماً غزير المعرفة. من اصلاحاته انه الغى الجزية التي كانت تفرض على الهندوس وساوى بين طبقاتهم.

ويمكن حصر هذا الاختلاف بخمس نقاط.

اولاً: انها طورت نظرة دينامية فعالة اكيدة، ضد النظرة الجامدة غير الفضولية، اللاكوزمية non-Cosmic للطرق الصوفية الاخرى. حتى ممارساتها وادعيتها فقد باتت حافلة بهذا المنظور...

ثانياً: اغلقت النقشبندية القنوات بين التماس الايديولوجي مع الاديان الاخرى برفضها افكار ابن العربي[17].

ثالثاً: اعتقادها بالحاجة الى ارشاد الدولة، خلق وضعاً جديداً للطريقة كان من نتيجته اقامة جسر بين الصوفية والدولة وردم الخندق الذي يقوم بينهما. الا ان ازالة هذا الحاجز وضع النقشبندية امام مشاكل جديدة منها الوقوف في وجه الدولة ومعارضتها. واقرب مثال لهذا ايامذاك ان خلفاء الدليل (شاه غلام علي النقشبندي) نقموا على الاحتلال البريطاني وساندوا الحركات والثورات التي قامت ضده في الهند..

رابعاً: في الوقت الذي تولد تعاليم سلاسل الطرق الاخرى من خلال "الملفوظات" اي اقوال الدليل او الشيخ، فأن اولياء النقشبندية يلقنون افكارهم ويبسطون وجهات نظرهم بالرسائل (المكتوبات) وبهذا امكن دراسة الطريقة دراسة وافية عن طريق متابعة مجموعات الرسائل التي تركها اقطابها كرسائل (الشيخ احمد) و(خواجه معصوم) و(خواجه نقشبند) وبير (شاه غلام علي) وغيرهم.

خامساً: في الوقت الذي كان اقطاب الطرق الاخرى الاوائل قد استحدثوا فكرة [الولايات]: اي الفضاء الروحي الذي خصص للدليل. نجد النقشبندية لاتتقيد بهذا الحصر. بل استحدثت مفهوماً جديداً اطلقت عليه لفظة (القيوميات) وهو نوع من المحور الايديولوجي الذي تقوم عليه الدنيا تأميناً لفاعليتها.

ويلاحظ ان هذا المفهوم احدث في سلسلة النقشبندية نخراً بدلاً من اشاعة القوة فيها.

مع كل هذا فالنقشبندية بسلسلتها "المجددية" فحسب استرعت اهتمام حشود من الناس في تركيا

17- ابوبكر محمد ابن علي محي الدين الاندلسي امام متصوفة الاندلس 1165-1240]. مبتدع فكرة وحدة الوجود في التصوف. وعقيدته في فلسفة الكون شرحت في مجموعة كبيرة من كتبه. واجلها واعظمها شأناً كتاب [الفتوحات المكية] و[فصوص الحكم] ومعظم محتوياتها خيالي الطابع، بلفه الغموض (ممن اتى الى تبسيطها وشرحها، القطب القادري عبدالكريم الجيلي: ت 1410) تلخص فلسفته الصوفية التي اطلق عليها عنوان (وحدة الوجود بما يلي: قبل ان تخلق الاشياء (تأتي الى الوجود) كانت افكاراً تجول في ضمير مبدعها وخالقها اينما تصدر وحيثما توجد. وليس هناك (خلق من عدم) والامراض ليست غير المظهر الخارجي لما كان الله يستقر في باطنه. وفي الوقت الذي يكشف كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة عن جزء من هيولي الحقيقة. فان الانسان. وهو عالم صغير- يتحد في ذاته جميع صفات الله. والله يستقر في وجود الانسان الشخصي... والانسان الكامل باعتباره صورة الله والنموذج الاصدق للطبيعة هو وسيط بين الارادة الالهية ومبدء الكون الذي خلق العالم تطبيقاً له. وعند ابن العربي ان الانسان الكامل هو (محمد) فجوهره الروحي وهو اول من خلقه الله انما يدرك بوصفه نوراً سماوياً. [يطول شرح وجهة نظر ابن العربي الخاصة ولكننا فيما قدمنا الكفاية لايضاح اختلاف النقشبندية عنها].

وافغانستان وسورية. وباتت خانقاه (شاه غلام علي (ت 1824) في الهند مقصداً لآلاف الزائرين من البلاد الآسيوية والافريقية. ومن بينهم احد تلامذه (مولانا خالد) الشهرزوري.

لم يكن تعليل ضعف النشاط النقشبندي في بلاد فارس صعباً. فالحكم هناك هو على المذهب الشيعي الاثني عشري ولمفاهيمه وممارساته وعقائده مالايستقيم مع نظام الطريقة النقشبندية بشقيها الاصولي والمجددي. ولم تقتصر مقاومتها على الصفويين.

ففي اوائل القرن التاسع عشر قاد مقاومة سكان هرات ضد محاولات الفرس المستميتة الاستيلاء على المدينة شيخ نقشبندي من بخارى يدعى (صوفي اسلام). ومع انه قتل اثناء معركة العام 1807 الا ان الخط الذي بدأه في (كرّوخ) خارج (هرات) استمر في ممارسة نفوذه عبر الحدود الافغانية.

وبعد ست سنوات من مقتل هذا الزعيم الصوفي- قاد شيخ نقشبندي آخر يدعى (خواجه يوسف قشغري) ثورة عقيمة للتركمان (الداليموت) و(الگركلان) ضد الحكم القاجاري ودفع حياته ثمنا لها. وفي استراباد مسقط رأس (جمال الدين الافغاني) قاد مشايخ النقشبندية ثورة مشابهة تم سحقها في 1841 بصرامة. واعدم كثير من المرشدين والمريدين.

وفي القفقاس كان أشد المقاومة التي ابداها الچچن والداغستانيون للغزو الروسي بقيادة نقشبندية صرفة وضمن اطارها. وبشخص الشيخ (شاميل) القائد الذي كان يرمي الى خلق دولة (امامية) مستقلة تطبق احكام الشرع الاسلامي على المذهب الحنفي وقد دام الصراع تسعاً وثلاثين سنة (1820-1859)[18] كان لهذه الطريقة دور رئيس في بعض جيوب المقاومة للحكم الروسي كثورة (فرغانه) في العام 1898[19]. مجددية (السرهندي) وخلفائه مالبثت ان اكتسحت العالم الغربي الاسلامي بفضل الشيخ (محمود المرادي) الذي اتينا الى ذكره وسائر خلفائه من عين الاسرة وانّك لتقرأ عن سيرتهم في "قاموس السير" الذي دونه من فرد اعضاء الاسرة - هو (محمد خليل المرادي). درس هذا المرشد سنوات عديدة في دمشق في اواخر القرن الثامن عشر وقضى السنوات الثلاثين الاخيرة من حياته هناك. كان عميد اسرة نقشبندية اكد تاريخها الطويل مقدار مايكسبه التقى والصلاح والمعرفة الدينية والفضائل الروحية من سلطة وجاه في المجتمع. فحفيداه (علي) و(حسين) عينا بالتوالي مفتيي دمشق للحنفية وابن حفيده المسمى (خليل) وهو الذي ارخ اللأسرة كان قد عهد اليه بمنصب الافتاء ايضاً فضلاً عن توليته منصب نقيب الاشراف. وحظي (مراد) عميد الاسرة برعاية السلطان العثماني مصطفى الثاني (1664 - 1703) فأقطع اقطاعات وافسح له بتأسيس مدارس منها المدرسة المرادية. والمدرسة (النقشبندية البرانية) في سوق سروجه بدمشق وكان من مريدي الشيخ مراد (شيخ الاسلام فيض الله افندي[20] وعدد كبير من الوزراء والاعيان وقد توفي في استنبول وضريحه قائم يزار.

18- راجع: (پ فوراتوف) و(د.ي.د اللن) في [معارك القفقاس]. كمبردج 1953 ص 47 وما بعدها. P.Muratoff and W.E.D. Allen Caucasian Baltlefeild.

19- المرادي: سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ج 4 ص 119 ط. القاهرة 1292- 1301 هـ.

20- في كثير من الاحيان يكاد منصب شيخ الاسلام في الدولة العثمانية يكون ارفع واخطر من منصب الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) فهو مصدر الافتاء الخطير. ومنصبه الديني يلي مقام الخليفة. وهو يعين بفرمان من السلطان. وكثيراً ما استخدمت فتواه في تبرير خلع السلطان نفسه ونصب آخر في محله.

-D-

النقشبندية في كردستان

مولانا خالد الشهرزوري

انقل هنا نصاً ماجاء عن هذا الدليل النقشبندي الخطير الشأن في دائرة المعارف الاسلامية:

بدء عهد جديد تمام الجدة لتأريخ النقشبندية في تركيا (دولة آل عثمان) بظهور الفرع الخالدي منها في الربع الاول من القرن التاسع عشر.

وبحكم المؤكد ان النقشبندية كانت راسخة القدم في انحاء الامبراطورية قبل قيام (الخالدية) مثلما كانت تتمتع باحترام. الا انها لم تبلغ مع هذا المكانة والرفعة والاستقلالية التي بلغتها المراكز النقشبندية الاخرى في اواسط آسيا، حتى مجيء مولانا خالد الذي جعل للنقشبندية مركز الصدارة في الاقاليم التركية وفي تركيا الى تم الغاء الطرق فيها.

مولانا خالد البغدادي المتوفى في 1827 هو كردي من شهرزور. نال الاجازة في دهلي من (غلام علي الدهلوي ت 1824) ومع انه كان خصماً لامراء كردستان الا انه لم يجهر او يتظاهر بعداء للدولة، ومع هذا فقد قوبل اول ظهور للنقشبندية الخالدية في العاصمة العثمانية بكثير من التوجس والشك. ومما زاد في الحال سوء أن (محمد صالح الكردي) اول ممثل له هناك، كان يمنع غير التلاميذ وحلقات المريدين من غشيان المساجد العامة اثناء قيام هؤلاء بممارسات الاحوال والذكر. على ان ممثله الثاني عبدالوهاب السوسي (الشوشي؟) تمكن من ان يجد حظوة لدى ذوي المقامات العالية. وجند لقضيته عدداً كبيراً من علماء الدين ورجال الادارة وارباب القلم امثال (مكي زاده مصطفى عاصم) شيخ الاسلام لعدة مرات. و(گورجو نجيب پاشا) و(موسى صفوت پاشا) من الوزراء. و(كچجي زاده عزت ملا) قاضي استنبول. وقيل ان السلطان محمود الثاني[21] بدفع وتحريض من (حالت افندي) المجدد في الطريقة المولوية[22] اقنعه بأن في انتشار الخالدية النقشبندية السريع خطورة على الدولة، فأصدر

21- السلطان العثماني (1808-1373) المولود في 1784م مايذكر له انه الذي قضى على الانكشارية. وهيأ البلاد للاصلاحات التالية.

22- تنسب الطريقة الى مولانا جلال الدين الرومي (1207-1373) ويلقب بچلبي افندي. وهو من الصوفية الكبار والشعراء الفرس المفلقين ولد في بلخ ورحل الى بغداد ثم حج الى مكة واقام في دمشق، بالاخير استقر في مدينة قونيه وفيها توفي. تتلمذ على الشيخ برهان الدين الترمذي فلقنه مبادىء التصوف. وانشأ الذكر الصوفي الذي يؤدى بالرقص وعلى ايقاع الناي ونظم اشعاراً لانشادها بالمناسبة وتلك بداية طريقة الدراويش الذاكرين. واشتهر بديوانه المسمى (ديوان شمس تبريز) وهو شعر غنائي فارسي في منتهى الرقة تخليداً لصفيّه (شمس تبريز). نشر المستشرق نيكلسن مختارات منه في 1898 مع ترجمة انكليزية. اما اشهر منظوماته (مثنوي معنوي)، فهو قصيدة كبيرة تقع في ستة كتب لكل كتاب مقدمة، ثلاث منها عربية وتبلغ عدا زها، 25700 بيت نظمها خلال اربعين سنة على ما قيل. وقد ترجمها نثراً الى العربية يوسف ابن احمد المولوي بعنوان (المنهج القوي لطلاب المثنوي - وطبعت في مطبعة بولاق بالقاهرة في 1880.

في العام 1828 أمراً يقضي بنفي كل الشخصيات الصوفية البارزة من الخالدية - الى خارج العاصمة. وكان ذلك موقوتاً اذ مالبث ان الغى امره في 1833 وعادت الخالدية الى استنبول واعيد في عين السنة تقليد (مكي زاده) منصب شيخ الاسلام مجدداً.

... وجدت النقشبندية محرمة مهدورة الحقوق بقانون اصدارته الجمورية التركية معتبراً كل الطرق الصوفية خارجة على النظام العام وكان السبب المباشر لهذا هو الثورة التي قادها في عين السنة 1925 الشيخ سعيد پالو (پيران) في شرقي الاناضول وهو شيخ خالدي نقشبندي كردي. مع ان الثورة كانت بالاصل تعبر عن شكوى الكرد ومظلماتهم وطموحاتهم - مما يتسق وتقاليد المثل السياسية النقشبندية.

وكثيراً ماضرب للمعارضة الجهادية الثورية التي قامت في وجه الجمهورية التركية مثل من (الشيخ محمد اسد) الخليفة الروحي والسليل المنحدر من صلب مولانا خالد (ت في 1931) الذي أقام 1888 في تكية (كلامي) باستنبول قبل ان يجري ابعاده الى مسقط رأسه اربيل بأمر من السلطان عبدالحميد الثاني.

الا انه عاد الى استنبول بعد (اعلان المشروطية) في 1908 ليحتل مكانه بين كبار الشيوخ هناك. وفي العام 1931 القى القبض عليه بتهمة مشاركته في مؤامرة (منيمين)[23] هو وابنه ومع ان الادلة على اسهامهما فيها كانت تافهة جداً. فقد جرى اعدام ابنه وتوفي هو في مستشفى السجن. آه.

هذا كل ماجاء في دائرة المعارف الاسلامية عن (مولانا خالد). وهو بحد ذاته دليل على مكانة المترجم له في تأريخ الطريقة النقشبندية وهي مكانة ترفعه الى مقام الاقطاب.

على انها مع غنى المعلومات التي تضمنتها وعظم دلالتها. لاتعرض لنا اي تفاصيل حول نشاط مولانا خالد في نشر النقشبندية في كردستان ولا عن حياته طوال السنوات التي قضاها في ربوعها مجاهداً في نشر الطريقة وتأليف الحلقات و سنحاول في الصحائف التالية ملء فراغ قد يتخلف في نفس القاريء عن مجهودات مولانا خالد في نشر النقشبندية من خلال ذلك الجزء من حياته الذي قضاه في كردستان.

ابو البهاء ضياءالدين خالد الشهرزوري هو من قبيلة الجاف الكبرى فرع الميكائيلي. ولد في العام 1776 بقرية قره داغ من اعمال شهرزور ويدعي انحداره من نسل الخليفة الثاني عثمان. ابوه ضياءالدين احمد حسين من العلماء المعروفين في المنطقة وقد درس عليه ثم انتقل الى السليمانية ليدرس في مدرسة القادرية التي كان يتولى امرها حينذك الشيخ معروف البرزنجي (عدوه اللدود فيما بعد) ووجد نفسه زميلاً في الدراسة لكل من عبدالكريم وعبدالرحيم ابني الشيخ معروف والى فترة من الزمن كان مولانا خالد مريداً قادرياً على حد قول بعضهم.

بعدها رحل الى سنندج (سنه) لمتابعة دروسه في الفقه والعلوم الاسلامية على يد الشيخ محمد

23- حيكت بقصد اغتيال مصطفى كمال اتاتورك واتهم بها عدد من رجال الدين العثماني وبعض الرؤساء الروحانيين.

قسيم كبير علماء المدينة وعاد بعدها الى السليمانية واشتغل بالتدريس زمنا ثم ارتحل الى بغداد وبقي فيها فترة يغشى مجالس العلماء وحلقات التدريس في مساجدها . تذكر بعض المصادر انه بلغ دمشق في العام 1805 ومنها الى مكة حاجاً.

وفيها قال له ولي هندي ان المعرفة والكرامة لن تتأتيا له هنا بل في الهند. وعند عودته الى السليمانية كرر له النصيحة (ميرزا رحيم الله) المعروف (بدرويش محمد). فقرر الرحيل الى دلهي. وكانت الهند في 1809 كما مر بيانه مركز الاشعاع النقشبندي. وقد سافر براً ماراً بطهران وخراسان وبسطام وفرقان وسمنان ونيشاپور وكابل وطوس وهرات وقندهار وكابل وبشاور.

وتختلف المصادر كثيراً في متابعة حياته بعد وصوله حتى عودته. تذكر دائرة المعارف الاسلامية[24] انه تتلمذ هناك على الشيخ الدليل (غلام علي الدهلوي) اشهر مرشدي النقشبندية في عصره.

سلك مولانا خالد وهو في الهند سبل الطرق الاخرى الكبرى السائدة وقتذاك حينا وهي السهروردية والكبروية والجشتية، ثم استقر على النقشبندية من الفرع المجددي.

وعاد الى كردستان عن طريق الخليج وايران وسجل له هناك مؤرخوه حادثة تشهد بصلابته وموقفه الحازم من اولئك الذين خرجوا عن حدود السنة:

« ... ثم انه بلغ شيراز من بندر مسقط، ثم اصفهان مبشراً بالحق والطريقة حيث استقر به المقام. وكثيراً ماكان يجتمع عليه بعض الشيعة ليضربوه أو يحاولوا قتله لأنهم كانوا عاجزين عن مقارعة حجته بالحجة. سواء في ذلك تلك التي استندت الى المنطق. أو الى الاسانيد. فقد ابى الا ان يهاجم بسيفه البتار فينكصون ويولون الادبار »[25].

ويذكر (ادموندز) نقلاً عن (ريچ) ايضاً. انه لبث اشهراً في (سنه) قبل وصوله السليمانية وفي اثناء لبثه هناك كشف الطريقة لمعلمه السابق.

ثم عاد ليستقر في السليمانيه (ربما كان ذلك في العام 1811) مستأنفاً حياة التدريس وقد ذاع صيته واشتهر امره فتقاطر اليه التلاميذ من ارجاء كردستان. وكسب عداء اسرة البرزنجه بشخص عميدها الشيخ معروف.

اسس مولانا خالد تكيته في السليمانية برعاية وحماية امراء بابان وفيها وجده (ريچ) اثناء رحلته اليها وبقائه فيها ضيفاً على حكامها وبدعوة منهم[26].

24- دائرة المعارف الاسلامية "(طبعة.1993. ص36ج 7. كتب المادة الاستاذ (حميد الگر) وهو من المتخصصين في الصوفية النقشبندية. من المفيد ان نذكر ان (ريچ) قضى ردحاً من الزمن في الهند. ولعله كان ينقل ماتداولته الالسن عن الولي او المرشد النقشبندي المعروف باسم (السلطان عبدالله) وهو (الدهلوي) عينه الذي كان معروفاً انه ذاك بهذا الاسم. وربما كان مصدر معلومات ريچ في هذا الباب مدينة السليمانيه نفسها.

25- عبدالمجيد الخاني: الحدائق الوردية في حقائق اجلاء النقشبندية ط القاهرة 1308 ص 230.

26- س Claude James Rich(1786-1823) موظف بريطاني لامع. عين بمنصب القنصل العام لبغداد ايام حكم =

وصف ريج بعبارات لاتقبل تأويلاً المقام الرفيع الذي كان مولانا خالد يحتله عند امراء آل بابان والجلال الذي كان يحظى به مقامه عندهم ثم اتى الى ذكر ماسمع عن سبب تركه السليمانية وهي الخصومة الحادة التي نشأت بينه وبين الشيخ معروف النودهي القادري. وهي خصومة واضحة الاسباب فقد اكتسحت النقشبندية معاقل الطريقة القادرية بوقت وجيز وبات نفوذ شيوخ الاخيرة مهدداً لدى السلطة الحاكمة والجماهير.

يصف ريج اولاً المقام الرفيع الذي مولانا خالد يحتله عند امراء البابان:

24 حزيران: (ص141)

يعيش في السليمانية ولي مسلم عظيم يدعى(شيخ خالد). على ان الكرد يعتبرون انفسهم من قبيل الكافرين اذا اشاروا اليه باي اسم أو لقب غير "حضرتي مولانا". وهم ينزلون اقواله منزلة الوحي أو الاحاديث النبوية. واصله من قبيلة الجاف. وهو (درويش) على الطريقة النقشبندية التى تسلمها في دهلي من الصوفي الشهير (سلطان عبدالله). ويبلغ عدد مريديه اثني عشر الفاً والكرد عموماً يلقبونه بـ(اولياء) أو (ولي). وكثيرون منهم يساوونه بمحمد نبيهم، ومن مريديه الپاشا نفسه و عثمان بك اخو الپاشا الاصغر، وكل الشخصيات المبرزة من الكرد تقريباً. ذكر لي عثمان بك انه مساوٍ للولي المسلم الشهير الشيخ عبدالقادر الگيلاني على اقل تقدير.

ويذكر في موضوع آخر (ص 147- 148 دون تعيين اليوم).

«عندما قرر محمود پاشا في النهاية الخضوع للترك. قصد الشيخ خالد الولي العظيم في

= المماليك ولم يتجاوز عامه الواحد والعشرين. فرض احترامه وشخصيته على ولاة بغداد وتقرب منه امراء آل بابان ونشأت بين الجانبين علاقة وصداقة. بدأ رحلته الى السليمانية مع زوجته في نهاية شهر نيسان للعام 1820. ولم يعقه شيء اذ كانت العلاقات بين بغداد وبين امير البابان محمود پاشا على احسنها. بلغ السليمانية ببطانة ضخمة تضم حرسه الخاص في 10 - ايار وبقي فيها حتى 15 من تموز ثم قام بجولة واسعة في ارجاء كردستان العراقية والايرانية وعاد الى السليمانية في 15 من ايلول وارقام حوالي الشهر فيها ثم عاد الى بغداد. كانت ثمرة رحلته هذه يوميات وذكريات فريدة سدت ثغرة في تاريخ كردستان الجنوبية كانت ستبقى مجهولة. واخصها بالذكر ان رحلته كانت معاصرة لايام مولانا خالد الاخيرة في العاصمة البابانية فسجلت لنا يومياته الوقائع والاشاعات التي احدثها رحيله المفاجيء. مما ستثبته برمته في الصحائف التالية. نشرت مذكراته هذه زوجته بجزئين في العام 1846بعد وفاته المفاجئة بوباء الكوليرا - وبعنوان حكاية اقامة في كردستان ط. لندن Narrative of a Residence in Kurdistan [نشر العميد الركن بهاءالدين نوري ترجمته للجزء الاول في 1951 بعنوان (رحلة جمس ريج الى كردستان) ومما اذكره اني سألت المرحوم في العام 1957 ونحن في مكتب الصديق المأسوف عليه الاديب والشاعر الكبير عبدالحقّ فاضل وكان مديراً للدائرة السياسية في وزارة الخارجية وكان المترجم آنذاك سفيراً للعراق في الاردن: ما الذي يمنعه عن ترجمة الجزء الثاني. فهتف قائلاً ان الترجمة كاملة لكني لااملك نفقات طبعه. ولم اره بعدها فقد بقي لاجئاً في الاردن بعد انقلاب الرابع عشر من تموز. ثم عاد الى العراق وتوفي فيها بعد سنتين من نهاية حكم قاسم. واظنه كان صادقاً في الابانة عن عجزه المالي. فمما سمعته ان زوجته عرضت مكتبته للبيع بسبب من ذلك مما يذكر ان العميد بهاءالدين هو ابن الشيخ النقشبندي نورالدين الشيرواني الشيخ المعروف صاحب المؤلفات المتوفى في 1942.

السليمانية يرافقه عمه عبدالله پاشا واخواه عثمان و سليمان. وهؤلاء الثلاثة اقسموا امامه يمين الولاء لمحمود پاشا. وبما انهم كانوا يدركون والي كرمنشاه قد يحاول اغراء احدهم و يطلقه ضد الپاشا و المصالح التركية، فقد اقسموا امام الشيخ اليمين على القرآن والسيف وحلفوا بالطلاق بأن لايفضّوا اي رسالة تردهم من الفرس أو الترك الا في منزل الشيخ خالد و بمحضر كل الاطراف المقسمة على هذا العهد».

ويصف في اليومية المؤرخة في 20 من تشرين الاول ظروف رحيل مولانا خالد عن السليمانية:

« في صبيحة هذا اليوم فر الشيخ خالد العظيم. ولم تعرف الجهة التي قصدها حتى الآن. كان رحيله عن السليمانية سرياً وفجائياً والكرد قبل ارتحاله يرفعون مقامه فوق مقام الشيخ عبدالقادر (الگيلاني). وكان الپاشا يظل واقفاً في حضرته. ويحشو غليونه تبغاً. اما اليوم فهم يكفرونه ويرددون الحكايات عن كفره والحاده. وكان سبب فقدانه مكانته وفاة ابن الپاشا في 12 من تشرين الاول. فقد زعم انه سيشفيه وانه فحص الكتب الالهية حوله... الى آخر هذه الحكايات. على ان الرواة اختلفوا في اسباب رحيله الحقيقية اختلافاً كبيراً. فزعم بعضهم انه دأب على الوقيعة بين الپاشا واخوته الذين كانوا يريدون ان يلتزم جانبهم. وقال آخرون انه اعتزم انشاء طريقة صوفية جديدة وجعل نفسه الرئيس الروحي و الزمني للبلاد كافة. هذا وان كل السادة والعلماء. وعلى رأسهم الشيخ معروف كانوا من مبغضي الشيخ وحاسديه. فطوال وجوده كان نفوذه وسلطانه يطغي على نفوذهم وسلطانهم.

وتبين فيما بعد ان مولانا خالد رحل الى بغداد (1813) ونزل في المدرسة الاحسائية الاصفهانية وزاول فيها الارشاد والوعظ والتدريس ولم يلبث طويلاً فيها بل عاد الى السليمانية واحتل مكانته الاصلية وقام محمود پاشا بابان ببناء زاوية ومسجد سلمهما له. وفي العام 1822 ارتحل الى الشام.»

كان الشيخ معروف (النودهي) رأس الطريقة القادرية[27] ممسكاً بزمام الامور في السيلمانية واقليم شهرزور وحيثما وجدت القادرية لها سبيلاً في كردستان الجنوبية حتى مجيء مولانا خالد الذي اكتسح الميدان بقوة شخصيته وفضائله وصفات وميزات في تعاليم طريقته جببها الى القلوب كافة فاعتنقها الرفيع والوضيع والأمي والعالم. ولمن كان لديه من الاتباع المخلصين اثناء عشر الفاً كما نقل ريج هو اذكى وابعد نظراً واكثر حكمة من ان يقامر بمركزه والمنزلة التي نالتها دعوته على انقاذ ابن الپاشا من براثن الموت، بواحدة من (الكرامات) التي يعزوها الجهلة في كردستان الى مشاهير الروحانيين

27- [1753-1838] من فرع سەرگەلو المنحدر من بابا رسول لسادة البرزنجه وهو الجد المباشر للشيخ محمود الحفيد. كان مرشداً للطريقة القادرية في السليمانية وانحائها. عالم كبير متضلع باللغات العربية والتركية والفارسية وشاعر رقيق له مؤلفات وقصائد بكل لغة منها فضلاً عن الكردية ولد في شهربازير وتلمذ على يد علماء عصره. معظم تآليفه جاءت نظماً وهي صوفية المقصد والمنحى كما انه الف في اللغة والعلوم الدينية والاصول والفرائض. توفي في السليمانية.

واصحاب الطرق وينسجون حولها اساطير يكسونها ضروباً من الخيال.

ويذكر پى رەش في هذا الصدد نقلاً الشيخ (محمد الخال[28]. كان خلفاء (مولانا خالد) قد انتشروا في كل جهة، من الشام الى استانبول الى السليمانية. وتشكلت حلقات ذكر ومراكز تدريس يستوحونه تعاليمهم من التلمذة على ايدي خلفائه. وكان من ابرز خصومه الشيخ معروف النودهي ونفر من العلماء الذين شكلوا مع ارباب الطريقة القادرية جبهة معارضة. والفرق كان واضحاً بين مولانا خالد وبين الشيخ معروف". «فالثاني يمثل اتجاهاً دينياً محافظاً يشوبه الخوف من العواقب، جامداً على الحرفية ولم يأت بشيء جديد.»[29].

ويضع الشيخ محمد الخال ثبتاً باسماء تسعين من كبار العلماء الذين تسلموا الطريقة النقشبندية عن مولانا خالد. وهم من شتى الديار والجنسيات في العالم الاسلامي[30].

مثلت الخالدية المجددية دينامية وفاعلية تحض على الانطلاق الفكري وامتحان النفس من دون تحديد معين اي "السلوك" كما تفضي به الطرائق الاخرى[31]. وهذا ماحببها للنفوس وما جعلها منافساً خطيراً.

يتراءى لي. ان لم يكن رأيي منطقياً فهو بالتأكيد عملي-ان مولانا خالد آثر ان يترك الساحة مختاراً لامجبراً، ومنتصراً لامخذولاً. وانه كان في عمله هذا اميناً على مبادىء الصوفية وتعاليمها. كان من جهة مطمئناً الى رسوخ قدم طريقته في كردستان بحجم خلفائه واشياعه الذين قدرهم (ريچ) باثني عشر آلفاً. وما فعل مافعل الا تفادياً لخصومة عاتية، واطفاء لفتنة عمياء قد تهلك فيها انفس وتسيل خلالها دماء ابرياء. فالكرد كانوا ومازالوا يجهلون طريقة اخرى غير السيف في حل خلافاتهم

28- باحث واديب كردي جمعتني به صداقة ومودة ايام كان بمنصب قاضي الموصل الاول في محاكم الموصل وانا ازاول المحاماة في وسط الخمسينات. بلغت علاقتنا حداً انه عهد الي بمراجعة الديوان العربي للشاعر الكردي عبدالله البيتوشي (1748-1806) لتقويم ابيات اساء الناسخ نقلها واضافة بعض الشروح اللغوية الى شروحه. وقد تم طبعه ولم ار الشيخ بعد نقله من الموصل الى مثل وظيفته في السليمانية الا مرة واحدة في اوائل الستينات وبمحض الصدفة في مكتبة دار الآثار ببغداد وظهر لي انه كان متتبعاً لايام عصيبة مرت بي وقتذاك مع السلطة. وجمعنا عناق اخوي حار. وكان لقاءً اخيراً اذ سمعت بوفاته قبل اربع سنوات أو خمس وانا في السويد.

29- العبارة التي تبتدي بـ(فالثاني كان...) هي اضافة (پى رەش).

30- المرجع السالف. محمد الخال الص 38 و 53.

31- باعتمادنا على ماجاء في (نفحات الانس) للشاعر الصوفي الكبير الفارسي النقشبندي (نورالدين عبدالرحمن جامي (1414-1492) المتقدم ذكره. ان السلوك = سبيل السفر هو الطريق التي يختارها الصوفي الى الله بارشاد الشيخ لينتهي به الى بلوغ اعلى درجة روحية يسعه بلوغها. ويفترض السلوك قصداً يعتمده السالك بوضوح وبصيرة متابعاً اياه بترتيب ونظام يقرره المرشد ويسمى (سالكا) وهو يمر بعدة محطات أو مراحل "مقامات" وان يصل الى درجة الكمال فيها قبل ان يتسنى له المعرفة بالله ويدعى "واصل". يذكر جامي ان السلوك في النقشبندية يختلف اختلافاً بيناً عما يدعى بـ(الجذبة) وهو حالة وقتية يفقد التلميذ الصوفي الممارس خلالها وعيه فيقال انه في حالة انجذاب روحي مع الذات الالهية.

الفكرية: ان البغضاء والخصومة والتنافس على المراكز، والانانية وما اليها من الرذائل التي تهفو اليها النفوس، هي اولى ما يجب على الساعي او "السالك" نبذها وكلها لايستقيم مع "المحبة" أو "العشق" الالهي الذي يسعى اليه السالك. [راجع رسالة الصفح والمصالحة التي كتبها مولانا خالد للشيخ معروف في المحبة بكل الطابع الاخلاقي الذي يسمه.] ولا يتحقق ذلك كما ذكرنا الا بانكار الذات والفقر والصبر والتوكل والمحبة وكل "حال" من هذه "الاحوال" يهيء النفس للحال الآخر. ولاسبيل لنا لاجتناب الاقرار ان الصوفية احبوا الله احياناً عن طريق محبة جيرانهم، لاسيما اولئك الذين يخالفونهم في الدين او المذهب او المنحى الصوفي. ومثل هذه المحبة مايحرم الدخول في معارك دنيوية لاغراض شخصية او منافع دنيوية. وما اقدم عليه مولانا خالد هنا من تركه الساحة هو خير تطبيق لتعاليمه ولتعاليم الصوفية مؤدياً الامانة كاملة لفلسفتها بتفاديه وقائع عنفٍ لامهرب منها في المجتمع الكردي البدائي الساذج[32].

وكل ما عقب ذلك ايد ان جوهر خوف الدليل القادري على مكانةٍ له عند امراء آل بابان والمجتمع الكردي قد زال خطر المنافسة عليه برحيل الدليل النقشبندي الكبير الى بغداد. الا ان (النودهي) وجد تلك المدينة قريبة جداً برسالته المسماة (تحرير الخطاب) التي كفر بها مولانا خالد[33] - إلى الى سعيد

32- يقدم لنا ادموندز دليلاً على ماذهبنا اليه بحكاية شائقة حول سبب الخصومة، رواها له احد المريدين النقشبندية في العشرينات وهذا ماذكره:

"حقد الشيخ معروف على الشيخ خالد إذ كان من تلاميذه كاك احمد ابن الشيخ معروف نفسه والشيخ عبدالرحمن الطالباني. فأمرهما بان يذهبا لقتل هذا الشيخ الكبير المقام، فانطلقا لكن اقدامهما اصيبت بشلل عند اقترابهما منه لايزول الا عندما يهمان بالقفول. فراحا يرددان الادعية المناسبة للموقف بحسب طريقتهما دون جدوى. وعادا خائبين، فما كان من الشيخ معروف الا وبعث بهما ثانية وفي هذه المرة اصيبا بعمى وقتي واذ ذاك تحققا بأن الاصرار على المحاولة لاطائل تحته وان من الحكمة ان يتقدما للسلام على هذا الولي زاعمين انهما من قصاده الاتقياء وبهذا الزعم تسنى لهما دخول الحضرة، ووجد كاك احمد شخصاً معتكفاً في غرفة شبه مظلمة مشتملاً بابيض اللباس فاشهر مسدسه الا ان يده شلت. وعندها جاء القادمان وقبلا قدمي هذا الذي استهدفا قتله وطلبا هدايتهما الى الطريقة النقشبندية فحقق لهما طلبهما. الا ان الشيخ عبدالقادر الگيلاني ظهر لمولانا خالد في الحلم وقال له ان مكانه ليس هنا، بل في سورية. وعندها قرر الرحيل. ومهما بعدت الحقيقة في هذه الاسطورة فان مقامه خارج السليمانية ظل على حاله واستمر نجمه في صعود اولاً في بغداد ثم بدمشق حتى وافاه الرحيل. آه. ويذكر محمود شكري الألوسي: المسك الاذفر: ط بغداد 1930 الص 82 وما بعدها "انه كان للخالدية النقشبندية مركزها في المدرسة الاحسائية ببغداد اتخذها مولانا خالد. ومن بين مريديه آنذاك الشيخ موسى الجبوري. وعدد من اعضاء اسرة السويدي. والشيخ عبدالله الحيدري مفتي بغداد وهو كردي عميد الاسرة الحيدرية المعروفة في كل من اربيل وبغداد.

33- لم يكتف النودهي بهذا. فقد بعث في اثنا احتدام المعركة برسالة الى الملا عثمان الجليلي الموصلي- من علمائها المشهورين انذاك يزين له تأليف كتاب في الطعن بمولانا خالد. فامتثل والف رسالة هي بمثابة شرح لرسالة تحرير (الخطاب) سماها (دين الله الغالب) تأييداً له. ثم استدعى العالم الكردي الكبير (ملا يحيى المزوري) فرحل هذا الى السليمانية وجالس مولانا خالد وحادثه طويلاً حتى تحقق من فضله وعلمه فعاد وكله ثناء عليه وبادر الى تأليف رسالة سماها (ثماني نصائح) موجهة الى النودهي فيها ينصحه بنبذ خصومته. وتبين للشيخ اخيراً (بعد رحيل خالد طبعاً!) مبلغ خطئه في تكفيره وكتب له معتذراً وطالباً الصفح وانتداب للصلح اثنين من العلماء، اللذين قصدا بغداد ليبلغا=

باشا ابن سليمان باشا الوزير والي بغداد يحثه فيها على التخلص من القادم ولانعلم مدى تأثيرها في اعتزام مولانا خالد الرحيل الى دمشق[34] بناء على دعوة تلقاها من الشيخ حسن مرادي مفتي دمشق وآخرين من الاعيان والعلماء. وتزوج هناك بواحدة من أسرة آل (الغزي) المعروفة بعلمها وتقاها ومكانتها الرفيعة في الشام. وكتب الكثير عن وقائع حياته خلال الخمس عشرة سنه التي قضاها هناك، اختلط فيها المصنوع بالثابت، والمنحول بالمتواتر.

هناك منها الجانب الحري بهذا المرشد النقشبندي والمنجسم مع تعاليم النقشبندية. كالبعد بالقلب عن متاع الدنيا. فقد نقل عندما توفي ابنه، هذا الكلام الذي يتضمن التسليم الكامل للارادة الالهية:

"مرة طلب منه احدهم الدعاء له كي لايصاب بالطاعون فرفع يده طالباً ذلك. وعندها ابتدره هذا قائلاً: مولاي فاعملها لنفسك ايضاً. فاجاب قدس سره: باي وجه الاقي ربيَ لو اني لا ارغب في لقائه؟ وفي يوم الاربعاء السادس والعشرين من شوال اصيب ابنه الشيخ بهاءالدين بالطاعون وكان صبياً عالي الشمائل في الخامسة من عمره. وشمل الحزن عليه كل صوب ثم انتقل الى رحمته تعالى صباح الجمعة فقال الشيخ (اي مولانا خالد) احمد الله تعالى ذا الجلال والقدسية للصبر والغبطة اللذين انعم عليها بهما. ارسلت هذا الصبي قبلي وان شاء الله فسيكون لي ذخري عند الهي و مغناطيساً يجذبها لنقفو اثره» ثم ارتسمت على وجهه الكريم بسمة وطفق يتحدث عن نعمة موت الابناء وما يستبطنه من مغزى. وكيف انهم سيضعون ارجلهم على باب الجنة ليتشفعوا لآبائهم عند دخولها آمنين[35].

وعندما اصيب هو بالطاعون في العام 1827 وادرك بانه مشرف على الموت استدعى زوجاته الثلاث معاً وطلب منهن ان لايفترقن او يختلفن وان يحفظن تعاليم الطريقة. ثم ترك وراءه كل شؤون الدنيا وقال قدس سره:

= مولانا خالد ندامته... [محمد الخال] المرجع السالف. نقلاً عن بي رتش المرجع السالف الص 12-13] - [ادموندز المرجع السالف. يذكر على سبيل المضاهاة بين الدليل النقشبندي (خالد) والدليل القادري مانصه:

لاشك في ان الشيخ معروف النودهي وهو في الثامنة والستين كان بمركزه الثانوي ابعد عن لبس الجبة التي تركها منافسه الشهير في الميدان. (المرجع السالف: الترجمة ص 57).

34- من المنحول والمصنوع الذي اتخذه بعضهم دليلاً على تمسكه بالسنة وتعامله مع الاديان السماوية ماروي مثلا انه رفض اثناء ماكان في اورشليم وهو في طريقه الى مكة للمرة الاخيرة - دخول كنيسة القيامة فقالوا له ان الشيخ عبدالرحمن الكزبري نفسه قد دخلها. فقال مولانا خالد: غريب منه ان يفعل ذلك لانه بهذا خالف الحديث الذي روي عن النبي المجتبى: من دخل بيعة كمن دخل بيت نار (الخاني المرجع السالف الص 245-246) والواضح ان المقصود هنا بيت نار المجوس والمجوس هم ايضاً من اهل الكتاب. وليس لي ان اقرر في هذا المقام مقدار الصحة في الرواية والسند المعزو للحديث فالحديث منحول والقصة لااساس لها. ومما اذكره في هذا الصدد هو ان الخليفة عمر ابن الخطاب كان قد اختط سنة للخلفاء من بعده اذ رفض اداء الصلاة في هذه الكنيسة بالذات عندما فتحت اورشليم القدس صلحاً. خشية ان يقدم المسلمون بعدها على تحويلها الى مسجد.

35- محمد ابن سليمان (المرجع السالف) ص 51.

اطلب منكن ان لاتسألانني عن اي شيء من الآن فصاعداً. لم اترك لكن ولخلفائي اي شيء قد اطالب به. ورغبتي الوحيدة هي ان اتوجه بذاتي الى العناية الالهية خالصة ولا اريد ان يأتيني احد غير مرة واحدة وقولوا للقادمين اني لاارغب في ان يخاطبني احد منهم[36].

ويذكر (الخاني) ان البطل الجزائري عبدالقادر، صار واحداً من مريديه وقد التقاه اثناء قيامه بفريضة الحج مع ابيه في العام 1823 [37].

* * *

من بين الآثار القلمية التي تركها مولانا خالد. تعليقات على مقامات الحريري[38] ومجموعة من الرسائل في امور روحية. ورسالة في الطريقة النقشبندية. ورسالة في "الفرق" بين مذهبي الاشعري والماتريدي"[39] يلتزم مولانا خالد في رسالته جانب الاشعري بخصوص الارادة الحرة التي لايقرها الماتريدي. ويذكر الخاني (ص256) ان هذه الرسالة نالت شهرة كبيرة وقد ترجمها من العربية الى التركية سليمان باشا الوزير وهو واحد من الذين تآمروا على خلع السلطان العثماني عبدالعزيز في العام 1875.

وقد وجدت مقطوعة من ديوانه ترجمها له صديقنا الباحث الاستاذ محمد جميل روزبياني- في كتاب تاريخ السليمانية للمؤرخ محمد امين زكي الذي ترجمه الى العربية وهي بجملتها لاتخرج عن الابتهالات والمدائح التي اعتادها الصوفيون للتقرب الى الذات الالهية. وهذه هي:

ليس لاحد عشيق كعشيقي رفيع المقام. بهي الطلعة. اسيل الخد وضاء المحيا كالبدر. يحكي البان في قوامه، والريم في نظراته، والقطا في مشيته شذاه كالياسمين. ومحياه كالقمر وخلقته كالملاك. وهيئته كشجر الحور. في طبعه جور، وفي حبه تعذيب وهو ملك انوف او صنم ثمل، لحظاته فتاكة... من عينيه الفاتنتين. وغنجه ودلاله يسلب العقل ويسبي الروح. وينفذ له الصبر ويخفق له القلب.

من تذكر طلعته المتقدة وخاله العسجدي صرت اصعد الزفرات بانفاس ملتهبة محرقة.

وجسدي غدا اعواداً تشتعل في مجمرة قلبي.

36- محمد ابن سليمان [الحدائق الندية في اداب الطريقة النقشبندية والبهجة الخالدية.] على حاشية. سيرة خالد ابن عثمان ابن سند الوائلي في اصغر الموارد من ملال احوال الامام خالد ص51. ط القاهرة1313هـ.

37- الخاني المرجع السالف ص 281.

38- ابو القاسم بن علي (1054-1122م) العراقي احد البلغاء، والنحويين الكبار والمقامات هي اشهر ماكتبه وهي خمسون، تقص مغامرات بطلها زيد السروجي.

39- الاشعري (874-936) هو ابو الحسن علي احد المتكلمين ومؤسس مذهب الاشاعرة. والماتريدي: محمد ابن منصور السمرقندي (ت944م) احد الفقهاء الحنفية الكبار ومن علماء الكلام هاجم الاشعري لنقده المعتزلة ودافع عن افكار المعتزلة.

-E-

نظرات في رسالة النقشبندية الروحية:

نبهت في الصحائف الاولى من هذا البحث الى الدور الذي قدر للشيوخ الروحانيين ان يقوموا به في مجرى الحياة السياسية والاجتماعية الكردية في مطلع القرن التاسع عشر والى تزايد اهميته بازدياد الوعي القومي والنزوع الى التحرر السياسي. ولايسعني وانا بهذا الصدد الا تقويم هذا الدور على ضوء التعاليم الصوفية عموماً والطريقة النقشبندية خصوصاً. فهو جزء هام من التأريخ الكردي العام. ووضع هؤلاء الشيوخ المجاهدين في المنزلة التي يستحقونها من هذا التأريخ واجب لايمكن اغفاله باية حال.

كانت قيادة المشايخ الروحانيين وارباب الطرق. في الفترة التي يمكن تثبيتها ببداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى العقد الثالث من القرن العشرين - تبدو اكثر نجاحاً بما لايقاس من القيادات الكردية التي سبقتها خلال قرن واحد من الزمن على الاقل. لاسيما بعد اختفاء آخر الامارات الكردية الاتونومية شبه المستقلة.

ان تفهما لشخصية شيخ (دليل) الطريقة واسلوبه في جذب الاتباع والمريدين واحتوا،هم باخلاص وطاعة له كادا يكونان مطلقين، هو من الضرورة بمكان.

في عالم التصوف تبرز شخصية الدليل او القطب او الشيخ بما يعزي اليه من صفتين: "البركة والكرامة" وتتداخل هاتان الصفتان في كثير من الاحيان، فمن حلت به البركة لابد يكون صاحب كرامات" وتبدو فاعلية هاتين الظاهرتين من قوة شخصية الشيخ وتفهمه الطبيعة البشرية وسلوكه الشخصي. وهو قطعاً ارقى ذهنية وعلما من تلاميذه ومريديه. يدهشهم بوصوله الى حل معضلة حياتية او فكرية عجزوا هم عن تعليلها او حلها. هناك اشياء كثيرة تبدو فوراً واضحة للشيخ الصوفي لايمكن ان يبلغها الرجل العادي، فهو اذن يمتاز عنهم بأنه ذو "بركة" أو قدرة على كشف ماغمض. وتفسير ما استغلق بنجاح كبير، فتروى الروايات عن قدرته تلك ويبالغ فيها ويضخم وتتسامى المخيلة في اختراع روايات عن خوارق ومعجزات او "كرامات" لا اساس لها من الواقع تعزى الى الشيخ الدليل بغيابه في حالة حياته او موته. بل يعزى اليه ما يعد شذوذا عن المألوف.

كثيراً ماتتخذ حكايات الخواجه نصرالدين، وهو من كبار صوفيي القرن الرابع عشر ذكروا انه كان قاضياً في قونيه امثلة للتعليم عند الصوفية ولكل حكاية، فضلاً عن جانبها الفكاهي رموزها الصوفية واهدافها التعليمية[40].

40- رغم ان الغموض يحيط بهذه الشخصية الصوفية الفذة. فقد شاء سوء حظه ان تخلط حكاياته التعليمية التي لاتخلو من طرافة وفكاهة في احيان كثيرة - بما عزي الى (جحا) وهو شخصية اسطورية قيل انه كان يعيش في الكوفة ايام حكم العباسيين الثاني. واود التأكيد هنا على المقام الكبير الذي تحظى به حكايات هذا الصوفي الرمزية. وامامي الآن كتاب عنوانه: "الصوفيون" The Sufis من تأليف الشيخ ادريس شاه الهاشمي ط نيويورك 1964 وهو =

وهذه الحكاية تعرض مثلاً "للبركة" او ماندعوه اليوم بالحاسة السادسة.

قال الخواجه نصرالدين لرجل سرقت نقوده.

- الله يعوضك.

فأجاب السائل.

- لااری کیف سيعوضني.

فاسرع الخواجه من فوره به الى اقرب مسجد. وطلب منه ان يقف في زاوية. ثم بدء نصرالدين يبكي وينتحب طالباً من الله ان يعيد الى الرجل دراهمه العشرين المسلوبة. واحدث صخبة وصخباً عظيماً اضطر المصلون معه الى ان يجمعوا له الدراهم العشرين فيما بينهم.

قال له الخواجه بعدها:

- قد لايمكنك ان تفهم كيف تسير الامور في هذه الحياة. لكن ربما ستدرك ما حصل في بيت الله.

وتتوالى "كرامات" الشيخ لتشيع وتجتذب العديد من القصاد والمؤمنين بمقدرته فيها، فيأتونه قاصدين لتنتظرهم مفاجأة أخرى تفوق ماسمعوه عن هذا الرجل العظيم، من لطف وبشاشة وبساطة في العيش تقرب من الخصاصة غير ماالفوه تماماً من الاغا او البك او الزعيم القبلي الكردي، هاهم ينعمون بضيافته قدر ما طاب لهم المقام ويعاملون في مقره بروح الاخوة والمساواة حيث تفنى الفروق ولا يحس لها بوجود.

ولا يستطيع الاجانب الاوربيون كتمان دهشتهم من هذه الظاهرة في تكية شيخ طريقة بمقارنتها بتلك التقاليد الطبقية القاسية المفروضة على الفلاح الكردي او القبلي. وخير مثال لذلك هو مالاحظه صاحب كتاب (مهد البشرية) عند زيارته تكية الشيخ عبدالسلام الثاني البارزاني، كم كانت دهشته

= كما يعرفه الناشر: الشيخ الاكبر للصوفية في سردانا بالقرب من دلهي وان اسرته جاءت من بغمان (بلغتين عند الجغرافيين العرب). وارجح انه نقشبندي الطريقة وان لم يصرح بذلك. ففي كتابه هذا الذي عدد صفحاته الاربعمائة خصص فصلاً كاملاً (الص56-103) لشرح الدلالات الصوفية في الحكايات المعزوة لنصرالدين الصوفي وانا لااستطيع كتم اعجابي بالتخريج التعليمي (تلقين) الذين يعرضه مؤلف كتاب "الصوفيين" في هذه الامثولة الشائعة، وغيرها «اخذ نصرالدين حملاً من الملح الى السوق. وخاض حماره غديراً فذاب الملح. وعندما بلغ الضفة المقابلة اخذ يقفز ويمرح وقد زال الحمل عن ظهره. الا ان نصرالدين استاء وغضب. وفي الغد حمل حماره هذا صوفاً وسلك عين السبيل. وكاد الحمار يغرق بسبب امتصاص الصوف الماء اثناء عبوره الغدير».

قال نصرالدين لمريدي حلقته: هذا يعلمكم بأنكم ستحصلون على شيء ما كلما عبرتم ماء. في هذه الامثولة استخدمت كلمتان خصوصيتان [التعابير الصوفية كلها عربية الارومة]. الملح والصوف. فالملح هو من الملاحة والجودة والحكمة. والحمار هو رمز للانسان فبالتخلص من حمل الفضائل وكل ماهو حسن يشعر الفرد بأنه أحسن حالاً ويفقد اتزانه. والنتيجة انه يفقد طعامه لأن نصرالدين وقد فقد الملح لايستطيع ان يشتري للحمار علفاً. وبطبيعة الحال فان الصوف هنا يرمز الى الصوفي. في الرحلة الثانية ثُقُل حمل الحمار بسبب الصوف طوال الرحلة الى السوق الآ ان النتيجة كانت افضل لان الخواجه باع الصوف وقد اصبح اثقل من السابق بثمن اغلى وامن للحمار علفه. [الص 64-65].

عندما وجد الشيخ المهاب الجانب يعيش في كوخ لايختلف عن سائر اكواخ قرية بارزان الاخرى. وبصدد "البركة" في هذا الشيخ يروي صاحب «مهد البشرية» الحادث التالي:

كان يوجد نزاع قبلي طويل الامد بين قبيلة تخوما (الآشورية) وبين بعض جيرانهم الكرد المسلمين. انفجرت براكينه مؤخراً وبات ينذر بشر مستطير وحاول الطرف المسلم محاولات غير طيبة لاقناع اخوانه الآخرين في الدين لشن حرب الجهاد. واصبنا براحة عندما علمنا ان شيخ بارزان تدخل لفض النزاع تدخلاً جدياً حازماً بعد ان رفض الموافقة على اعلان الجهاد رفضاً قاطعاً ومنع اتباعه ومريديه عن التدخل. اقحم نفسه في هذه القضية لانه حريص على الامن واشاعة النظام. اذ انه لم يكن مرتبطاً باي التزام ادبي مع التخوما لاسيما بعد ان رفضوا ايواءه عندما كان الجيش التركي يتعقبه. وبحرمان الجهاد (بركة) الشيخ وموافقته تطاير في الفضاء متبدداً كغاز فقاعة الصابون المنفجرة[41].

ويطيب لي بهذه المناسبة أن اعالج ببعض تفصيل مسألة الكرامات التي تعزى بدون حدود ولااقتصاد الى الولي أو الشيخ الدليل الصوفي كردستان وارها ظاهرة من مظاهر الطبع الكردي الشديد الاعجاب بالبطولات لتقديس طهر النفوس وتقاها الطبيعي غير المصطنع.

للكرامة والكرامات[42] معنى خاص في عالم الدين والتصوف. وهو الموهبة او النعمة الخاصة التي يمن الله بها على اوليائه ورجاله الصالحين. ويحميهم ويعينهم. تبدو بمجموعة لاتدخل تحت حصر من الروايات والحكايات التي يتناقلها الناس عن "كرامات" في حياة هذا الولي أو ذاك ضخمت وبولغ فيها وشوهت لكنها لاتخلو من اساس واقعي لاعمال أو مأثر لاشك في حصولها اثناء حالات "الانجذاب" أو "الوجد" الصوفي. ينزل المسلمون ذلك منزلة الحقائق ولايشذ عنهم مؤرخوهم الفلاسفة من امثال ابن خلدون (انظر المقدمة) او علمائهم من امثال ابن سينا (الاشارات والتنبيهات). والحقائق ترغم هؤلاء وغيرهم على الاقرار بأن هناك اسراراً في الطبيعة مازالت معماة. وفي الاسلام الحنيف ليس هناك «طبيعة) التي تقابل لفظة Nature. فمفهوم الكرامة في افضل الظروف هو سنة اشترعها الله، تختلف عن "المعجزة" أو " الاعجوبة الآنية". في انها لم تجر بارادة الله لنبيه برهانا على صحة رسالته. وهي كذلك غير مقرونة "بدعوى النبوة!" أو "التحدي" اي تحدي غير المؤمنين برسالته. وتختلف الكرامة عن "العون" في ان من جاءه العون وهو مسلم لايملك تجربة دينية خاصة. وتختلف

41- مهد البشرية: الحياة في شرق كردستان تأليف القس ويكرام .W.A.Wigram من ترجمتنا. الطبعة الثانية. شيكاغو 1996. ص 135 ومابعدها. واسم الكتاب بالاصل The Cradle of Mankind [يحسن بالقاريء الرجوع الى الفصل السابع الخاص بشيخ بارزان الص 127-146 من الترجمة.

42- لاحظ (گولدتسيهر) وغيره من الذين درسوا العقيدة الاسلامية وتعمقوا في التصوف الموافقة العجيبة بين "الكرامات" وبين الكرامات المسيحية Xapeoramata خورعا في اللفظ والمعنى (انظر الفصل الثالث عشر من رسالة الرسول بولص الى اهالي كورنش]وهو امر يدعو الى الدهشة حقاً ولايمكن ان يكون وليد صدفة. والظاهرة الدينية وراء الاثنتين هي واحدة، على ان الصلة اللفظية قد تكون السريانية التي قامت بنقل اللفظة اليونانية الى العربية على ان الكنيسة السريانية تسمي الكرامات اليونانية مَوهَباتا وهي بالضبط موهبة وموهبات بالعربية. ولنقف عند هذا الحد خشية ان نجر القاريء الى متاهات فيلولوجية لاطائل منها.

ايضاً عن "الارهاص" وهو معجزة تَوقَعٍ تتقدم النبي قبل الدعوة. وهي غير "الاستدراج" او "الاهانه" لأنها تضلهم السبيل وتعرضهم للعار. والنسفي (ت 1142م) وهو من فقهاء الحنفية الكبار يذكر في (العقائد) ان الولي يجب ان يخفي كراماته وينكرها. في حين يتحتم على النبي ان يكشف عنها وقد يكون الولي غافلاً عن كراماته في الوقت الذي كان النبي على علم تام بها. على ان "الكرامة" التي تتم للولي قد تسجل من قبيل المعجزة للنبي الذي ينتسب الولي اليه ويستشفه.

أخيراً ينبغي على الولي الذي تعُزي اليه الكرامة تجاهل الامر وعدم ابداء اهتمام بها لو بلغه ما اشيع حولها. او ان ينظر اليها على اية حالٍ بمثابة امتحان له لاامتياز خص به[43].

ولم ينج شيوخ الصوفية من الخيال الكردي الذي ينسج حول خوارقهم وكراماتهم فالمهابة والشهرة لهما وزنهما في هذا الباب، والامثلة تضيق على الحصر. وهاك واحدة اثبتها لنا "هاملتون" مؤلف كتاب "طريق في كردستان" رويت له عن كرامات الشيخ محمود الحفيد:

"زعيم ديني كبير. ذو نفوذ عظيم، اشتهر ببسالة واقدام لايعرفان حداً. خرج من كبرى المعارك التي خاضها سليماً لم يصب بخدش مما حدا بالناس الى ان ينظروا اليه بتلك الرهبة الدينية الخاشعة، حتى قيل ان الرصاص لايؤثر فيه. وكثيراً ما سمعت من مراقبي عمالي الذين حاربوا الى جانبه يرددون مثل هذا القول. واكد لي احدهم قائلاً:

يشهد الله على ما اقول، رأيت الرصاص يخترق جسم الشيخ فيقتل من يليه اما هو فلا يصاب باذى. ان قتله في المعركة غير ممكن..."[44]. لكن علينا الى جانب "الكرامات" المعزوة الى شيوخ الصوفية في كردستان ان نبحث عن مصدر آخر لشهرتهم ونفوذهم.

لاحظ الباحث الكبير في الشؤون الكردية (الاستاذ پيير روندو) انه تقريباً ومن دون استثناء: كل مؤسس لخط مشيخي في هذه البلاد هو من غرباء المنطقة التي برز فيها. فلا هو فرد من تلك العشيرة ولا هو مواطن.

يقول (روندو)[45].

43- القشيري: الرسالة (982-1068) الهجويري. كشف المحجوب (1072). لاسيما الشعراني الشافعي: لواقع الانوار في طبقات السادة الاخيار (1565م) هؤلاء يتفقون تقريباً على هذا التفسير.

44- لو كان راوية هذه الكرامة مشاركاً في معركة دربندي بازيان التي قادها الشيخ في 1919، لرأى كيف تجرأت رصاصة احد الكفرة فنفذت في ساق الشيخ محمود وسببت له جرحاً خطيراً. [يؤكد ادموندز: المرجع السالف ص74 الرأي الذي عرضناه هنا بقوله: ليس عمل الكرامات جزءاً اساسياً او مستحسناً عند ممارسي الدروشة والشيوخ الأدلة. فالمهابة والشهرة ورفعة المقام تعتمد عملاً والى مدى واسع على درجة نجاح الدليل في اقناع الناس بحيازته قوى خارقة للطبيعة اي انه ذو كرامة].

(45) Pierre Rondo: Les tribus Montagnards de Asie Interieure: Quelque aspects sociox de populations Kurds et Assyrienne. «القبائل الجبلية في داخلية آسيا: بعض الملامح الاجتماعية للسكان الكرد والآشوريين».

[بحث منشور في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق العدد6. ص44. للعام1936].

هذا الميل للهجرة وهو ظاهرة متواصلة في تأريخ الشيوخ الصوفية الاولين تؤيد صدق المثل السائر: ليس لنبي كرامة في وطنه"

ومن اجل تقصي صحة هذا الاستنتاج سأحاول مع الاستاذ متابعة الاصول المكانية لكبار المشيخات وصغارها في كردستان حيثما تيسر لي:

يُرجع شيوخ (نهري) بمنطقة شمدينان التركية نسبهم الى الشيخ عبدالعزيز احد ابناء الشيخ عبدالقادر الكيلاني البغدادي رغم انهم نقشبندية الخط.

في حين ينسب شيوخ البرزنجة القادرية في منطقة السليمانية انفسهم الى اخوين بالأصل جاءا من فارس الى كردستان قبل 600 عاماً تقريبا[46] وشيوخ (پيران) بالو النقشبندية بتركيا يزعمون ان اجدادهم جاؤا من انحاء شهرزور (السليمانية؟)[47].

وينسب شيوخ بارزان النقشبندية انفسهم الى عشائر حكاري برأس الاسرة المشيخية الشيخ تاج الدين. انتقلوا الى منطقة عشائر الزيبار وسكنوا قرية بارزان قبل اكثر من قرنين[48].

واما شيوخ آل خانقاه النقشبندية بكركوك فهم من نسل السيد بابا علي الهمداني قدموا من "سورداش" في السليمانية، وهم يتصلون بأسرة سادة البرزنجه نسباً.

وينتمي شيوخ بامرني النقشبندية اصلاً الى مجموعة قبائل البروار في حكاري. استقر مرشدهم الأول في العمادية ثم انتقل الى قرية بامرني واسس تكية فيها.

ولاتخلص القلوب، وتنجذب النفوس بما يسمع أو يؤثر عن الشيخ كرامة من وبركة، قدر ماتملىء الأعين بتقاهم واعمالهم الصالحة وحدبهم على العاني ونصرتهم للمظلوم؛ والمقارنة عندهم لابد منها. فالأغا ورئيس العشيرة لاهمّ له غير ايجاد افضل الوسائل لاستغلالهم ومصادرة ثمرة عملهم بل وتسخيرهم في اعماله الخاصة. أو مقارنتهم بين حياة هؤلاء البسيطة وعيش الكفاف من غير تصنع او تعمد، وبين مظاهر الابهة والترف التي تلازم حياة الرؤساء الدنيويين (الأغوات والبگات)[49].

ويذكر اس. جي. ولسن مثالاً لعيشة التقشف من شيخ اثر عنه انه كان يصوم اربعين يوماً كل سنة طوال تسع سنين متواصلة ويفطر على تينةٍ واحدة وقليل من الماء كل يومٍ منها.

ويلاحظ هنا تداخل البركة والكرامة؛ فالاولى وهي قوة ارادة لايملكها الاّ القليل منحة من الله وهي بالنسبة الى الناس "كرامة" من كرامات الشيخ.

46- نيكيتين: شمدينان. روندو: المرجع السالف ص45.

47- ادموندز المرجع السالف الص 69-71. كذلك نيكيتين المرجع السالف.

48- پی رەش. المرجع السالف ص 24«... سكن قرية بارزان كل من اليهود والنصارى والمسلمين... ويذكر المعمرون من اهل القرية ان اليهود كانوا اكثر عدداً من المسلمين والمسيحيين مجتمعاً وتدل اسماء البساتين التي تجاوز المائتين على ذلك فهي مازالت تحافظ على اسماء مالكيها الاوائل.

49- S.G. Wilson: persian Life And Customs الحياة والعادات الفارسية ط نيويورك 1900 ص 103.

ولايتكلف الشيخ جهداً في جمع الاتباع والمريدين وهو على كل حال وجه من وجوه نشاطه الروحي وواجب يحتمه "سلوكه" الصوفي. انه يفسح لهم في منزله ومحل اقامته كأنهم مالكوه ويواكلهم ويشاركهم في عملهم اليومي. وباستثناء اولئك الذين يأتون ليتتلمذوا ويصبحوا له مريدين ففي اكثر الاحيان لايكون قصاده من رجال القبائل بل من فلاحين قرويين وأقنان يلوذون عادة بحماه من ظلم او اعتساف لحق بهم. وربما كان ابلغ مثال لهذه الحماية التي يبسطها الشيوخ على الفلاحين الذين لاينتسبون قبائلياً هو شيوخ بارزان النقشبندية. فوصولهم الى المكانة والسلطة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بدورهم في الدفاع عن فلاحي منطقة الزيبار ضد فرض اغاوات تلك القبيلة الاتاوات الثقيلة عليهم. وبنتيجة حروب دموية شنها هؤلاء الاغاوات بات شيوخ بارزان سادة كل المنطقة[50]. كان الطيب الذكر محمد صديق الدملوجي عميد آل الدملوجي وهي اسرة معروفة كردية الاصل من اسر الموصل العريقة. قد اعتاد غشيان مكتبي للمحاماة في كل يوم تقريباً وهو ابن الثمانين. وفي لسانه ابداً قولة الشاعر العربي يرددها:

ان الثمانين – وبُلِّغْتُها قد احوجت سمعي الى ترجمان

كان يجيد الكتابة بالتركية اجادة يفتقر اليها كثير من كتاب التركية بشهادة الدكتور داود الجلبي العلامة الكبير الى جانب اتقانه اللهجة البادينية من اللغة الكردية. وكان حديث العهد بالكتابة العربية. وقد اصلح له الدكتور داود كتابه المشهور عن (اليزيدية) قبل ان تتوثق صلتي به. ذات يوم اقبل الى مكتبي. وبيده كتاب اصدره السيد عبدالمنعم الغلامي عنوانه "الضحايا الثلاث" اتى فيه الى رواية مأساة اعدام الشيخ عبدالسلام البارزاني. قال الدملوجي ساخطاً «هذا الرجل (يعني الغلامي) لايعرف شيئاً عما حصل وينقل ماسمعه وهو يختلف عن الواقع وانا كنت معه (يقصد الشيخ عبدالسلام) في السجن وقضيت الليلة الاخيرة الى جانبه وهو صديق لي منذ كنت وكيل قائمقام عثماني في العمادية». عندها خطر ببالي فجأة أمر فقلت للدملوجي لماذا لاتكتب ذكرياتك عن الفترة؟ تردد الدملوجي قليلاً ثم وافق عندما تعهدت له بمتابعة كل مايكتب تقويماً وتصحيحاً وتنقيحاً و دفعاً الى المطبعة وتصحيحاً للمسودات. ماعليه الا ان يكتب ويوافق على ما اعمل.

وتم المشروع باكمله في طرف ثلاثة اشهر حسبما اتذكره. ويظهر ان ذلك حثه على كتابة المزيد. فباشر واكمل كتاباً وضع له عنوان "خروبات" وهو تصحيف تركي لكلمة "خرائب" ضمنه ذكريات وانطباعات صريحة عن رجال الحكم الحاليين في العراق. وشعر به شقيقه الأصغر الدكتور عبدالله الدملوجي احد رجال الحكم العراقيين. وصديق شخصي وزميل لنوري السعيد فاسرع بمصادرته قبل التجليد وقد كملت طباعته ثم اتلفه. كان الدكتور عبدالله يعلم بتحذيري اخاه وتنبيهه الى ان نشر

50- امارة بهدينان: محمد صديق الدملوجي الص 131-132. [عنوان الكتاب الكامل: امارة بهدينان الكردية او امارة العمادية. طبع مطبعة الاتحاد بالموصل في 1952]. بهذه المناسبة ارى ان اشرك القاريء في ذكرى الظروف الغريبة التي تمخضت بتأليف هذا الكتاب الصغير الحجم الجزيل الفائدة الذي القى ضوءً باهراً على حقبة زمنية يلفها الغموض من تأريخ الكرد الحديث ليغدو فوراً مرجعاً من المراجع الهامة لها.

مثل هذا الكتاب قد يهدم مكانة اخيه السياسية. وبهذا امنت العاصفة التي ماكان للنجاة منها سبيل بوصفي محرضاً ومصححاً. ولم يبق ذلك سراً فقد بدا اعتنائي بامارة بهدينان واضحاً. وادرك الموت الدملوجي وهو يؤلف كتابه عن سلاطين آل عثمان المتأخرين واسماعيل باشا خديوي مصر. وخلف ابنا وبنتاً فحسب،

بل. كما يذكر (بارث):

... حتى في يومنا هذا (في العشرينات) فان غالبية اتباع الشيخ محمود ومقاتليه لم يكونوا ينتسبون الى قبيلة معينة بل هم من طبقة الفلاحين [مسكين][51] وكما سبق بيانه في ترجمتنا للشيخ عبيدالله، بدا نفوذه على الكرد قاطبة وبسائر طبقاتهم في اوضح صورة اثناء غزوة بلاد الفرس. فهؤلاء زعماء كبار قبائليون وضعوا انفسهم رهن اشارته وسلموا له بالقيادة بالاف من اتباعهم. وبينهم (حمزه اغا) رئيس قبيلة (منگور) الشديدة البأس وقد وجدناه يستنجد بالشيخ في مرحلة صعبة من القتال، بادئاً رسالته بهذه العبارة العميقة الدلالة.

"والتمسُ منك ان لاتنساني في دعائك (صلواتك)".

ان استرخاص (المريد) المطلق للحياة استجابة لدعوة شيخه بدت واضحة مرة بعد اخرى من مسار مختلف الانتفاضات السياسية التي كان يقودها هؤلاء الاولياء، او شيوخ الطريقة، بصورة شخصية أو بناء على موافقتهم و"مباركتهم" لها. فاتباع شيخ بارزان. ويعرفون بلفظة (ديوانا= اي المنجذب) قال الكتاب الكرد وغير الكرد عنهم ان ولاءهم المطلق لشيخهم ويحلفون باسمه (خدان). يجعلهم لايترددون في القفز الى الهاوية والموت المحقق لو امرهم بذلك. وعلينا ان لانتصور بأن مثل هذه الطاعة العمياء يسهل كسبها فما ذكرنا من الفضائل والكرامات والبركة يضاف اليها العدل والشجاعة وبعد النظر في الشيخ واستعداده ومقدرته على الدفاع عن مصالح اتباعه هي حجر الزاوية. والمرشد او الخليفة او الدليل بكل جدية ايمانه بأنه ذو رسالة الهية مفروضة عليه باعبائها والامها ومتاعبها، اكثر حصافة ورعاية لاتباعه من ان يأمر احدهم لمجرد اثبات ذلك. بالقاء نفسه الى الهاوية مخاطراً بسمعته ومكانته في نتيجة محتومة وهي الموت المحقق.

لم اقرأ او اسمع عن شيوخ النقشبندية او غيرهم ممن قادوا الثورات المسلحة ضد السلطات القائمة انهم امروا اتباعهم بانفاذ رغبات شخصية او الاتيان باعمال شاذة. ولايمارى في المدى الذي تنداح اليه سلطة الشيخ. ولايضعها اتباعه تحت الفحص والامتحان. لكنْ ما أن تثبت بركته وصلاحه حتى يمحض بولاء مطلق. من هنا جاءت الدقة والحذر في تسمية الخليفة او المرشد الذي سيلي الشيخ في الزعامة

51- بارث: قواعد النظام الاجتماعي في جنوب كردستان Fredrik Barth: Principles of Social organisation in Southern Kurdistan نشرة رقم 7. للمتحف الجامعي الاثنوغرافي في اوسلو. [يعرف "المسكين" باولئك الاكراد الذين يفتقدون الرابطة القبلية الساكنين في اراض الهماوند في لواء السليمانية.] انظر التعريف الوافي لها في كتاب ادموندز - المرجع السالف.

بعد موته او ينوب عنه في مناطق اخرى وقليلا ما اساؤا الاختيار.

من واجب الدليل او المرشد الاعلى تعيين "خلفاء" له يتولون نشر دعوته وبث تعاليمه داخل منطقته و خارجها، وهو تقنياً يتضمن نقل سلطة ويتم بمراسيم معينة تقتضيها الطريقة، وبمقتضاها يمنح (الخليفة) كلا او مقداراً من القوى يملكها الشيخ. والخليفة يمثل الشيخ اثناء حياته بل حتى بعد موته وقد تكون الخلافة في مواضع اخرى او بلاد غير التي يقيم فيها المرشد.

-F-

خلفاء مولانا خالد

انتشار النقشبندية الهائل والسريع في كردستان الذي كسف الى حد ما شمس الطريقة القادرية، قد يعزى الى شخصية الشيخ خالد والى تفانيه المثالي، فضلاً عن مبادرته الى تعيين خلفاء له من التلاميذ والمريدين الذين تقاطروا الى حلقاته التدريسية في السليمانية والى امتياز للطريقة وتعاليمها.

ممن عرفنا من الخلفاء الذين اتموا الاجازة بالطريقة، الشيخ عثمان سراج الدين تەويله[52]. يعده بعضهم الخليفة الشخصية لمولانا خالد تنتهي اليه الرئاسة والمرجع. وفي العشرينات من هذا القرن كان له من الاحفاد الشيخ حسام الدين هەورەمان والشيخ علاءالدين هەورەمان وقد تسلما الطريقة عن الآباء.

ومن خلفاء مولانا المجازين منه احمد السردار البرزنجي من سادة البرزنجة فرع سەرگەلو. وحفيده السيد احمدي خانقاه كان صاحب تكية كركوك ايام الاحتلال البريطاني[53].

ومن خلفائه كما قدمنا السيد عبدالله النهري جد الشيخ عبيدالله المحور الذي يدور عليه كتابنا هذا.

ومن خلفائه الشيخ عبدالسلام الأول البارزاني.

يجزم الواقفون على تأريخ اسرة مشيخة بارزان ان عبدالسلام الاولى هو الخليفة الأول للفرع الخالدي من الطريقة النقشبندية ومؤسسها فعلاً (توفي في 1872). نال اجازته العلمية من السيد طه النهري

52- (1775-1867) الدليل خليفة مولانا خالد الاكبر سلم الطريقة لولديه الشيخ بهاءالدين (1820-1872) والشيخ ضياءالدين (1839-1900).

53- تصدي السيد احمد خانقاه لسلطات الاحتلال البريطانية في كركوك فاقلق راحتها فقامت بابعاده الى بغداد ونقلته على متن طائرة. [كان اول وآخر شخصية كردية معارضة تحظى بمثل هذا الامتياز! [انظر التفاصيل في كتاب كرد وترك وعرب. المرجع السالف.]

عم الشيخ عبيدالله، وهو الذي هداه الى الطريقة واستخلفه في بارزان[54].

قضى الشيخ عبدالسلام الأول ثلاث سنوات في نهري متتلمذا على الشيخ طه قبل ان يجعله خليفة ويسلمه الطريقة. وقد اثبته فيها ايضاً (مولانا خالد بنفسه). ويذكر الواقفون على الاحداث في بارزان ان مولانا خالد مر ببارزان في طريقه الى نهري وصحبه اليها عبدالسلام. كما يؤكدون ان الشيخ عبيدالله نفسه تلقى العلم والطريقة بدوره على يد الشيخ عبدالسلام متتلمذا عليه في بارزان مدة مماثلة. وانه كان يجلس في حلقة واحدة مع الشيخ محمد ابن عبدالسلام وخليفة فيما بعد. انها علاقة وثيقة بين هذين الفرعين الخالديين من الطريقة النقشبندية ما اظنها زائلة ان لم تكن بصلتها السلوكية فبالعلاقة التاريخية والفكرية.

من المؤسف جداً اننا لانملك تأريخاً دقيقاً لهذه الوقائع. فمع المعلومات الهامة المستجدة التي يحفل بها كتاب [بارزان وحركة الوعي القومي] وهو من تأليف فرد من افراد المشيخة البارزانية. وجدناه كان قليل الاهتمام بذكر سني وتواريخ الوقائع ومن ذلك سنوات ولادة الخلفاء واجازاتهم وموتهم وتعيين ازمان الروابط. فضلاً عن افتقادنا شجرة الاسرة المشيخية البارزانية فيه.

واری ختاماً ان اكتفي بهذا القدر من التعريف بالطريقة النقشبندية وزعمائها ومرشديها واثرها في حركة المقاومة الكردية والنهضة القومية خلال الربع الاخير من القرن الماضي والربع الاول من قرننا هذا الذي يشرف على نهايته. وكما اكدت سابقاً اني لااكتب عن الصوفية عموماً ولا عن الطريقة النقشبندية خصوصاً الأ بقدر ما يهم حركة نضال الشعب الكردي واثرهما في الثورات والانتفاضات الشعبية وقادتها فيها وبقادتها في تلك الارهاصات. فضلاً عن ايضاح الجانب الثوري منها او ماتصح تسميته بالطابع الجهادي الذي وجدناه في شيوخها قبل وصولها الى كردستان بزهاء ثلاثة قرون.

* * *

ان استعراضاً سريعاً لمصير الشيوخ الصوفية الكرد وغيرهم الذين قادوا تلك الانتفاضات الشعبية والسياسية قد يغني عن الكلام الكثير.

الشيخ عبيدالله النهري: اعتقل ونقل الى الحجاز منفياً وقضى نحبه هناك (قيل انه قتل مخنوقاً اي كالمصير الذي آل اليه مدحت پاشا المصلح الكبير).

54- خلاف ماذكره معروف جياووك [المرجع السالف]. في ان الشيخ تاج الدين البارزاني هو المؤسس قال... والشيوخ الحاليون هم احفاد الشيخ تاج الدين النقشبندي الخالدي الذي اشتهرت اسرته في الزيبار وبهدينان، في حين يرى (پي ره ش) [المرجع السالف] ان ملا عبدالرحمن البارزاني هو الذي تسلم الطريقة في ثلاثينات القرن التاسع واول شيخ معترف به يظهر لها في بارزان... قال
[... وهو ابن ملا عبدالله ابن ملا محمد واضع الخلية الصوفية الاول في بارزان] ونجده في موضع آخر يثبت هذا"ان فترة ممارسة الشيخ عبدالرحمن مشيخته. (تكية) كانت معاصرة لمولانا خالد واستمرت بعد وفاته..." ولايترك لنا شيئاً نتعرف به على مركز الشيخ تاج الدين من كل هذا.

وما يزال الكتاب والمؤرخون حتى اليوم يجادلون في المكان الذي لفظ فيه آخر انفاسه ودفن. ولايعرف له قبر.

الشيخ عبدالسلام البارزاني الثاني ابن الشيخ محمد وهو دليل نقشبندي ايضاً. بعد كفاح مرير ضد التحكم العشائري وضد السلطة العثمانية يزيد عن خمسة عشر عاماً. دفع حياته ثمناً في اواخر العام 1914 مشنوقاً مع ثلاثة من اعوانه في الموصل لم يعرف له قبر (حتى زمن متأخر)[55].

الشيخ محمود الحفيد (البرزنجي) رأس الطريقة القادرية حكم بالاعدام ثم خفف الى الحبس المؤبد ثم ابدل بالابعاد الى الهند. قضى بقية حياته منفياً بعيداً عن وطنه.

الشيخ السيد احمدي حسين خانقاه. شيخ الطريقة النقشبندية تعرض مراراً للاعتقال والنفي والابعاد[56] لمناوئته الاحتلال البريطاني.

الشيخ سعيد پالو (پيران) ابن الشيخ علي وهو دليل نقشبندي قبض عليه مع اربعين من اعوانه بعد فشل ثورته التي اعلنها في شباط 1925 وحوكموا عرفياً واعدموا شنقاً.

في پالو. لايعرف له قبر.

الشيخ احمد البارزاني ابن الشيخ محمد. نفي عدة مرات بسبب الانتفاضات المسلحة. وحكم عليه بالاعدام شنقاً مع اثني عشر من اتباعه. نفذ في اربعة منهم وابدل حكمه بالاشغال الشاقة المؤبدة لكبر سنه وبحكم القانون السائد وقتذاك لابقرار عفوٍ خاص....

الشيخ سليم النقشبندي الذي تزعم مع اخيه الشيخ علي والشيخ شهاب الدين حركة سياسية في بتليس العام 1913.

كان قد لجأ الى القنصلية الروسية هناك. وعندما اعلنت تركيا الحرب على روسيا في 1914 اقتحم الترك القنصلية وقبضوا عليه واعدموه شنقاً.

* * *

لم يكن العام 1945، وهو عام ثورة (بارزان والمثقفين الوطنيين) اللقاء الأخير بالنقشبندية. في ذلك الحين كان لهذه الطريقة (خليفة) معترف به. الى جانب خليفة آخر في بامرني لم يؤثر عنه مشاركة في اي عمل ذي طابع قومي أو معاد للنظام القائم. وكانت تكية بياره وتهويله قد عفي عنها مثلما عفي على تكية (خانقاه) نقشبندية برزنجه في كركوك.

عملياً مرّ عهد القيادة المشيخية الانتفاضات الشعبية، والمساهمة الفعالة في النشاط السياسي.

55- انبأني الصديق علي سنجاري عضو اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي الكردستاني انه تمكن في اوائل السبعينات من تعيين قبره بعد جهود مضنية.

56- في العام 1923، حظي هذا الشيخ النقشبندي بما لم يحظ به احد من شيوخ النقشبندية قبله او بعده. بأن تم نقله الى المنفى جواً على متن طائرة [راجع ادموندز].

لكن آثارها بقيت حية فاعلة. لاسيما في ثورة درسيم 1937 وفي عهدنا ما عرف بجمهورية مهاباد، لنتقصى اثره أخيراً في الثورة الكردية الكبرى للعام 1961. فهؤلاء الذين شاركوا في هذه الانتفاضات المسلحة لم يكونوا غير ابناء واحفاد مريدي الشيخ محمود الحفيد، والشيخ عبدالسلام والشيخ احمد البارزانيين، والشيخ سعيد پيران بالو. ورثوا الولاء وحب التضحية والطاعة العمياء عن ابائهم واجدادهم. وخصوصاً قادتهم دون تردد او سؤال.

في مهاباد كانوا الذراع العسكري للجمهورية الوليدة. وفي العام 1961 عندما اكتسحت جحافل قاسم تجمعات العشائر. صمد ابناء واحفاد اولئك الذين قاتلوا الى جانب الشيخ محمود، وبقيت ذرية مريدي شيخ بارزان مركز الثقل وعنصر الادامة للثورة السياسية الوطنية مازال يحس اثره حتى النهاية المؤسفة.

ان فاعلية القيادة المشيخية الصوفية في بعث الوعي القومي وتوجيهه الى سبيل الحرية. هي جزء هام من تأريخ هذا الشعب لايمكن التقليل من شأنه قط.

ويخيل لي اني عرفت مافيه الكفاية من هذا التأريخ.

بعض المراجع

اعتمدتا في هذا البحث على مراجع عديدة جداً يصعب احصاؤها. بسبب طول الفترة التي قضيتها في كتابته. واضطراري الى طلب المراجع بطريق الاعارة من بلاد بعيدة دون الاعتناء بتسجيل اسمائها واسماء مؤلفيها قبل اعادتها. ولذلك سادرج هنا ما تعيه الذاكرة منها وماهو بين يدي من المراجع. فضلاً عما جاء ذكره في الهوامش والمتن.

(1) عبدالمجيد الخاني: الحدائق الوردية في حقائق اجلاء النقشبندية [ط. القاهرة 1308هـ - نسخة مصورة بالفوتوستات].

(2) محمد الرخاوي: الانوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية (ط. القاهرة 1344هـ نخة مصورة].

(3) هـ. ا. نيكلسن: التصوف الاسلامي. ترجمة الدكتور ابو العلا عفيفي [ثمانية مجلدات ط القاهرة 1943].

(4) دائرة المعارف الاسلامية: الطبعة الانكليزية الجديدة للسنة 1993 مادة: بها الدين النقشبندي والنقشبندية.

(5) الشيخ خالد والطريقة النقشبندية بقلم الدكتور البرت حوراني. وهو جزء من كتاب كبير عنوانه "الفلسفة الاسلامية والاصول Sheik khalid and the Naqishabandi other: Islamic Philosophy and Classical Trad-ithon.

ط- جامعة كولومبيا - ساوث كارولينا 1973.

(6) بارزان و حركة الوعي القومي (1826-1914) تأليف پى رەش. طهران 1980.

(7) امارة بهدينان: محمد صديق الدملوجي ط. الموصل 1953.

(8) الكتب الاربعة التالية من ترجمتنا و تعليقاتنا عليها: تراث الاسلام. الطبعة الثالثة.

دار الطليعة بيروت 1978 . مهد البشرية: الحياة في شرق كردستان. تاليف ويگرام. الترجمة في بغداد ط. دار العروبة 1970. كرد وترك وعرب. تأليف سي. جي. ادموندز (عين الدار والسنة). طريق في كردستان. تأليف ا. و. هاملتون عين الدار والسنة.

-الملحق الاول-

نوهنا بالخصومة التي باداً الشيخ معروف النودهي بها مولانا خالد. وبتطوراتها التي انتهت برحيل الاخير عن السليمانية. ثم بندامة هذا الشيخ القادري على مافرط منه وسعيه الى مصالحة مولانا خالد بالاعتذار منه. وقد زودنا السيد صالح محمود البارزاني بنص رسالة مولانا خالد الجوابية معلناً صفحه وقبول الاعتذار نثبتها هنا فحسب باعتبارها نموذجاً من آثاره التعليمية. ودليلاً على تمكنه من اللغة العربية. ومع ملاحظة التزامه المحسنات البديعية (السجع) وهو التقليد الذي سار عليه كتاب ذلك الزمن ومتأدبوه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على خير خلقه وعلى آله وصحبه.

من العبد المسكين والفقير المستكين الى جناب سيدي الجامع لشرفي الفضل والأدب الحائز لمكرمتي الحب والنسب. سيدنا ومولانا السيد معروف سامحه بفضله الكريم الرؤف، وبعد.

فقد بلغني ماوصيتم به الاخ الملا حسين القاني وأمرتموه بتبليغه الينا من حسن العبارات ولطائف الاشارات. ثم ما القيتموه مع قرة عيني العالم الفاضل السيد اسماعيل من مكارم الاخلاق والاشتياق الى التلاق واظهار الاسف على ماصدر منكم في حق الفقير على سبيل الاتفاق، بسعاية ارباب الاغراض واهل الشقاق والاعتذار عن جميع ماجرى به اليراع في رسالتكم المعهودة الناشئة عن تقليد الوشاة وعدم الاطلاع المهيجة عند بعض عوام المريدين لفرط الوحشة وشدة النزاع الحاكمة على هذا المسكين بأمور تنبو عن استماعها الاسماع في استحلال المحرم. والكلمات الدالة على الكفر وداعية الاستيلاء على البقاع وغير ذلك مما لايليق بشأن الاوغاد والرعاع، وتفصيله لايخفى على ذهنكم الوقاد. وطبعكم النقاد. واني لبريء مما نسبتم الي من فنون المثالب والفساد والافساد وامرتم السيد المذكور ان يستكتب مني "الْوكَةً" تنطق ببراءة ذمتكم عن جميع ماصدر وغبر، وجرى به القلم بمقتضى القضاء والقدر، لتصير مفتاحاً لابواب الائتلاف ومصباحاً لدياجير المراء والخلاف. وبلغني من السفيرين المذكورين تصميمكم على الامساك فيما بعد عن امثال مامضى من النزاع والمفاخرة وملاقاة مافات بطيب التحاجب وحسن المباشرة وتبديل المعارضة والمنافرة بالمفاكهة والمسامرة فسرتني هذه الحكاية غاية المسرة وحمدت الله تعالى على هذه النعمة المرة بعد المرة شكراً لمن بدل الشقاق بالاتفاق وهيأ اسباب الوصال بعد طول الفراق. ادام الله تعالى على هذه النية واتم لنا بمنة هاتيك الامنية.

ثم الامر بارسال المكتوب امتثلناه وهو احسن المطلوب ونريد جوابه على ابلغ اسلوب واما الابراء فهو يصدر مني ليلاً ونهاراً وافصحت به في المحافل جهاراً كما قرع سمعكم مراراً واما حسب الالتئام وترك الخلاف فأمر يشتاق اليه الكل الانصاف فكيف لمن يدعي له قدم في طريق التصوف ولو بالجداف؟

ولايخفى عليكم ان السبب الاصلي لهذه الوحشة انما هو ترك التردد وتقليد اقاويل الناس فان صح مابلغني عنكم فعليكم بالاعراض عن الكلمات المؤدية الى الشك والوسواس فإن احوال اهل الفقر وراء العقل والعلم لايدرك بالقياس وبعد اللتيا والتي يضمن لك المسكين ان ثبت قدمك وما طغى قلمك بعد اليوم ان ترى نتائج لايحمل اكثرها السفير وتزيد على حوصلة التقرير والتحرير.

ومن بعد هذا ماتدق صفاته ومكامنه احظى لدي واجمل.

والسلام عليكم وعلى ولديكم السيد محمد والسيد كاكه احمد ورحمة الله وبركاته.

الحقير

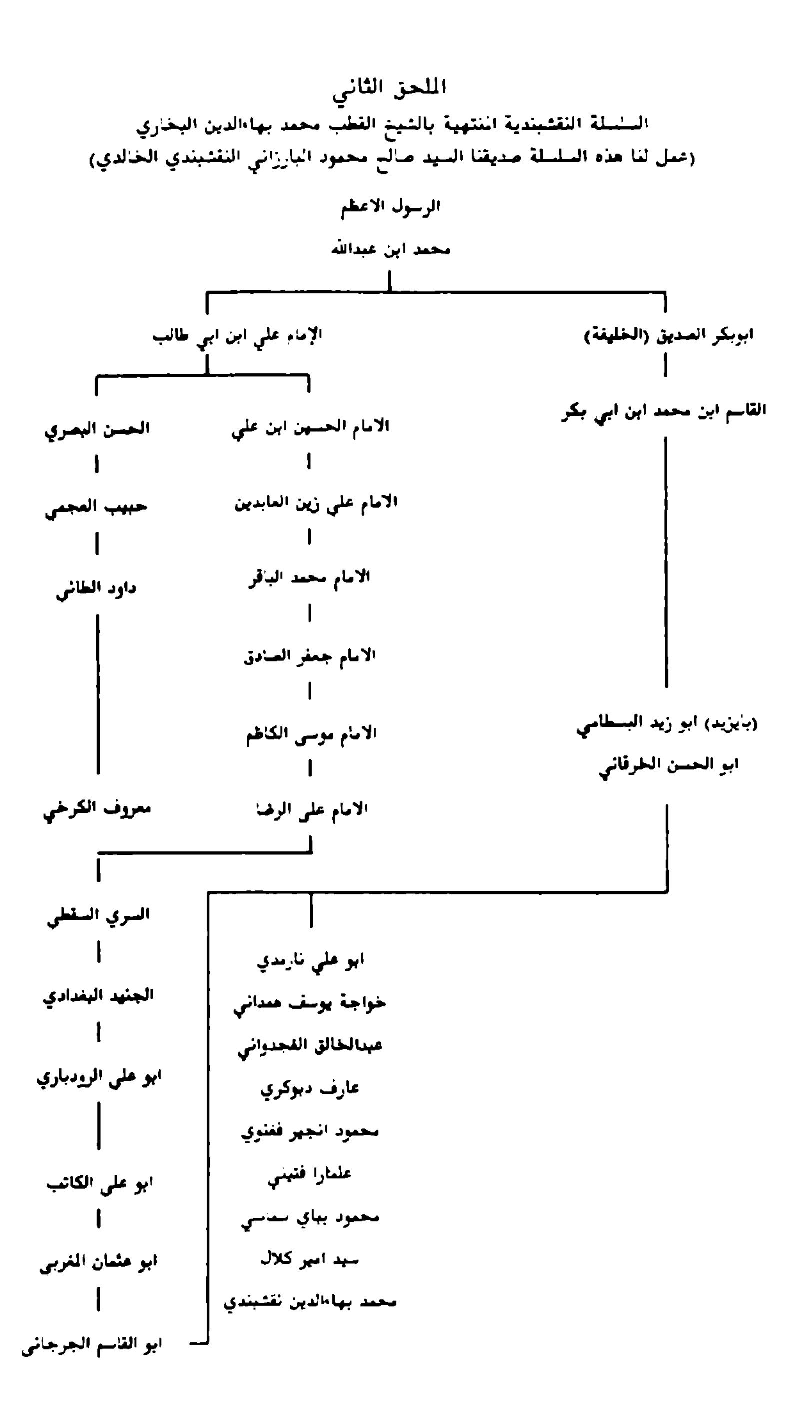
محمد خالد النقشبندي

الشهرزوري

الملحق الثاني

السلسلة النقشبندية المنتهية بالشيخ القطب محمد بهاءالدين البخاري

(عمل لنا هذه السلسلة صديقنا السيد صالح محمود البارزاني النقشبندي الخالدي)



حالياً يرجع اتباع الطريقة النقشبندية السلسلة الروحانية بدءً بالرسول. على ثلاثة خطوط. الخطّ الأول ينحدر من علي ابن ابي طالب الى الحسين وذريته الأئمة. ثم معروف الكرخي والجنيد وما بعدهما. الطريق الثاني من الامام علي الى الحسن البصري والجنيد ومن يليه. الطريق الثالث من ابي بكر الصديق وابي زيد البسطامي ومايليهما كما يُرى في السلسلة.

ويميز كتاب الطريقة ودهاقنتها أيضاً مراحل فيها مختلفة من تاريخها باسماء ونعوت مخصوصة. فمن ابي بكر الصديق الى (بايزيد البسطامي) تعرف بـ"الصديقيّة"، ومن (البسطامي) الى (الغجدواني) يسمونها "الخجغانية". ومن (بهاءالدين النقشبندي) الى (أحمد السرهندي) "ينعتونها بالنقشبندية" ومن السرهندي الى الشيخ خالد الشهرزوري سميت بالنقشبندية الخالديةّ.

الباب الثالث

القضية الكردية

تستقبل القرن الحادي والعشرين

الباب الثالث

القضية الكردية

تستقبل القرن الحادي والعشرين

ايضاح

حول ظروف كتابة هذا

البحث

في اواخر العام 1997 وانا في لندن بزيارة قصيرة، عرض علي صديق يعالج الكتابة، ويمتهن الصحافة- تلبيتي طلب ماطلق عليه «معهد الدراسات الستراتيجية» في القاهرة. بكتابة دراسة عن القضية الكردية وهي تستقبل الالف الثالثة الميلادية وذكر انّ المعهد السالف الذكر يدفع بالمناسبة اجوراً سخية لامثال هذه البحوث وقد تم اختياري بسبب خبرتي في الشؤون الكردية.

راقتني الفكرة من حيث المبدء كثيراً. وكنت في تلك الفترة قد كدت انتهي من جمع مواد هذا الكتاب الذي تقرأه الآن وكان فيها الكثير مما يمكن الافادة منه في كتابة البحث المقترح.

على اني تقدمت بمطلبين: اولها ان يقوم المعهد بتحديد الموضوع كما يتصوره على شكل رؤوس اقلام او افكار. وثانيهما ان يردني من المعهد او من يمثله تكليف رسمي.

في اليوم التالي جاءني الصديق الوسيط ببضعة اوراق مطبوعة بالكومپيوتر تتضمن رؤوس اقلام. الا انه اكد لي بان كتاب التكليف سيرد خلال الايام القادمة.

وقال انه سيبعثه لي بالبريد حال وصوله وقد حان موعد عودتي.

لم اقطع شوطاً كبيراً في الكتابة حتى ووصلني تحويل مالي بالاجر وهو مبلغ اعتيادي بمقياس ما يتقاضاه الكتاب الغربيون الكبار، الا انه كان اعلى بكثير من ان يدفع لكاتب في عالم الفكر العربي، لاسيما في مصر حيث الازمة الاقتصادية أخذه خناق الكتاب المصري والمؤلفون المصريون يعيشون عيش الكفاف. واغلبهم يجد صعوبة في اقناع الناشرين بنشر مؤلفاتهم.

خلفت دهشتي من السخاء وواصلت عملي التزاماً بعهدي المقطوع، الا اني بقيت في رسائلي ومكالماتي الهاتفية مع الوسيط الصديق مصراً على ان يكتب لي المعهد رسمياً بالتكليف.

وانهيت البحث، وعندما انبأني الصديق بان كتاب التكليف المنشود في طريقه بالبريد بادرت بارسال الدراسة.

ولم يصلني كتاب التكليف مطلقاً. وانتظرت عبثاً، واعلمني الوسيط بانه دفع المخطوطة لممثل المعهد في لندن وستنشر في المجلة الدورية الخاصة به ومجرد نشره هو بمثابه كتاب تكليف.

بعد مضي بضعه اشهر فاجأني الصديق بنبأ مفاده أن المعهد المذكور قد صفى اعماله وانحل، ولا امل هناك نشر البحث.

كنت قد احتفظت- كعادتي- بنسخة ثانية من البحث. وقد انهيت كتاب «ثورة الشيخ عبيدالله». فخطر ببالي وانا اهم بارساله الى الناشر، اضافة هذا البحث وقد اصبحت في حل من تعهدي، بناء

على ما اعلمني به الصديق الوسيط.

على اني اشعرته باستعدادي لاعادة الاجر المدفوع لي الى اي وكيل او مصف لاملاك هذا المعهد ان وجد واثبت ذلك بوثائق رسمية معتبرة وان لم يكن هذا وارداً قانوناً.

المرحلة الزمنية والمرحلة التأريخية:

يثار اللغط الكبير في انحاء العالم كافة حول دنو قرننا هذا من نهايته. ولوسائل الاعلام بشتى اشكالها. الدور الرئيس في ابقاء النفوس بحالة من الترقب والاستنفار وبكل ماتحتويه من اثارة للمشاعر والتوتر حتى ليبدو وكأن العالم كله مقبل على انقلاب مفاجيء في احوال ساكنيه، كما يقبل طلوع الشمس بعد كسوف. او كما يترقب صائد حظ فوز بطاقة "يانصيب". والامر بواقعه لايدعو الى الضجة فالخروج من قرنٍ الى قرن لايقتضى غير يوم واحدٍ في تقويم بل ساعة بل دقيقة. وقياس الزمن صنع البشر وهو اعتباري اساساً وهناك تقاويم غير ميلادية والتقويم الميلادي نفسه غيرته يد الانسان اكثر من مرة.

ان احداث التأريخ ووقائعه هي منوال متواصل وصفحات كتاب لايمكن تقرأ منه صفحة على حدة او ان تفرز بذاتها من البقية لتعامل على وجه الاستقلال. وفي عالمنا هذا- وبصورة خاصة. فسياسات الدول ومصالحها وليس الزمن هي المؤثر على وقائع التأريخ اي نشاط الشعوب بما تستبطنه من مفاجآتٍ غير متوقعة كالثورات والحروب والانقلابات وتغيير النظم ولكل هذه ايضاً مقدمات واسباب وجذور ولاترتبط بموعد.

والمسألة الكردية بكل ارهاصاتها، لاتشذ عن هذا التحديد وانما تدخل في نطاقه. والقرن الحادي والعشرون لايخفي مفاجآت لهم وانما سيكون امتداداً لحالٍ ومنوال لتفاعل تأريخي عميق الجذور تجرى محاولة ومفاجأت سياسية عالمية ومحلية ولايتوقع منها تحول المسيرة الى مجهول غير منتظر.

ولاستقراء ماسيطرء او مايتوقع طرؤه على مستقبل الامة الكردية في نضالها من اجل اثبات الهوية السياسية بل مستقبلها كقومية، يتحتم التأمل في ماضيها فضلاً عن حاضرها السياسي. واذ ذاك طرح نظريةٍ فحسب ولااقول تحديد ماسؤول اليه أمر "معركة المصير". ولا مندوحة لنا في مجالنا هذا من القاء نظرةٍ على الماضي اذ لاسبيل لتفهم الحاضر الا على هديه.

وفي ولوجنا هذا الرحاب لانجد اي ضرورة لعرض براهين وادلة حول اصالة القومية الكردية ولا الدخول في متاهات تحديد الرقعة التي هي موطن القوم. وهذا الجانب الاخير متروك حتماً لصانعي الخرائط وعلماء الانثروپولوجي. ولن نوغل في مسارات التأريخ وسنكتفي بالقدر الذي يهتم به موضوع بحثنا.

في عهد نشوء الدول القوية في الشرق الاوسط. وهو مايدعوه المؤرخون بالعصور الحديثة اصيبت القومية الكردية باولى واعظم النكبات التي تصاب بها امة. فبين الامبراطوريتين العثمانية والصفوية

وعلى اثر معركة چالديران 1514 تم تقسيم كردستان الاول بين الدولتين بخسارة الدولة الثانية الجزء الاكبر من كردستان. والفرق بين تعامل حكومات هاتين الدولتين مع الكرد كان له تأثيره العظيم على حركة الوعي القومي الكردي ومسيرته النضالية. لاسيما في مفتتح القرن العشرين وبالضبط قبيل الحرب العظمى الاولى وهو تأثير مازلنا نشعر به اليوم.

السياسة التي اتبعها السلطان سليم (ياووز) بعد معركة چالديران وسار عليها خلفاؤه حتى اواسط القرن التاسع عشر كانت سياسة سخاء اداري كبير لزعماء الكرد العشائريين وفيها شيء غير قليل من بعد النظر. فقد اوكلوا حكم كردستان لهؤلاء الاخيرين ليتمثل بملامح صارخة في شكل امارات اتونومية داخل النظام السياسي العثماني. اذ أعطيت صلاحيات واسعة لسياسي كردي قدير متعدد المواهب هو الامير ادريس البدليسي الشرفخاني (القرن السادس عشر) بموجب مرسوم (فرمان) سلطاني في العام 1515م[1] واطلقت يده تنظيم العلاقة بين السلطة العليا وبين الامارات الكردية.

وتواصل العمل وفق هذا النظام الذي اختطّ زهاء قرنين ونصف قرن نشأت خلاله كيانات مستقلة وشبه مستقلة في هذا الجزء من كردستان، وكان لها اثرها الباقي في تكامل الوعي القومي الكردي كما نجده اليوم.

ولم يتح للجزء الكردي في ايران مثل هذا. فمن المبدء فرض الحكام الصفويون على الكرد ولاة اذربيجانيين متفسخين طغاة عتاة اتبعوا سياسة القمع والقبض على الزعماء الكرد واحتجازهم. وفي عهد (نادر شاه طهماسب: 1688-1747م) اتبعت لأول مرة في تأريخ الكرد خطط التهجير الجماعي حين عمد هذا العاهل في العام 1736 الى نقل عدة آلاف من الاسر الكردية الى خراسان[2] بغية حماية حدوده الغربية من الغارات التركية وحدوده الشرقية من الغارات التركمانية ولأول مرة في تأريخ الكرد استخدم هذا العاهل القوى الكردية بنطاق واسع في حملاته العسكرية العديدة وفي حروبه مع العثمانيين فاختط سنة كريهة. ثم قلده العثمانيون فيها ايضاً فاستخدموا رعاياهم الكرد للغرض عينه في حروبهم. واصبحت عادة الفها الكرد المحكومون وكانت وسيلة ارتزاق وحماية في آن واحد. فضرب الكرد بعضهم ببعض، واحترابهم كما رأيناه وما زلنا نشهده، ماكان في اي وقت مصدر عجب للمؤرخ. وبعين النظرة، يجد المؤرخ ان عمليات التهجير الجماعي التي مارستها الدولتان بكل آثارها الفاجعة وايا كان الغرض منها- قد خلفت طابعاً سايكولوجيا متوارثاً لتجعل من هذه الامة واحدة من اكثر الامم تحملاً للنوائب وامتصاصاً للنكبات الوطنية. حتى بدت الكوراث جزء من تراثها الحضاري لايتجزء.

زاد استخدام المرتزقة بعد التقسيم الثاني لكردستان اثر تمزيق اشلاء الدولة العثمانية بمعاهدة ڤرساي

1- الف الأمير ادريس كتابه الشهير "شرفنامه" في العام 1596 وفصل فيه تأريخ الدول والامارات الكردية. ولهذا الكتاب ترجمتان عربيتان، وترجمة كردية. [انظر نص الفرمان السلطاني في متاب تأريخ الكرد وكردستان لمحمد امين زكي الص 184-190.]

2- راجع سيرة نادر شاه في لوكهارت . Nadir Shah: Kockhart

(1919) ونتيجة ضم مادعي الآن بكردستان الجنوبية (ولاية الموصل) الى الدولة العراقية الجديدة التي استحدثها البريطانيون في العام (1921). كما استخدمت عمليات التهجير القسري الذي احتفظت به تركيا على نطاق واسع جداً بسبب الثورات القومية المسلحة التي واجهها الترك باجراءات قمع وحشية، في العشرينات والثلاثينات وليلاحظ هنا ان السنوات الخمسين الاخيرة من القرن التاسع عشر شهدت. ابتعاداً كبيراً في سياسة التسامح مع الكرد ومحاولات جدية ناجحة في القضاء على استقلالهم المحلي. لكن الحكومات العراقية إحيت هاتين السنتين وهذا سيأتي في موضعه. الا ان البريطانيين طوال فترة تواجدهم في العراق المستحدث لم يلجأوا الى اي من هاتين الوسيلتين لاسيما عندما جوبهوا بثورات خطيرة ذات طابع قومي- استقلالي غلاب بل اعتمدوا خطة اخرى لمواجهة تصاعد حركة المقاومة ومد الوعي القومي[3].

لاسيما بعد عدولهم نهائياً عن اقامة كيان كردي مستقل وحصر اهتمامهم ببناء الدولة الجديدة التي اطلقوا عليها اسم "العراق".

العشائرية والنضال القومي- الخطة البريطانية:

لم يكن مثقفو الكرد في الميدان وحدهم. كما لم يكن بوسعهم ان يصمدوا في الميدان من غير الاسناد العشائري.

ينقل لنا كاتب بريطاني ورحالة طرفاً لحديث جرى بينه وبين الشيخ البارزاني "عبدالسلام الثاني" في العام 1908 وهي سنة خلع السلطان عبدالحميد الثاني:

لما سمع الشيخ اننا عائدان الى انكلترا بعد اشهر، ابدى استعداده لمرافقتنا ليطلب شخصياً من رئيس اساقفة كانتربري فتح مدراس في قراه. ومن ثم يقصد الك جورج بزيارة ليجلس معه ويبحث في قضية كردستان والبت في امر استقلالها[4].

وهكذا تجد ان التناسق والتفاهم كان موجوداً بين فصائل المثقفين الحضريين وزعماء العشائر. وليس هذا الذي اوردناه غير مثل واحد من عدة امثلة سابقة ولاحقة ثبتت اهتمام الزعماء العشائريين بالمستقبل الكردي. وقد ايدت الثورات المتلاحقة في قرننا الحالي ان العشائرية كانت دوماً الجدار الذي يحمي ظهور المثقفين في معركة النضال. في العراق اعتمد الاحتلال البريطاني اسلوب هدم هذا الجدار

3- كانت يقظة الوعي القومي الكردي في الامبراطورية العثمانية متزامناً تقريباً مع نشوء حركة الجون ترك (تركيا الفتية) التي قادها حزب الاتحاد والترقي واعتمادها القوة والبطش في سياسة اذابة العناصر القومية برفع شعار "العثمانية" وقد ردد مؤتمر الصلح في فرساي اصوات زعماء الكرد المدنيين الذي طالبوا بتطبيق المبادىء الولسنية الخاصة بتقرير المصير ولم يكن هذا امراً مفاجئاً او جديداً. فقد سبق لحركة الوعي القومي الكردية والنزعة الاستقلالية التي رافقتها ان خرجت عن نطاق المدن والحواضر ومثقفي الكرد وجمعياتهم قبل الحرب باكثر من عقدين من السنين وسرت الى جبال كردستان ومجاهلها.

4- راجع ترجمتنا لكتاب THE Gardle of Mankind. لمؤلفيه الاخوين ويكرام Wigram الطبعة الثانية. شيكاغو 1997- الص 137وما بعدها. [اعدم الاتراك الشيخ عبدالسلام شنقاً في الموصل (1915) مع بعض اعوانه].

من اجل احباط الحركة الاستقلالية الكردية بسياسة او خطة سبق لهم تجربتها في افغانستان بين عشائرها عندما زحف النفوذ البريطاني الى تلك البلاد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[5] وكانت النية معقودة على ضم البلاد الى التاج البريطاني. وفي العراق الجديد بدا البريطانيون شديدي الانتباه والاحساس بقوة الولاء العشائري الكردي. وبتقدير دقيق وصحيح الى مقدار مايمكن ان يحدثه الزعيم العشائري من متاعب ووجع رأس للسلطة، والى مقدار مايمكن ان يتحقق لهم من راحة بال وأمن بكسب هؤلاء والافادة من نفوذهم في تطويع عشائرهم وضمان ولائها فاعتمدوا مبدئياً تجربة النظام الذي طبقوه حيناً من الزمن في بعض اجزاء من افغانستان وعرف تاريخياً بنظام [ساندمان - بروس]. وفي كردستان الجنوبية (العراقية) توقعوا ان يزيلوا به فكرة اقامة الكيان الكردي المستقل الذي سبق ووعدوا به، من اذهان الوطنيين الحضريين والزعماء الكرد العشائريين الواعين، بفك الرباط السياسي القائم على الطموح القومي بين الفريقين. وبعد ان عدلوا نهائياً عن اقامة الدولتين الكرديتين المستقلتين تحت الحماية البريطانية المباشرة[6]. وتبنوا خطة ابقاء العراق بعد ضم الجزء الكردي (ولاية الموصل) اليه تحت السيطرة البريطانية المتستر بنظام الانتداب[7].

ولا اجد لي مندوحة هنا من رسم صورة عابرة لهذا النظام ولكيفية محاولة الاخذ به في التعامل مع رؤساء العشائر الكردية حينذاك، إن لم يكن بسبب اغفال المؤرخين والكتاب الكرد أمره، فللأثر الباقي الذي احدثته فترة تطبيقه على الوضع الحالي العصيب الذي تمر به القضية الكردية في كردستان الجنوبية وهي تنعم بالمظلة الفضائية التي نشرها الحلفاء في سمائها وقاية من صولات الطيران الحربي العراقي.

اثبت هذا النظام نجاحه في السيطرة على القبائل البلوجستانية التي تقطن المنطقة الجبلية شمال الهند. وكانت الغاية منه وقف الغزوات العشائرية وحماية اهالي السند على خط الحدود، وتقوية الدفاع ضد احتمال الغزو الاجنبي اي الروسي.

5- في العام 1918 قُسِّم خط (بروكسل) الحدودي بين تركيا والعراق ارض كردستان ومواطنيها قسمة جديدة. وفي حينه بدت بريطانيا الدولة المهيمنة على قرارات مؤتمر الصلح فأملى على الدولة العثمانية تلك المعاهدة التي قضت بانشاء كيان كردي مستقل. واذا كانت الاسباب التي ادت الى موت هذه المعاهدة أبتَشتّت اراء الكرد وانقسامهم وافتقارهم الى زعامة يحترمها الجميع ام بسبب عزوف الدول الكبرى المنتصرة المنهوكة القوى عن مجابهة مسلحة مع الجنرال مصطفى كمال (اتاتورك)، ام محاباة له واغضاءً عنه خشية انحيازه التام والتعامل مع النظام الشيوعي الجديد في روسيا، ام بسبب السياسة الجديدة التي استوحاها الوايت هول من العمل على الاستئثار بنفط كردستان الجنوبية ووضع اليد على منابعه، او لكل هذه الاسباب مجتمعة، فقد قبر معها حلم انشاء وطن كردي مستقل.

6- راجع بهذا الخصوص وثيقة وزارة الخارجية البريطانية المؤرخة في 20 ديسمبر: كانون الثاني 1919. والمرقمة F.O.371. 5068. 1034. 78 نشرناها نصاً وترجمة في كتابنا الموسوم [آراء محظورة في شؤون عراقية معاصرة] الص 135-142 ط: ستوكهولم 1994.

7- يراجع الملحق الاول بعنوان [فكرة عامة عن كيفية قيام دولة العراق الحديثة] من كتابنا [مغامرة الكويت: الوجه والخلفية] ج2 الص 549-596 (نشر البحث برمته كذلك في مجلة الثقافة الكردية] لندن العدد الص 4-42 اذار 1990.

كان هناك وجه شبه كبير بين العشائر البلوجية والعشائر الكردية. ولقد وجد الضباط السياسيون المعينون لادارة الاقليم ان الكرد القبائليين اوثق رباطاً بشيوخهم الدينيين من اغاواتهم (الشيوخ المدنيين)، وان الدعايات ضد الكفرة البريطانيين لها بعض الاثر في الاضطرابات التي حصلت في مفتتح ممارستهم الادارة المباشرة هناك. ولم يكن بالامكان ستراتيجياً وضع قوة ارضية بريطانية دائمية في الاقليم[8].

كان البريطانيون يعتقدون ان حظهم في نجاح هذا النظام في كردستان سيكون اكبر من حظهم في تطبيقه في كل من افغانستان ونيجيريا. الا ان ثورات الشيخ محمود والانتفاضات الدينية- السياسة التي عمت الاقليم في العام 1920. ارغمت الادارة البريطانية في العراق على الاعتراف ضمنياً بفشله عندما دعت الشيخ محمود من منفاه في الهند وسلمته الادارة في السليمانية[9] في العام 1919.

لكن الفشل كان جزئياً، والنجاح المعزو له تمثل ببلوى ثالثة تنزل بالحركة النضالية الكردية؛ ومسيرتها الى مرحلة التحرر. اذ تم خلال الفترة القصيرة لتطبيق النظام، (تدجين) زعماء قبليين معينين توارثو الانحياز الى الادارة، وتوارثتهم حكومات العراق بعد الاستقلال فكانت منهم الوحدات غير النظامية المجندة في الاربعينات وما بعدها من قرننا هذا التي عرفت بمصطلح (الجاش)[10].

سميت الوحدات التي ساندت الجيش ايام حكم البعث الاول وما بعده بقوات (صلاح الدين) نسبة الى السلطان الايوبي المعروف. ثم اطلق عليها حكم البعث الثاني اسم (الافواج الخفيفة).

ألصاق كردستان الجنوبية بالكيان العراقي المستحدث كان في نظر(الوايت هول) ضرورة سياسية لاسبيل الى اغفالها فالبريطانيون سلموا من الاول مقاليد الحكم الى الاقلية السنية وبدا منطقياً ان

8- سبب آخر حال دون تواجد عسكري مكثف في كردستان الجنوبية، وهو الشروع في تسريح الجنود بعد الحرب، والاقتصاد في النفقات والمصاريف الفادحة على الجيوش المرابطة.

9- للمزيد راجع ج 5 من The cambrige History of The British Empire ص 455 وما بعدها كذلك يراجع كولن ديفيرس مشكلة الحدود الشمالية الغربية Callin Davis: The Problem of the North West Frontier Cambridge University Press 1890 1905 وانظر كذلك شرحاً وافياً للتطبيق العلمي لهذه السياسة عند [سي.ج.ادموندز] في ترجمتنا لكتابه: [كرد وترك وعرب: Kurds Turks and Arabs. politics Resererchs and Travel Sin North Eastem Iraq 1919 - 1925 نشرتها دار العروبة في بغداد 1970. [لم ينوه ادموندز بالمصدر الحقيقي لهذه السياسة] خلافاً لميجر (سون)، الضابط السياسي الشهير المعين مستشاراً للشيخ محمود الحفيد.

الذي اكد خطأها وفشلها في تقاريره الموجهة الى الحاكم الملكي العام في بغداد. [انظر مثلاً Administration Re- port of Sulaiminy of Diyision for كذلك تقرير لونگريك الضابط السياسي في كركوك (عين المرجع ص 1919:2,3.

10- يعزي هذا المصطلح الى ملا مصطفى البارزاني قائد ثورة 1961 وهو تخفيف لكلمة(جحش) العربية نظراً لصعوبة نطق الكرد بحرف (ح). لم يعمد البريطانيون الى استخدام اتباعهم من الزعماء العشائريين في قتال الشيخ محمود الحفيد. الا ان العراقيين عادوا الى الطريقة التركية هذه، فاستخدموا العشائر الموالية في ضرب الثورة البارزانية (1945 - 1943) وواصلوا انتهاجها حكومةً بعد أخرى.

الجمع بين الاقليتين السنية الكردية والعربية في كردستان الجنوبية (ولاية الموصل) ضروري لسنية ولايتي بغداد والبصرة لاحلال نوع من التعادل مع الاكثرية الشيعية في هذه الولايات جمعاً. وكان واضحاً ان العراق سيبدو دون كردستان الجنوبية دولة يتحكم فيها الشيعة وهو مالا يتفق مع المصالح البريطانية في دولة جارة لايران الشيعية التي لم يكن حكامها قط في وفاق السياسة البريطانية فضلاً عن الثروة النفطية الهائلة المختزنة في ارضها وهو الامر الذي بقي البريطانيون ينكرون تأثيره على سياستهم ازاء الأماني والمستقبل الكرديين حتى لم يعد للانكار وجه عندما انبثق في (باباگرگر) بالقرب من مدينة كركوك ماوصفته الصحف العالمية في حينه باعظم بئر نفطي في العالم منذ اكتشاف النفط[11].

التأثير البريطاني في الحركة الوطنية الكردية:

في كل المواجهات العسكرية البريطانية لحركة الشيخ محمود الحفيد الاستقلالية، ترفعت ادارتهم عن استخدام صنائعه من العشائريين في المعارك. رغم محاولاته السياسية الخفيّة للتأليب العشائري ضد نفوذه. ولم يستخدم "الجاش" ايضاً في الانتفاضات البارزانية اثناء الاحتلال ثم الانتداب. ومع انه اصبح لفترة قصيرة موضع تجربة لنظام ساندمان - بروس Sandaman-Bruce الذي نوهنا بأمره، فقد حظي هذا الجزء من كردستان لأول مرة في تأريخ هذه الأمة بحكم اوروبي مباشر، بموظفين شبان نزيهين لااثر فيهم للفساد الخلقي والروح الاستبدادية التي الفها القوم من الموظفين الترك والفرس السلابين النهابين، هاهم رجال تشربوا المبادىء الديمقراطية ورضعوها في بلادهم مع حليب امهاتهم. وحاولوا بأمانة واخلاص التوفيق بين مطالب سياسة الامبراطورية، وبين ارضاء نزعاتهم الانسانية ومثلهم الديمقراطية من خلال قيامهم بمهام وظائفهم محلياً. وبافضل ماظهروا به في المجتمع الكردي هو حصانتهم من الرشوة والوساطة والشفاعة. لاتفرق احكامهم بين الرفيع والوضيع ويستوي امامهم الاغا وفلاحه. جاؤا و معهم المستوصفات والمدارس وحكموا بدون حاميات وجنود وخلقوا نواة موظفين

11- في جلسة عصبة الامم المنعقدة بتأريخ 23 من ديسمبر (كانون الثاني) 1923 نفى المندوب البريطاني لورد كرزن (تهمة) وجودا اي علاقة بين نفط كردستان الجنوبية وبين مصيرها السياسي مؤكدا ضرورة دخولها ضمن حدود الدولة العراقية ومما جاء في خطابه:

«زعموا وافترضوا ان موقف الحكومة البريطانية من ولاية الموصل (كردستان الجنوبية) متأثر بموضوع النفط. انه لاشيء ابعد من زعم وجود نفط فيها وانا لاادري كم من النفط يوجد ويمكن استغلاله تجارياً... والامر كله مجرد خدعة.» آه.

وينكر ادموندز (المورجع السالف) الذي كان الضابط السياسي في كركوك اهمية النفط في صياغة السياسة البريطانية ايضاً اثناء النزاع مع تركيا على عائدية ولاية الموصل ويقول: «لم يساورنا اي شك في اننا نخوض معركة حياة او موت بالنسبة الى العراق. ذلك ليقين فينا ان ولايتي البصرة وبغداد دون ولاية الموصل لايمكن ان يبنى منها دولة معقولة لأسباب اقتصادية وستراتيجية. ومع ان الصحافة العالمية كانت وقتئذ تصور هذه المعركة بوصفها جزء من الكفاح الجبار للسيطرة على منابع النفط فمن، المهم ان نعود الى الوراء لنذكر كيف كان اسم النفط قليل الظهور في كل حساباتنا السياسية، واقله على مستوى مهمتي. فانا لا اذكر وثيقة واحدة نوهت بالنفط كعامل بارز يرتفع الى مرتبة الصدارة في ميدان التجارة العام» آه.

واداريين اكفاء من الجيل الجديد، كما اختاروا لمعاونتهم في الادارة اعلى الموظفين والضباط الكرد السابقين خلقاً وخلاصاً في الحواضر والريف، وقد راح عدد منهم ضحية الاحتقان السياسي- العسكري الذي عم رقعة العراق في 1921-1920 وبسبب العداء الذي كسبته معاملتهم قتل بعضهم غيلة بيد الاغوات الناقمين الذين تعودوا قطع الطرق وسلب الفلاحين واستغلالهم[12].

وفوق ذلك كله، فقد حرص البريطانيون. ربما تكفيراً عن جنايتهم في حرمان الكرد من حق تقرير المصير- على ان لايتركوا ارض العراق قبل ان ينتزعوا ضمانات لسيادة لونٍ من الحكم المحلي لكردستان الجنوبية بشكل تعهد وقعته الدولة العراقية ذي صبغة دولية وباعتباره جزء من القانون الاساسي العراقي لايمكن اجراء تعديل عليه[13].

* * *

ان خضوع هذا الجزء من كردستان للبريطانيين، يمثل تجربة فريدة، بل امتيازاً لم يحظ به الجزء الايراني او التركي[14]. ففي تركيا الكمالية وبعد القضاء على ثورات واسعة ثلاث [1922-1936] ساد كردستان جو ارهابي اجرامي وقانوني لم يقم مثله او يقرب منه في اي عهد من عهود السلاطين العثمانيين وقد قيل فيه الكثير ولاداعي للخوض في تفاصيله. وفي ايران واصل الحكم البهلوي سياسة البطش والنفي والتهجير وتصفية زعماء الكرد جسدياً التي اتبعتها الاسرة القاجارية وهاتان الدولتان القوميتان الحديثتان امتازتا بنوع من التعصب الشوفيني يهدف الى اذابة القوميات الاخرى- بخلاف نظرية نقاوة العنصر الآري النازية التي استبعدت القوميات الاخرى ولفظتها، وهو في نظرنا اتجاه اشد خطراً واعمق اثراً.

12- درج الكتاب والمؤرخون ومازالوا على اعتبار الفتك بالضباط السياسيين خلال تلك الفترة من قبيل الاعمال الوطنية ووجها للنضال السياسي الكردي، ليس هناك خطأ افدح من هذا. انهم بذلك ينزلون التأريخ بعين المنزلة التي احتجزها له نابوليون بونابرت في قولته الشهيرة: ماهو التأريخ؟ انه مجرد خرافة تم اتفاق عام عليها. وبعكس ذلك وجدنا الشيخ محمود والشيخ احمد البارزاني. كل بدوره يحافظان على الاسرى والطيارين البريطانيين ويخصانهم بطيب المكان ويقومان بتسليمهم للسلطة البريطانية اثناء وقائعهما مع القوات البريطانية.

13- يراجع نص هذا التعهد الدولي في تأريخ الوزارات العراقية (عبدالرزاق الحسني ج3 الص 188-191 الطبعة الثالثة 1966. واشير هنا بنوع خاص الى المادة الاولى من هذا التعهد وهي نصاً:

" يعترف بالشروط الواردة في هذا التعهد كقوانين اساسية في العراق، فلا يجوز ان يناقض هذه الشروط او يعارضها اي قانون او نظام او اجراء رسمي. كما انه لايجوز ان يتغلب عليها اي قانون او نظام او اجراء رسمي لا الآن ولا في المستقبل. واشير ايضاً الى المواد الثامنة والتاسعة العاشرة الخاصة بالامتيازات القومية التي منحت للكرد. لاسيما المادة الاخيرة التي وضعت هذه الوثيقة بالتعهد الدولي، بنصها على ان اي خلاف ينشأ حوله يعتبر خلافاً ذا صفة دولية". [اعطي هذا التعهد في 28 ديسمبر (كانون الثاني) 1932].

14- في 19 اذار 1919 نشر يوسف حيدر وخيرالدين الزركلي صاحبا جريدة (المفيد) الدمشقية مقالاً افتتاحياً حول الاستقلال الكردي. ووزعت نسخ الجريدة مجاناً في سورية وهذان من اعيان الكرد. وثانيهما من رواد النهضة العلمية والادبية العربية. [نقول: بدأ الفرنسيون في الاول يتنكرون للأماني الكردية ويحاربونها].

كردستان الجنوبية مصدر الاشعاع

[وقبلة النضال الوطني]

وبهذا، وبدءً بالعقد الثاني من القرن العشرين، باتت كردستان الجنوبية (العراقية) قبلة انظار المناضلين والوطنيين الكرد في كل مكان، بفضل الوضع السياسي الممتاز الذي نالته في دولة جديدة وجدت مكانها على خارطة العالم ولم تكن قبلاً فيها وخضوعها من الزمن لادارة اوروبية ديمقراطية النظام.

فالى جانب امتياز تجربة الحكم الاوروبي على ارضها، وبفضل الخدمات الاجتماعية التي استحدثها في المجتمع الكردي والتعهد الدولي المار ذكره. كان هناك انفتاح هائل للمعاهد العلمية والمدارس العالية بوجه ناشئة الكرد. وبفضل التعليم المجاني وشبه المجاني تخرج في الكليات عدد كبير من الضباط والمحامين والاطباء والمعلمين والمهندسين. وكان بين هؤلاء جمهور يعتد به من الوطنيين الذين ساهموا في بناء الاحزاب السرية التي سبقت الديمقراطي الكردستاني وبلغوا مراكز القيادة في الحركات الوطنية المسلحة بدأ بالعام 1945 وما بعدها.

لانكران في ان حركة الوعي القومي الكردية والنضال الفعلي من اجل حق تقرير المصير يدينان بالكثير للمثقفين الكرد لاسيما في تحويل الشكوى والتظلم العشائري من الحرمان والقمع الحكوميتين الى اهداف وطنية ذات طابع عمومي. وقد بدا من الاول أنْ لاغنى لاحدهما عن الآخر: القوى الضاربة الميدانية العشائرية والتوجيه الفكري الهادف للزعماء، والشيوخ العشائريون والمثقفون الحضريون.

منذ البدء. والأمر مايزال كذلك في ايامنا هذه. والأمة الكردية تعيش مأساة لم يعشها قبلها اي شعب عبر التأريخ العام تفوق بمراحل محنة الشعب الفلسطيني مثلاً فقد احاطته ارادة الدول ومنطق القوة بجيران خصوم واعداء الداء بعضهم لبعض الا انهم متفقون على ان يبقى الكرد بدون كيان سياسي، ممزقاً تستلبه خمس دول. وتزداد المصيبة وقعاً والشق اتساعاً بالنهج الذي تتبعه القيادات الكردية بوعي منها او بدون وعي، فهي تُسَيِّر حركة النضال الكردي الى متاهات لاتخدم سوى مخطط التمزيق التأريخي وادامته. ولنا في هذا عودة. ومن اجل هذا وبسببه تبقى الحركة الوطنية الكردية والنضال من اجل حق تقرير المصير موضوعاً يفتقر بالشكل والصورة الى التجاوب التزامني التلقائي او العمل المخطط مسبقاً[15].

15- والمثل المستخلص من الثورة البارزانية في العراق (1945). وقيام ماسمي "بجمهورية مهاباد" في كردستان ايران بعدها بسنة ونيف (1947). قد يغني عن المزيد. اذ لم يكن للتحرك السياسي القومي الكردي في ايران او تركيا صفة الديمومة والاستمرارية التي حظي بها، في العراق. فبعد ثورة درسيم المأساوية في كردستان تركيا (1936) هجع النضال الكردي هناك هجمة طويلة تماماً ولم يستفق منها لهول الصدمة. واما ذلك الحدث السياسي الخطير في (مهاباد) كردستان ايران فان الاستمرارية النضالية الذي قادتها الحركة الوطنية في الجزء العراقي تشارك باكثر من النصف (في قيام الحزب الذي حقق الانقلاب على الاقل) مع الاتحاد السوفيتي الذي اعان الحزب الديمقراطي الكردي =

ولأسباب سنجملها فيما بعد لم يقم اي تحالف ناجح بين القوى المناضلة في الوقت الذي كانت الاهداف راسخة والكل ينادي بها ويرفع شعارها.

تطور المطالب السياسية الكردية:

خرجت الحركة القومية بشتى فصائلها في العراق اثر الحركة المسلحة التي قادها ملا مصطفى البارزاني بافراد عشيرته وحلفها وبعد قمعها في 1945 - أقول، خرجت من نطاق المطالبة بتطبيق تعهد العام 1932 الدولي الذي اشرنا اليه- لتدخل في اطار حرية تقرير المصير- الذي صوره المثقفون الكرد بمطلب لون من الحكم الذاتي في العراق مع ضم اصواتهم الى الاحزاب السرية والعلنية الكردية العراقية. بل عقد تحالفات معها في المطالبة باتباع النهج الديمقراطي في البلاد. يقيناً منهم انه الضمان الوحيد لتحقيق الحكم الذاتي وديمومته بشكل صحيح. وثار خيال الوطنيين الكرد في السعي لتحقيق مشروع كردستان الكبرى المستقلة اثر تصريح ميثاق الاطلنطي وبوتسدام وغيرها.

وامام هذا الزخم العظيم والاستمرارية تقدمت القضية الكردية الوطنية بوثبة تعدت بها كل الحواجز التي عاقت مسيرتها في الماضي، باعتراف النظام الجديد الذي اطاح بالنظام الملكي في 14 تموز 1958 في وثيقة دستورية (الدستور المؤقت الصادر في 27 من تموز 1958) بان العرب والكرد شركاء في الوطن العراقي الواحد، والشركة تعني المساواة في الحقوق والواجبات.

لاشك في ان هذا الاقرار الطوعي وان كان قولياً لايرقى الى اكثر من مرتبة المجاملة، ارسل صعقة عظيمة في الاجزاء الباقية من كردستان. فنشطت احزاب سرية في كل من سورية وتركيا، وبدأ الحزب الديمقراطي الكردستاني في ايران يلم شعثه في الداخل مركزاً نشاطه في الخارج وغزت الماركسية

= (الكومله) على انشاء الكيان الجديد كوسيلة للضغط على النظام الايراني بغية الحصول على امتيازات نفطية. وسيلاحظ ان الادارة المحلية التي قامت في هذا الجزء الصغير من كردستان ايران سميت بجمهورية مهاباد تجاوزاً. فالقائمون بأمرها ومحدثوها لم يخطر ببالهم قط هاجس اقامة جمهورية كردية مستقلة منفصلة عن الكيان الايراني وانما كان تصورهم محدوداً بحكم ذاتي اوسع قليلاً من اللامركزية الادارية التي نص عليها دستور العام 1908 الايراني (المشروطة) وهو مالم يطبقه الحكام القاجاريون والاسرة البهلوية. وقد بقيت هذه الادارة الذاتية الكردية على اتصال مستمر بالحكومة القائمة في طهران لغرض تحديد درجة الحكم الذاتي. وكان وفدها هناك عندما تخلى الاتحاد السوفيتي عنها وتركها لتصفى ويعلق الجيش زعماءها على اعواد المشانق ويملأ السجون بالباقين. تماماً مثلما جرى عند تصفية ثورة (درسيم) في كردستان تركيا، وكما جرى في العراق بالقادة البارزين في الحركة البارزانية الوطنية المسلحة. وليلاحظ ان نصيب المثقفين الحضريين من عملية الانتقام هذه كانت ظاهرة في كل هذه الحركات الثلاث دليلاً على زيادة مشاركتهم وزخمهم في هذا المجال النضالي.

[للمزيد، تراجع ترجمتنا العربية لكتاب جمهورية مهاباد The Mahabad Republic لمؤلفه William Eagelton. مع تعليقاتنا، الطبعة الثانية -ناراس - اربيل ١٩٩٩].

اللينينية هذه الاحزاب. وكادت تطوح بكيان الحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق لولا ضربة رئيسه "البارزاني" الرائعة في العام 1959 [16].

التحديات: من هو الصديق ومن هو الخصم؟

تدل الحركة الوطنية الكردية في العراق على النشاط التحرري الكردي العام بافضال ثلاثة.

اولها: انها انتزعت حق التنظيم السياسي العلني من حكومة معترف بها دولياً. باجازة الحزب الديمقراطي الكردستاني والسماح بمزاولة نشاطه ونشر أدبياته وصحفه.

وثانيها: الاقرار بالمشاركة القومية الكردية في الكيان العراقي العضو في هيئة الامم المتحدة وجامعة الدول العربية وهو اعتراف يتضمن مفهوم الحرية في تقرير المصير لأن الشراكة قد تعني الديمومة قدر ماتعني التوقيت والأجل.

وثالثها: تدويل القضية الكردية مجدداً بدخولها في اطار الحرب الباردة وبعد اقل من ثلاث سنين للاعلان الدستوري عن الشراكة العربية - الكردية.

وفي العام 1961 عندما اضطر الكرد الى الدفاع عن هذه المكتسبات القولية بوجه الدكتاتورية العسكرية التي آل اليها انقلاب الرابع عشر من تموز بنظام عبدالكريم قاسم- بدت الظروف كلها مهيأة

16- لايملك المرء نفسه من الاعجاب ببعد نظر هذا الرجل القبلي، او العشائري كما يحلو لبعض المثقفين الكرد ان ينعتوه. ماذا كان يجول في فكره وباي شكل يصور لنفسه المستقبل السياسي للحزب الذي قبل رئاسته وهو بعيد عنه في ديار المنفى. وماذا كان يتوقع لمبادرته الحاسمة في الحيلولة دون وقوع الحزب في قبضة الحزب الشيوعي الذي كان يسيطر على الشارع العراقي وقتذاك ويتسابق المثقفون "التقدميون" للانتساب اليه صدقاً أو مُراءاة وفي الوقت الذي سجلت الحرب الباردة انتصارات ورجحانَ كفةِ للاتحاد السوفياتي ولمعسكره الاشتراكي في كثير من بلدان الشرق الاوسط ومنها العراق. لم يتحدث البارزاني عن هذه الواقعة ولم يشرح لي او لأحد بمدى علمي الدواعي والاسباب التي حملته على اتخاذ هذه الخطوة بابقاء حزبه ديمقراطي الصبغة برجوازي الاتجاه. فهو في العادة قليل الكلام؛ ويترك التحليل والشرح لمن يريد ولاينتقد او يعلق. وفي رأيي- ولاترك جانباً مواهب الزعامة التي ملكها الرجل - ان مادفعه الى هذا كانت تجاربه القاسية المضة فقد رأى بام عينه كيف فرط الاتحاد السوفيتي بالكيان السياسي الكردي في مهاباد واسرع يتخلى عنه لقاء تلويح طهران له بامتياز نفطي. ولم تضع الاثنتا عشرة سنة التي قضاها الرجل في الاتحاد السوفيتي سدى، ادرك خلالها باحساس واقعي مرهف ان النظام الذي اقامته الماركسية اللينينية هناك يسير الى الهاوية بخطى حثيثة. واخيراً ولطول تعامله مع البريطانيين في العراق كان يتوسم فيهم الصراحة ويفضل التفاوض معهم على التفاوض مع حكومات بغداد، وقد وجدهم دائماً احفظ للعهد الذي يقطعونه. لايعمدون الى المراوغة في اتخاذ موقف سلبي من مطالبة [بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين السفارة البريطانية في بغداد قبيل ثورة 1945 محفوظ في ملف وقائع المجلس العرفي العسكري الذي حكم فيه بالموت غياباً، وبعضها كشف عنها قاسم في مؤتمره الصحفي- ايلول- سبتمبر 1961 عندما اعلن عن قضائه على الثورة]. لم ينخدع البارزاني قط بمناظر النجاح الشيوعي الذي ابرزته الدعاية السوفيتية باتقان لامزيد عنه.

لكسر الطوق الذي ضربته معاهدة سعد آباد (1937) على النضال الكردي. واستغل حذر تركيا وايران من النظام الجديد في العراق بأفضل مايمكن. عندما اندفعت فرق قاسم العسكرية الى احشاء كردستان لتصفية الثورة وبقي هذا الحذر والتنكر بل العداء بتعاقب الانظمة الثورية في بغداد. ولم تكن نتيجة ذلك تحييد تركيا في هذا الصراع فحسب بل أمنت لها خط رجعة ودعماً ماكانا يدخلان في حساب اي حالم او سياسي واسع الخيال. فقد اقبل النظام الايراني دون خوف او وجل من سريان الثورة الى قرابة اربعة ملايين كرده، للمساندة الواسعة النطاق بشقيها المادي والمعنوي. ولم يكتف بهذا بل جر معه اسرائيل[17] ثم الولايات المتحدة نفسها زعيمة الائتلاف الثاني في الحرب الباردة.

وبلغ النصر السياسي الذي حققته الثورة اوجه عندما مد المعسكر الاشتراكي يده ايضا للثورة بالمساهمة المادية والدعم المعنوي في عين الوقت وبادراك واضح منه انها ستؤمن له يوماً ما نوعاً من الدالة او عنصر تهديد لحكام بغداد، وقد بقيت تلك المساعدة ذات طابع رمزي محدود بالمقارنة.

ان المرحلة التي بلغتها الحركة التحررية الكردية بثورة العام 1963؛ لم ينل منها طائل الخذلان الذي آلت اليه في العام 1975.

فمطلب الحكم الذاتي الذي قدمته الثورة رسمياً في العام 1963، وارغمت على الاقرار به وقبوله مبدئياً حكومة قومية عروبية في العام 1970، ماعاد يمكن الرجوع منه.

وقد تكرر هذا المطلب في المذكرة التي وجهها الحزب الديمقراطي الكردستاني (ايران) اثر سقوط الملكية وقيام الحكومة الاسلامية، وخاض الحزب في سبيل ذلك معارك وسفكت دماء كثيرة. كان آخرها اغتيال امين سره العام ولفيف من افراد قيادته في كل من ڤيينا وبرلين. على يد خلفاء "الحشاشين" وهم اساتذتهم تأريخياً. ومن آثارها الباقية انها ارسلت صعقة كهربية في كل كردستان.

القضية الكردية بين المثقفين و«العشائريين»:

مازال المجتمع الكردي ريفياً- عشائرياً. وكثير من الحضريين في المدن والقصبات ومثلهم مثل كثير من المثقفين- مازالوا يعتزون بانتمائهم القبلي في الحاق النسبة بالكنية الى اسمائهم الاولى. وبقي المناضلون الوطنيون الى يومنا هذا وسيبقون موجهين وقادة فكريين فحسب مادام الريف والقبيلة الذراع الضارب في الحركة، يحتلان الميدان النضالي[18].

17- ذكر احد معاوني "البارزاني" البارزين مؤخراً في تصريح له لمجلة عربية تصدر في لندن ان تلقي المساعدات من اسرائيل كان عملاً خاطئاً دون ان يبسط وجه الخطأ، ومع ان هذا السيد كان في حينه من اشد المتحمسين لذلك التعاون، فما ادري اكان يعد من قبيل الخطأ زيارة السادات لاسرائيل والقاء خطابه في مجلس نوابها، وعناقه مع رئيس حكومتها في كامب ديفيد ورفع علمها في القاهرة، او بالاحرى احتضان عرفات والملك حسين لرئيس حكومتها. وقيام ثانيهما بابرام معاهدة عدم اعتداء. اهو من قبيل الاغلاط السياسية ايضاً؟

18- يتمسك عدد كبير من المثقفين الكرد ساكني الحواضر والمدن بأنسابهم القبلية او الاسرية المشيخية ذات العراقة وان لم =

يصعب جداً تحديد دور وحجم الطبقة الكردية المتنورة وهؤلاء هم من نطلق عليهم بالكردية اسم: (رەوشەنبیران).

لاشك في اننا لانقصد بهم كل من الم بالقراءة والكتابة عموماً وبدرجات متفاوتة وممن اتخذ الزي الغربي لباساً وسكن الحواضر والمدن سكنى قرار.

وينبغي لنا ايضاً ان لاندخل في اطار تحديدنا هذا- سائر من حصل على درجة جامعية، او تخرج في معهد دراسات عالية. ومَثَلُ الكرد مَثَلُ غيرهم، في ان معظم المقبلين على الدراسة لايطلب العلم والمعرفة الا بهدف تأمين مركز اجتماعي او كوسيلة لتأمين دخل جيد. وقليل منهم من طلب العلم لذاته. واقل من هذين اولئك الذين قدحت شرارة الوعي القومي في انفسهم استعداداً للتفرغ والعمل النضالي.

وبعوامل شتى تبعاً لظروف سياسية زمانية ومكانية ينشأ هذا الاتجاه النضالي ايام الدراسة في اغلب الاحيان وهؤلا هم المثقفون الحقيقيون الوطنيون الذين نعنيهم هنا، اولئك الذين وهبوا انفسهم بكل مافيها من استعداد للتضحية للقضية الوطنية. واثرهم في ارهاصاتها وتقدمها اثر عظيم جدا ولايمكن التقليل من شأنه قط. ولايدخل في سلك هؤلاء اولئك المثقفون الذين يتكاثر عددهم بعد الحركة الوطنية ويتناقص بجزرها. وهؤلاء هم الانتهازيون الذين لايصيب منهم الكفاح الوطني نفعاً بل ضرراً. وهم يندرجون في قائمة فصائل المرتزقة (الجاش) الذين تجندهم الحكومات لقتال الانصار الكرد في ثوراتهم.

وتأثير المثقفين الوطنيين في تهيئة الاجواء لعمل وطني ايجابي جماعي كالثورة او التظاهر الاحتجاجي الجماهيري او العصيان المدني لاينكر قط. وتأريخ النضال الكردي القريب يؤيد ذلك بلا جدال. الا ان هذا التأثير يبقى موقوتاً محدوداً ان لم يتزامن مع نضوج شعور الثورة في الريف وبين العشائر او يتجاوب معها عند انفجاره. وستبقى القوى العشائرية مصدر القوة الدافعة للعمل في ميدان التحرر. مادام المجتمع الكردي ريفياً قبائلياً في معظمه.

ويغلب على ظني ان سلطات الاحتلال البريطاني كانت تدرك الصلة الوثيقة بين العشائرية والدائرة المثقفة الكرديتين وسرعة التجاوب، بل تلقائيته عندما لجأت الى تطبيق نظام (ساندمان-بروس) على العشائر في الوقت الذي عمدت الى فتح باب الوظائف والمراكز الادارية للمثقفين الكرد من ضباط

= تعد دوائرهم الخاصة مصدراً للوجاهة او وسيلة للتقدم وهمهم ان تبقى صلتهم القبلية دائمة. ولم يسقط الاخرون هذا الانتساب اختياراً بل لأنهم فقدوا صلتهم القبلية بعامل الاستقرار الدائم، او لانها قد لاتكون مصدر اعتزاز ووجاهة والامثلة لاتحصى. وسأقتصر على عدد قليل: في سورية بدا الانتماء القبلي واضحاً من اسرة البرازي التي انجبت اثنين من رؤساء الوزارات، حسني البرازي الاستاذ في كلية الحقوق ومحسن البرازي وهو محام وموظف اداري كبير. ومثلها آل بابان في العراق الذي يتمسك افرادهم باللقب رغم حضريتهم التي تقارب قرناً ونصف قرن. وآل الجاف وبكزادتهم الذين مر على استقرارهم الحضري اكثر من سبعين عاماً. والاسرة الطالبانية التي تنتمي اصلاً الى عشيرة الزنگنة وتدعي برناستها... وغيرهم وغيرهم.

وموظفين عثمانيين بغية فك الصلة وابعاد الفريق الاخير عن حقل الجهاد القومي ففشلت كما قدمنا. ليس في تاريخ الثورات التحريرية العالمية مايعدل المثال البليغ الذي يعرضه نضال الشعب الكردي خلال المائة والعشرين عاماً الماضية. وهي الفترة التي اخرجت الطبقة الكردية المثقفة اشطاءها من التربة النضالية لتتجه رأساً الى التنسيق والتعاون مع الشيوخ والزعماء القبائليين الثائرين. ولم يحاول اي فريق منهم كما تجري محاولات بعضهم اليوم الانتقاص من الدور الرئيس الذي تنهض به الزعامة العشائرية باي زعم وباي غطاء، واول الانتقاد والانتقاص هو الاتهام بالجهل والامية وضيق الافق الثوري[19].

في كردستان ايامنا هذه يصعب استبدال الولاء الفكري المحض، بالولاء القبلي وهذا الواقع

19- من قيادات الثورات الكردية التي اتخذت ابعاداً عالمية بزعامتها العشائرية اذكر فحسب الشيخ عبيدالله النهري الشمديناني الذي قاد ثورة 1879-1881 فبالنظر الى تقويم المؤرخ روبرت سبير -Robret Speer: The Hakim Sahib The Foreign Doctor: A Biogrophy of joseph plum cochron M.D.of Persia ص 81 ط نيويورك 1911 أنه كان شيخاً دينياً وزعيم طريقة فضلاً عن زعامة قبائلية، عالماً متفقها في علم الكلام والحديث، يتقن العربية والفارسية فضلاً عن التركية قرأ العهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس الا انه لايلم بطرف من العلوم الحديثة واذكر الشيخ عبدالسلام الثاني البارزاني والشيخ نور محمود الدهوكي اللذين كانا يعملان بالتنسيق مع القوميين المثقفين الكرد في جمعية التعالي والترقي وهما اللذان طيرا البرقية الشهيرة الى الباب العالي ذات النقاط السبع. كان البارزاني (1908-1913) زعيماً قبائلياً وروحياً متفقهاً في العلوم الدينية [راجع بارزان والحركة التحررية الكردية بقلم پى رەش. طهران 1983.]

والشيخ محمود الحفيد البرزنجي ذو الثورات المتعددة (1919-1927) وصاحب اول كيان سياسي كردي حديث كان شيخاً دينياً عشائرياً، اديباً شاعراً يتقن الفارسية وينظم بها، فضلاً عن التركية. التف حوله المثقفون والضباط الكرد واستعان بهم في اقامة حكومته ونظامه الاداري. والشيخ سعيد پيران قائد ثورة (1925-1926) وقد قامت اثر نفي وابعاد جمهرة المثقفين الوطنيين الى غرب تركيا. هو زعيم قبلي والشيخ الاعلى للطريقة النقشبندية عالم متفقه يتقن الفارسية والتركية الى المام كاف بالعربية. قامت ثورته على الحلف الذي عقده مع عشائر الزازا والبوتان. وفي كردستان ايران لم ير المتعلمون والمثقفون الذين اسسوا الكومهله (جمعيت بعث كردستان) بدأ من ان يجعلوا القاضي محمد رأساً لكيانهم السياسي في (1946-1947) وزعيماً معترفاً به لحزبهم وهو شخصية دينية لم يقطع حبال انتمائه القبلي. أديب وشاعر باللغتين الكردية والفارسية. يلم بطرف من التركية والعربية وقد كان المثقفون الكرد في العراق على دراية تامة باهمية وضع ملا مصطفى البارزاني وهو في منفاه على رأس حزبهم في العام (1947) غير ناسين ان يجعلوا من زعيمين قبليين آخرين نائبين له وان يقنعوا بالخلفية وهم لايملكون منه غير السمعة والاسم وقد طبقا ارجاء كردستان. تلقى ملا مصطفى في حداثته ومطالع شبابه جل ماامكن تلقيه من علوم الدين [علم الحديث والكلام والفقه] وقد وجدته اكثر من مرة يناقش علماء الدين في مسائل فقهية دقيقة عن سنوات النفي ذكر لي ولغيري انه كان طوال اربع سنين يدرس الى جانب اللغة الروسية علوم التاريخ والجغرافية والطبيعيات والفيزياء. وقد عاد وهو يتقن الروسية اتقاناً مدهشاً. الى جانب اتقانه العربية خطابة وكتابة وقراءة، ومثلها الفارسية. وهو كذلك يلم بالتركية. وبكل اللهجات الكردية. وكل هذا لايحظى من مثقفين معينين بدرجة من الاحترام. ويقينا ان زعيم حزب العمال الكردستاني pkk يعد من طائفة المثقفين فهو ريفي عشائري يفخر كثيراً بنسبته الى هذه الطبقة المعدمة. لايملك من الدراسة غير التحصيل الثانوي. ويصعب عليه مخاطبة الجمهور بلغة الام (الكردية) فيلجأ الى التركية في مواجهته ومع هذا كله فقد نجح في العام 1979 في تجنيد جمهرة من المثقفين في كردستان تركيا لخدمة حزبه وقواته الضاربة.

يفرض كما فرض قبلاً. التفاهم والتنسيق والتعاون الوثيق بين الولائين، ان شاءت طبقة المثقفين ان تحافظ على قيمها ومفاهيمها، ليكون لها دور قيادي فاعل ومؤثر. على المثقفين ان يضعوا الحقيقة والواقع نصب اعينهم، وهو ان المجتمع الكردي مازال في الجوهر قبائلياً، وان الفروق الطبقية والحضارية مازالت قائمة بين سكان الحواضر وسكان الريف والوسط القبائلي مؤثرة وفاعلة وان قاعدة وجماهير كل حزب هي في الريف وقواته الضاربة هي افراد العشائر والولاء العشائري ينهض باعباء الدور الرئيس. وعلى المثقفين في القرن الحادي والعشرين ان يقنعوا بهذا الذي يمليه واقع الحال مع محاولة استبداله ان استطاعوا له تبديلاً. والطالباني يصر على ابقاء كنيته القبائلية مثلما لايستطيع البارزاني ان يتخلى عنها.

في العام 1975 بعد الخذلان الذي اصاب ثورة 1961 الكردية، حاولت جماعات من المثقفين لاسيما المعسكر المتخلف من انشقاق العام 1964 ولاسباب خاصة ان تلقي تبعة الخذلان على مااسمته بالزعامة العشائرية وتقصد بهاء قيادة [ملا مصطفى البارزاني] وحاولت هي وجماعات انفصلت عن الحزب الام بناء تنظيم سياسي غير عشائري. والذي حصل فعلاً ومنذ البداية حتى كتابة هذه السطور ان تلك القيادات "المثقفة" بقيت ترتكز على القاعدة العشائرية في عملية التعبئة وتجنيد الجماهير. ولم يكن بامكانها قط ادامة نشاطها الفكري والعسكري الا بقوى عشائرية، ولم يكن بوسعها ان تنشط الا في ساحة وميدان عشائريين وان تعتمد الى حد كبير على نفوذ الاغا او الشيخ المحلي.

عناصر التحدي والمواجهة:

بالحصار الذي فرضه التقسيم الرباعي لجسم كردستان ارغمت قضية حرية شعبها على اتخاذ موقف دفاعي. وبقيت طوال قرننا هذا تصد الهجمات الفكرية والعسكرية بهدف المحافظة على المواقع التي كسبتها نتيجة نضال ابنائها وثمن دماء شهدائها، وبرد العدوان من سائر الجهات. وان كان يخرج عن موضوع بحثنا هذا، تقويم مقدار ما استطاعت المحافظة عليه من تلك المكتسبات ومقدار ماخسرته؛ فليس بامكاني اغفال التذكرة قدراً كبيراً من الفشل والخسار لايمكن ان يعزى لغير الكرد انفسهم وهذا مايجب ان تعلمه القيادات الحالية. وسيأتي شرح هذا في موضعه.

بالوضع الحالي الاجتماعي والجيوفيزيائي- السياسي لكردستان وبالارضية التأريخية التي اجملناها في اول بحثنا يبدو النضال القومي الكردي فهو اشبه بمفازه تيه[تيسيوس] الاغريقي، بفارق واحد وهو ان الكرد لايملكون اليوم وهم على عتبة القرن التالي من يربطهم بحبل يخرجهم من منعطفات المتاهة[20]. موقف فريد في تاريخ نضال الشعوب. فالتقسيم السياسي-الاجتماعي الذي فرضته دول

20- في الاساطير اليونانية ان "تيسيوس" حطت به مغامراته في جزيرة كريت. وان ملكها مينوس اودعه سجن من التيه لايخرج منه احد وان افلح احدهم في الوصول الى نهايته، فان الغول [ميناتور] سيكون بانتظاره على بابه ليفترسه ولكن (أريادنه) التي اغرمت به اعطته كرة من الحبال حال ولوجه التيه وارشدته الى كيفية استخدامها لتقوده خلال المنعطفات. وبهذه الوسيلة خرج سليماً وقتل الغول الراصد.

السلاطين والشاهات قبل ثلاث قرون، واثبتته بعدها اطماع الدول الاوروبية الحديثة في عملية توزيع مناطق النفوذ في الشرق الاوسط، بدا اليوم تتحكم فيه دول مستقلة متصارعة تحرص على حدودها وتستميت في محاولة منع تكوين دولة جديدة من اراضيها. وتستخدم كل وسيلة من وسائل القمع والارهاب والتهجير ومحاولة الصهر القومي احياناً. متخاصمة متنازعة ابداً، الا انها متفقة ومصرة على ان لايتحقق حلم الكرد الكبير.

لم تفلح حكومات الدول الاربع هذه في ازالة خلافاتها باتفاقات ومعاهدات دولية وستبقى كذلك كما يبدو؛ وفي هذا الافق المتلبد بالغيوم كان يلوح للكرد شعاع يمكنهم من شق طريقهم لاستغلال النزاع الاقليمي شيء كبير من النجاح. الا ان القيادات الكردية اليوم كما كانت في السابق وعلى اثر خذلان العام 1975 العسكري قد ضيعت فرصاً كبيرة بسلوكها المتقلب المتسرع او بالاحرى بابتعادها عن الخط التحريري-القومي.

الكرد اعداء انفسهم:

مازال المثقفون الكرد يعانون الى حد ما شدّة صدمة العام 1975. ولم يحاولوا بقياداتهم القائمة تخطي آثارها، واصلاح الاخطاء التي وقعوا وها نحن اولا، نرى آثارها الاحتراب الدموي القائم.

في العام 1975 قُضي على عملية تحييد القوى المعادية للنضال الكردي التي نجح في مدها قرابة ثلاثة عشر عاماً - البارزاني الذي كان على رأس الثورة الكردية... وفي خلال هذه المدة افلح الكرد كما بينا في تقديم قضيتهم الى الراي العام العالمي بعشرات من الكتب باقلام اجانب ومئات من التقارير الصحفية والافلام التلفزية، والى الحد الذي ارغم حكومة قومية متعصبة التسليم بحق الكرد في الحكم الذاتي بله اضطرت الى نقل الاترار القولي به الى الواقع العملي ولو بالشكل الممسوخ الذي فرضته.

الا ان ماحصل بعد ذلك لم يكن استمرارية ستراتيجية للخط العام وانما نكسة ارجعت بفحوى وفلسفة النضال الكردي خطوات الى الوراء.

في الحزب الديمقراطي الكردستاني احدث يساريوه ماركسيوه شقوقاً وفتوقاً. بداؤا، فعزوا اسباب النكبة "او النكسة" كما وصفوها. بالابتعاد عن المفاهيم التقدمية وقصدوا بها النظرية- الماركسية اللينينية. وخرجت باسم الحزب قيادة مؤقتة جعلت مركزها في "لندن" لا في "موسكو". تدين الاتجاه الثوري الكردي نحو الغرب وتعزو سبب النكسة الى رفض الاتجاه نحو اليسار والابتعاد بالثورة عن الاهداف العقائدية وانتبه إبنا البارزاني قبل فوات الاوان وسحبا الثقة بتلك القيادة ثم تخلصا منها بعملية تشبه الى حد كبير عملية ابيهما في العام 1959 في بغداد. وكلتا العمليتان كانتا تعودان بالفضل الى الولاء العشائري.

وفي العراق الكردي. نشطت تنظيمات داخلية من فلول الحزب المنشقة بعضاً بشعارات شيوعي

صارخ، وبعضها باهداف ماركسية- لينينية واضحة، بعضها كان يستطيب الظهور بمظهر تطرف يزهو به بالانحياز الى الايديولوجية الضيقة (تعاليم ماو) ومن بعض تلك الفصائل اجتمع ما عرف الآن بالاتحاد الوطني الكردستاني.

وفي الوقت الذي بدأت انظار العالم تتجه الى الثورة المضادة للنظام الشيوعي في البلدان الاشتراكية تهز أركانه هزاً، وتكشف عن معايبه وسوآته وفشله الاقتصادي خلال تجربة السبعين عاماً التي بدأت بقيام اول دولة ماركيسة. ابى زعيم النضال الكردي في الشق التركي الاّ ان يرفع العلم الاحمر ويتخذ لحزبه اسماً ماركسياً مثيراً وينزع الى سياسة الارهاب والتخريب.

منيت الحركة النضالية الكردية بنكسة جسيمة لابسبب خذلان الثورة المسلحة على اثر اتفاق الجزائر في اذار (مارس) 1975 وحده، وانما بسبب البلبلة الفكرية التي عقبتها والمسؤولون عنها المثقفون اليساريون والماركسيون الذين كانوا فيها او في عداد مناصريها. اطار هذا الخذلان صواب المثقفين هؤلاء، ولم يحاولوا لسذاجة سياسية فيهم او لغرض معين في نفس بعضهم ان ينظروا الى هذا الاتفاق كما يجب ان ينظر اليه بأنه عملية مساومة على المصالح بين دولتين متنازعتين. وانما نظروه او صوروه للشعب الكردي ولانفسهم. ودرسوه باعتباره مؤامرة امبريالية- استعمارية واسعة النطاق على تطلعات الشعب الكردي ونضاله. واستخلصوا من هذا بأن الخطأ الكردي يكمن في اعتماد الثورة على الغرب الذي كان نتيجة لتخلي الحزب الديمقراطي الكردستاني رأس الثورة- عن اهدافه وفلسفته الاصيلة التي قام عليها! فالسبيل الوحيدة لبدء النضال بشكل صحيح هو الى تلك الفلسفة وهذا يفرض الابتعاد عن المعسكر الامبريالي- اي الغرب. النتيجة؟ لم يعد الغرب صديقاً بل عدواً ينبغي الحذر منه او العمل للتخلص من حبائله، والاتحاد السوفياتي زعيم العالم الشرقي من جهته؟ لم يكن مستعداً في اي وقت ليربط مصالحه بحركة لاتفيده سياسياً، ولا هو مهيأ لنبذ سياسته الثابتة في انشاء علاقات صداقة وتعاون مع الدول والحكومات ايا كان لونها وشكلها، في مثار نقع الحرب الباردة. ولا التضحية بها في سبيل عباد له ومصلين لا يصلحون الا كأبواق دعاية.

بل لم يبلغ مثقفو الكرد اليساريون اي درجة من بعد النظر الذي اتصف به قادة ماركسيون في انحاء اخرى من العالم بتغطيتهم حركاتهم بغطاء تحرري صرف ديمقراطي اللون ليكسبوا عطف الغرب او حياده على الاقل وهم في طريقهم الى السلطة[21].

وآل الأمر بالپارتي الايراني الى خسرانه العطف والمساندة الغربية ايضاً. هذا الحزب الذي لاحقه

21- عندما قام (فيدل كاسترو) بثورته في كوبا ضد نظام (تروخيلو) لم يطبع حركته بطابع ماركسي وحاز عطف الولايات المتحدة والعالم الغربي بأجمعه حتى وصوله الى السلطة. وفي الحبشة بقيت حركة الجيش تتمتع بعطف كبير من الغرب وبحرية عمل حتى تم القضاء على حكم: الامبراطور (هيلاسيلاسي) ولم يطلق الانقلابيون اي شعارات ماركسية او اشتراكية طوال فترة غير قصيرة بعد استيلائهم على السلطة. وفي جنوب افريقيا قنع الحزب الشيوعي بان يكون فصيلة صغيرة في المؤتمر الوطني ولم يرفع شعاراً طوال عشرين سنة من العمل غير القضاء على التمييز العنصري. وضمان السلطة للاغلبية.

نظام الشاه واضعفه الى الحد الذي ارغم قياداته المتصارعة والمنشقة على نفسها احياناً على النزوح الى الخارج، بقي أميناً على اتجاهه الماركسي وقد ظهرت به قيادته للعلن اثر الاطاحة بنظام الشاه وظنت بقصر نظر ان الحال سيتبدل بقيام السلطة الدينية وتقدمت بمطلب الحكم الذاتي بحركة تلقائية مسلحة في كردستان ايران الشمالية. فقمعت هذه الحركة القليلة التجارب بقسوة ووحشية غير مسبوقة من اي نظام ايراني سابق والجئت فلول الحركة المسلحة الى ربط حظوظها بنظام العراق وخوض الحرب الى جانبه، كما عقبت قياداته في الخارج وارسل سفاكو النظام الايراني وراءها ليغتالوا عناصرها فرداً فرداً.

في تركيا اعتلى حزب العمال الكردستاني (پ.ك.ك) موجة الغليان الجماهيري الكردي واعلنت المقاومة المسلحة باتجاهات ماركسية لينينية صارخة. بعقدها تحالفاً مصيرياً متين العرى مع الحركات التركية السرية اليسارية مستخدمة عين اساليبها النضالية في المدن. (تفجير القنابل، وتدمير الممتلكات والاغتيال). ولم يحاول في اي وقت من الاوقات فصل اهداف الحركة الوطنية الكردية عن اهداف الحركات السرية اليسارية التركية (غير المؤمنة باي شكل من اشكال صياغة لحق تقرير المصير اصلاً) فكسب النضال الكردي هناك وصفاً قبيحاً على الصعيد العالمي وادرج ضمن قائمة الحركات الارهابية عند دول الغرب.

مع كل هذا كانت موجة النضال الكردي في تركيا، موجة كاسحة. رغم خطط الحزب الماركسي واعتماده على المظاهر التنظيمية التي تذكر المرء احياناً بالاساليب النازية ويأبى الحزب كما ذكرنا. الا ان يبقى علمه الاحمر مرفوعاً في الوقت الذي كانت دول المعسكر الاشتراكي تتسابق في انزال اعلامها الحمراء وطيها. ويأبى الحزب الا ان يحتفظ في عنوانه بكلمة (العمال) وهي صفة نابية في واقع التأليف الطبقي الكردي في تركيا فاكثر من 90 بالمائة من الكرد هناك هم فلاحون ومربو ماشية و مزارعون، ولا طبقة عمالية يعتد بها الا في بعض المدن، وجمهرة من المهاجرين في الاقطار الاوروبية. يحتفظ الحزب بعنوانه هذا في الوقت التي اختفت امثال هذا المصطلح في عناوين الاحزاب اليسارية قاطبة، وبضمنها الاحزاب الشيوعية[22].

22- في العام الماضي عرض علي صديق نسخة من مذكرة وجهتها قيادة حزب العمال الكردستاني الى رئيس الولايات المتحدة كتبت بلغة انگليزية سليمة وطلب مني ترجمتها الى العربية كانت بجملتها مناشدة بالتوسط لانهاء النزاع والعمل للضغط على الحكومة التركية لتعديل موقفها من حركة التحرير الكردية التي يقودها الحزب على اساس الاعتراف بحقوق الكرد السياسية ومنح الكرد حكماً ذاتياً بدرجة ما. استوقف نظري من المذكرة هذه العبارة الغريبة «ان حزبنا ايها الرئيس يختلف عن الاحزاب الشيوعية الاخرى» فالتفت الى صاحبي وقلت له ضاحكا ان كنت قادراً على تفسير هذه العبارة لي واقناعي بمنطقها، فمن لرئيس الولايات المتحدة بشخص مثلك يقنعه بان الاحزاب الشيوعية تختلف فيما بينها اهدافاً ونظرية واساليب وكم سيكون هذا الاختلاف في حالة وجوده كافياً لحمل الولايات المتحدة على تبديل سياستها تجاه تركيا لخاطر عيون الـ P.K.K. ولاخراج اسم هذا الحزب من القائمة التي عملتها وزارة خارجيتها بأسماء الجمعيات والمنظمات الأرهابية العالمية التي تتبنى مكافحتها؟ وفي مقابلة اجرتها لي مجلة [سةرهةلداني نوي - اليقظة الجديدة] في العام 1995، قلت في جواب على احد الاسئلة من الخطأ الفادح ان يترك =

احق ان الكرد اعداء أنفسهم؟ كم في هذا القول من واقع؟

في العقد الثامن من هذا القرن وجدنا (البارتي) الايراني يقاتل الى جانب العراق، و(البارتي) العراقي يقاتل الى جانب ايران. وكثيراً كانا يشتبكان في قتالٍ جانبي. ثم تتبدل المواقف والمواقع فيأخذ احدهما مكان الآخر.

وحزب العمال الكردستاني الذي لايقوى على الصمود في حربٍ سجال فوق رقعة الاقليم الكردي بمواجهة اكبر جيوش دول الشرق الاوسط، وتحرم عليه انطلاقات فصائله المسلحة من قواعد سورية وايرانية رغم مساندتهما الخفية له. وكلاهما يتناوبان في الاستعانة به والافادة من نضاله على ضوء علاقاتهما بتركيا. فلايجد مندوحة من شن هجماته الموضعية من الارض الكردستانية في العراق ليزيد في شقاق الحزبين المختصمين هناك حدة وسعاراً وليجلب المزيد من المصائب والآلام للشعب الكردي.

كيف يمكن البحث عن نصراء واصدقاء للنضال الكردي؟ وها هم بعضهم ممسك بخناق بعض؟

في نضال الشعوب من اجل التحرر لامحل لليأس. وان لم يكن فلعلة واحدة وهي ان الواقع والتأريخ والتطور الاجتماعي لايعترف بخصومة شعب لشعب. وما قد يبدو في الظاهر كذلك انما هو خصومة حكومات ودول وحكام مستبدين وهؤلاء يأتون ويذهبون، هم زائلون والشعوب باقية ترتبط فيما بينها بوشائج انسانية ابعد ماتكون عن صلات استرقاقٍ او استغلال شعبيين. ولم يحصل في اي وقت ان حصلت حكومات او حاكم على موافقة شعبية لشن حرب ضد شعب آخر او استعباده باي شكل من الاستفتاء او الاعراب الحر عن الراي.

والشعب التركي ليس عدوا للشعب الكردي، ولا الفارسي، ولا العربي بالأخص اذ لامصلحة هناك. والعلاقات التي تؤدي الى حالات الاستعمار والاسترقاق ومصادرة الحقوق هي مجرد مصالح تفسرها الحكومات بالحرص على رفاه وأمن الشعب الذي تتولى أمره وبمقتضى خطط سياسية للزمنين القريب والبعيد. وقبل قرن ونصف قرن من الزمن ترجم واحد من كبار بناة الامبراطورية البريطانية هذا بمقولته الشهيرة:

ليس هناك صداقة ابدية بين الدول، ولاعداوة ابدية، وانما هناك مصالح [23].

= للعدو منفذ يطعن من خلاله باهداف الثورة ويشكك في انسانيتها ونبل مقاصدها. بأن يعزو اليها اعمالاً فردية ذات طابع ارهابي. ليس بوسعي ان افرق بين الغرض من قنبلة تزرع في مدينة تركية وبين اخرى في مدينة فرنسية او مصرية او جزائرية وتؤدي الى مقتل ابرياء. فالجريمة هي جريمة اي كانت اليد التي تقترفها ولايصح التكفير عن جريمة بارتكاب جريمة ومن الافضل ان تبدو الحركة الوطنية ضحية على ان تبدو معتدية.

23- هو اللورد بالمرستون (1784-1865) رئيس الحكومة البريطانية. وتطبيقاً لهذه السياسة كان حريصاً على كيان الامبراطورية العثمانية وواقياً لها من التفكك والانحلال لان مصلحة بريطانيا وقتذاك كانت تقتضي المحافظة عليه بوجه التهديد القيصري الروسي. بعد حوالي نصف قرن فحسب وجدنا الامبراطورية البريطانية صاحبة الدور الرئيس في =

وعلى اساس من هذا وجب على الكرد ان يخوضوا غمرات كفاحهم. وبحالهم الحاضرة من الصراع اللامنطقي المحلي كان عليهم ان يدركوا بانهم اضعف واعجز من محاولة تفتيت القوى المتغلبة ضدهم وتعديل مواقف بعضها، وتحييد جانب منها وكسب عطف ومساندة جانب آخر. والمرء هنا لايستطيع ان يمسك نفسه عن المقارنة بالمكانة التي احتلتها القضية الكردية ابان ثورة كرد العراق (1975-1961). في اوساط الرأي العام الدولي والعطف الذي كسبته بعالميه الشرقي والغربي وفي اوج الحرب الباردة، وبين مانراه اليوم.

اذن ففي موضوع تحديد القوى التي قد يأمل الكرد منها الى جانب قضيتهم وجب استبعاد الحكومات والدول. وعدم الاهتمام الكبير بالمعاهدات والاتفاقات الثنائية او الثلاثية او الدولة التي تؤدي الى سياسة الضم والالحاق القومي او تقسيم الشعب الواحد بين دول عدة، في هذه الحقبة من تاريخ البشر وعصر المنظمات الدولية والاهم في الأمر الوحدة، وحدة القصد والهدف فهما حجر الزاوية. لم يكن الموضوع الكردي. في اي وقت يتوقف على ارادة الولايات المتحدة او الغرب او روسيا خَلفَ (الاتحاد السوفياتي) في بعض جوانب من الحرب الباردة[24] بل يتوقف على ماتبذله الحركة التحررية الكردية من مجهود وما تؤمنه لنفسها من الاستمرارية والصمود وما يكسبه نضالها من احترام وتقدير، اكثر بكثير مما تكسبه من مقدار مايرتكبه خصومها من اخطاء وجرائم في اثناء تصديه لها. رأينا بأم أعيننا في قرننا العشرين هذا، كيف ارغم الرأي العام الحكومات على تبديل كثير من سياستها ومواقعها من حركات التحرير في اقطار كثيرة.

الامة العربية والقضية الكردية:

الى جانب الاقرار المبدئي بمشروعية الحكم الذاتي للاقلية الكردية في بلد عربي الاغلبية فضلاً عن

= تمزيق تلك الامبراطورية وازالتها من خارطة العالم. ذكر لي عضو خطير سابق في قيادة بعث العراق ان قرار حزبه الذي اتخذه بالاعتراف بحق كرد العراق في الحكم الذاتي لم يجر على اساس عقائدي في الواقع وكما نشره الحزب في حينه وانما جرى بعد مناقشة صريحة حول الاخطار التي ستظل تهدد سلطتهم لو بقيت الثورة الكردية المسلحة متواصلة وقدكانت في السابق عاملاً في اسقاط اربع حكومات. بل واقرب الامثلة لدينا شد انور السادات الرحال الى اسرائيل باسطاً يد الصلح وداعية لنسيان الماضي في اورشليم القدس وفي كامب ديفيد وفي القاهرة.

24- يحاول اليوم سادة الكرملين ان يستأنفوا دور سلفهم الاتحاد السوفياتي في سياسة الشرق الاوسط بحشر انفسهم في مشاكله. فهو شكل جديد يطالنا للحرب الباردة او تمهيد لاشعال نارها ثانية على الاقل وليس هذا بالمستغرب في معظم صانعي السياسة في روسيا اليوم. فهم شيوعيون سابقون من مخلفات الكيان القديم درسوا في معاهده وصعدوا الى قمة السلطة والمسؤولية بفضله واساليبه وبمقدار الحماسة والولاء للعقيدة. والولايات المتحدة والغرب مازالا في نظرهم عدوين لايؤمن جانبها ولكن لامفر من استجدائها العون وتلك هي السياسة الستالينية في الثلاثينات والاربعينات لو تذكر القاريء. ادلائل لامجال لاغفالها على اتباع النظام الروسي الجديد المسار القديم بمحاولة بريماكوف في 1991 التدخل لمصلحة النظام العراقي بهدف اخراجه من ورطة الكويت سليماً ومحاولته الاخيرة الظهور بمظهر المدافع عنه والنصير في الازمة التي افتعلها رئيسه مؤخراً. وليس اقل من هذين شأناً احياء تمثيلية «صيد السحرة» اعني البحث عن الجواسيس واصطيادهم.

تصريح زعيم دولة ناطقة بالعربية اخرى بحق الكرد في تقرير المصير والاستقلال في النهاية. فقد زحزح الكفاح الكردي موقف تركيا القديم في انكارها على اثني عشر مليون كردياً قوميتهم المتميزة باعترافها اخيراً بالوجود الاثنوغرافي لهذه القومية وبحقها في التخاطب بلسانها فأخرجت القضية الكردية من الاسار الذي وضعها فيه كمال اتاتورك مع ان هذا الاقرار كان شكلياً حتمته ظروف تركيا السياسية في محاولة لاعطاء نظام (ترغوت اوزال) صك براءة من التعصب القومي الاعتدائي، وكسائه وجها ديمقراطياً يمهد لبلاده السبيل الى عضوية الجماعة الاوروبية.

وفي ايران حيث هناك اقليم يطلق عليه رسمياً اسم كردستان، حيث استخدام اللغة والتراث لاقيد قومياً عليهما. بل كان الاصل الهندوروبي العنصري للكرد مبعث اعتزاز عند جهات مخصوصة. لاسيما في ايام الثورة وعلى عهد الشاه. لااري بوسع الحكم الاسلامي الا ان يطأطي هامته امام جلال ووضاحة الآية الكريمة... "وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم"[25]. مادام يفرض وجهة نظره السياسية التي تناقض واقعه. فهو من جهة لايعترف بحدود للاسلام عند رفضه فكرة الحكم الذاتي للكورد في ايران أو التسليم بحق تقرير المصير لهم، وهو من جهة اخرى يحرص على حدوده ويخوض حرباً للذود عنها.

على ان الارهاصات الاخيرة التي نتابعها في ايران بلهفة وشغف، تثبت ان هذه البلاد تنضو عنها بالتدريج لباس التشدد الاسلامي ونظرية تصدير الثورة الاسلامية عالمياً والعودة بايران الى مسار الدولة القومية السالف. وقد لاتمر عقود قليلة من القرن الحادي والعشرين، الا وستتاح فرصة للنضال الكردي القومي، لاستئناف نشاطه بحرية هناك.

اعطت يسارية (الپارتي الايراني) في حينه الحجة التي يريدها الانقلابيون الاسلاميون لقمع حركتهم الهادفة الى الحكم الذاتي. فقالوا في حينه انهم لايحاربون الكرد وانما يحاربون الشيوعية فيهم[26].

* * *

ويبدو ان النجاد اللغوي والاصول الانثروبولوجية التي تجمع الشعبين الكردي والايراني. وكذلك الانتماء العنصري المشاركة في التقاليد والعادات مع الترك فضلاً عن الجوار التاريخي لم تفلح قط وفي اي وقت في ازالة الوحشة السياسية المختلفة بين هذين الشعبين من جهة وبين الشعب الكردي من جهة اخرى.

والامر يختلف تماماً في علاقة الامتين العربية والكردية.

في زماننا هذا وفي المستقبل ارى ان الرأي العام المتعاطف على تطلعات القومية الكردية هو الرأي

25- سورة الحجرات.

26- والشيء بالشيء يذكر كان اعضاء الپارتي في العراق يحاكمون ويسجنون في العام 1954 وما تلاها على اساس كونهم شيوعيين.

العام للشعوب العربية. والشعوب الناطقة بالعربية.

وهو الجدير بالاهتمام وهو الجدير بالرعاية.

في العام 1955 او ربما في 1956 قال الامير كامران بدرخان. لصديق عزيز وزميل دراسة. وصاحب اضخم مؤلف عن الكرد وتاريخهم[27].

انه لمن الجوهري للكرد التعاون مع العرب. فالعرب هو الشعب الوحيد في الشرق الاوسط الذي يفهم الكرد ويعطف على الاماني الكردية. في الماضي كان الكرد يذهبون الى پاريس ولندن وغيرها من العواصم الاوروبية ليعرضوا قضيتهم. اما الان فكلنا يعلم بان هذا كان غلطة. وفي المستقبل علينا ان نذهب الى بغداد ودمشق والقاهرة.

وبفارق السنين وتغير المعادلات السياسية العالمية السريع خلال السنوات الاثنتين والاربعين التي مرت على هذا الاقرار الخطير وما ارى الطيب الذكر (بدرخان) الا وهو على قدر عظيم من الاصابة.

هناك تجاوب تاريخي حضاري شامل سائر ميادين الثقافة والعلم بين الكرد والعرب قل ان تجد له نظيراً في تاريخ العلاقات بين الشعوب. علاقة يتعذر ان تغفلها عين المؤرخ، بالغ مابلغ من الضحولة والسطحية وقصر الفهم... ولاتبارح مخيلة كاتب هذه السطور، محتوى المقال الرائع الذي كتبه الاستاذ عبدالرحمن عزام اول امين سر لجامعة الدول العربية، لمجلة الهلال في عدد تشرين الاول (اكتوبر) من العام 1943 بعنوان "الوحدة العربية" وقد ضمنه بالدرجة الاولى تلك الدعوة الحارة للتعاون العربي-الكردي، مؤكدا فيه على العلاقات الاسلامية العريقة بين الامتين ومستشهداً بالفضل العظيم لصلاح الدين يوسف ابن ايوب وغيره من القادة الكرد الذين خدموا الاسلام والعرب. مناشداً العراقيين وغيرهم من البلاد العربية التي يسكنون فيها اجتناب جرح مشاعر كردهم باي ثمن كان، لان الكرد شعب لايشك في ولائه وهم لايحاولون مطلقاً اصابة التطلعات العربية بأي ضرّ. وشدد على وصيته بوجوب عدم دفع الكرد الى الاعتقاد بان الوحدة العربية هي ليست بذات فائدة لهم... »

ومما يحضرني من النص ايضاً قوله بالمعنى: ان امال واماني العرب يجب ان لا تتوجه الى التوسع على حساب الكرد، والاحرى بالامة العربية (بعد تحقيق الوحدة) ان تترك للكرد حرية الاختيار بين الانضمام اليها او تفضيل الاستقلال عليها. فان فضلوا الاستقلال فيجب احترام رغبتهم وان لايكون ذلك مبعثاً للشنأن والحفيظة.

انك لاتجد بين الكتاب الترك والفرس وساستهم قدماءً، ومحدثين من نظر الى التطلعات الكردية بمثل هذا المنظار او بما هو قريب منه.

وفي مذكرة الاستقالة التي رفعها نوري السعيد رئيس حكومة العراق - الى حكومته بتأريخ 19 نيسان (اپريل) 1944. أرى ان اقتطف هذه العبارة:

27- الدكتور ودبع جويدة الذي ترجمنا بحثه في صدر الكتاب.

«اذا ماتبيننا ان ليس للاكراد العراقيين في العراق هدف يخالف مايصبو اليه باقي ابناء العراق... فهم كغيرهم يطالبون باصلاح الادارة. والعناية بالمعارف والصحة والعمران. اني اطلب عناية خاصة بالمناطق الشمالية (كردستان) والمبادرة باصلاح مايمكن اصلاحه... لايجب ان نجعل من تأخير بعض الاصلاحات وسيلة للاستغلال تعود علينا بالمتاعب وتكدر صفو العلاقات القائمة بين الاكراد واخوانهم العرب.

في دستور انقلاب الرابع عشر من تموز (يوليو) 1958 ورد ذلك النص الذي يترجم فعلاً عن تلك العلاقة التاريخية والحضارية باثباته ان الكرد والعرب شركاء في الوطن الواحد.

يطول البحث الهادف الى الاحاطة الشمولية بهذه العلاقة الحضارية التي شدت الامتين وحسبي ان اخذ بيد قارىء هذه الرسالة الى الموسوعة العربية الشهيرة واقصد بها كتاب وفيات الاعيان (لابن خلكان احمد) قاضي قضاة دمشق الكردي النجاد [1211-1282م] وتتضمن تراجم لسير سبعمائة وسبع وستين شخصية ذائعة الصيت في العالم العربي والاسلامي بينها اكثر من ثمانين عالماً وشاعراً واديباً وفقيهاً وعسكرياً وسياسياً ورئيس دولة وفناناً من الامة الكردية الفوا بلغة الضاد وحدها، وحكموا بلاداً غلب عليها الطابع العربي وقاتلوا دفاعاً عن اهلها وذوداً عن حياضها[28].

28- بتخطي العصور الى القرن العشرين تتسع رقعة العطاء الكردي واسهام رجال الفكر والادب في النهضة العربية والحديثة، كما يفسح المجال للكرد في تسنم اعلى المناصب السياسية في الدول الناطقة بالعربية دون ان يثير اي حساسية او تساؤل. في القرن العشرين ، اكمل كاتب كردي آخر مابدأه (ابن خلكان) فقد اصدر خيرالدين الزركلي (بضم الكاف المعجمة لابفتح الكاف) موسوعته الشهيرة "الاعلام" ذات المجلدات الضخمة الثمانية. وفيها كما في غيرها جمهرة تبهر الخواطر والعيون من نوابغ الفكر والادب والعلم ورجال السياسة الكرد الفوا وكتبوا باللسان العربي الذي لايعرفون غيره. وما اكثرهم. لكني ساقتصر هنا على ذكر بعض ممن تعدت شهرته البلاد العربية والشرق الاوسط وتناولته الاقلام الكتاب الاجانب من اوروبيين وغيرهم، ويأتي في اول القائمة الامام الشيخ محمد عبده (-1905 1849) احد اركان ثورة احمد عرابي الوطنية 1882. المجدد الخالد في الفكر الديني الاسلامي الحديث، الذي وصفه العلامة الدكتور شوقي ضيف باكبر مصلح ديني عرفته الامم الاسلامية في عصرها الحديث. ومنهم المصلح الاجتماعي الكبير (قاسم امين) (1863-1908) اول من نادى بتحرير المرأة من الجهل والامية واعطائها حقوقها ومساواتها بالرجل. واول من دافع عن حرية الرأي والمباديء الديمقراطية بما نشر من كتب ومقالات. ويلحق بهما احمد شوقي (1868-1932) أمير شعراء العرب في عصره المجدد في الشعر العربي ثم عباس محمود العقاد (1889-1964) المفكر الكبير والكاتب الشاعر واضع اسس النقد الحديث في الادب العربي. وأحمد باشا تيمور (1871-1930) العالم اللغوي الباقعة بتأليفه العلمية واللغوية والتأريخية، ومحمود تيمور (1894-1973) ابو الرواية والاقصوصة العربية الحديثة. وواضع اسس التأليف المسرحي العربي. وفي سورية خلافاً للزركلي، يطالعنا علم من اعلام النهضة الفكرية العربية هو محمد كرد علي (1867-1953) مؤسس المجمع العلمي السوري ورئيسه الدائم صاحب المؤلفات الادبية والعلمية النفيسة. وفي ارضها نبتت زعامة ابراهيم هنانو (1869-1935) السياسية الوطنية ذلك الوطنيّ المجاهد الذي لبست سورية كلها الحداد عليه وشيعته بمآتم وطنية، الرجل الذي استقطبت حوله حركة مقاومة الانتداب الفرنسي في القطر السوري. وقد كان شاعر العراق الكبير جميل صدقي الزهاوي كردياً مثلما كان الاستاذ محمد بهجت الاثري الاديب الكبير. ويسجل التاريخ الحديث لسورية اثنين من رؤساء الجمهورية واثنين من رؤساء الوزارات هما محسن وحسني البرازيين. وكلهم من اسر عشائرية كردية لاجدال حولها كما يسجل للعراق اثنين من رؤساء الحكومات على الاقل. الى جانب طائفة من رجال السياسة والدبلوماسية والوزراء.

لم يَعُدُ الصواب هذا الأمير الكردي الذي قضى حياته يعمل لتحرر الكرد حين نصح بالتعويل على العرب. وسيبقى حديثه صحيحاً واقعياً رغم الاحداث الدرامية المتسارعة التي طرأت على قضية كفاح شعبه خلال النصف الاخير من قرننا هذا، حيث بدت واشنطن ولندن ودبلن وباريس ولندن، بله انقره وطهران مراكز تتخذ من اجل فض النزاعات المأساوية الدموية التي نشهدها من الحزبين المتناحرين على حكم هذه الرقعة الصغيرة من كردستان.

ولاغرابة في ان تجد اللغة العربية، اكثر اللغات استخداماً من قبل الكتاب الكرد لشرح مطالبهم الوطنية. وان ترى المكتبة العربية زاخرة بكتب حول الكرد بل هي ايضاً مستودع لكل ما الف عنها بلغات أخرى. لايصدر كتاب اجنبي اللغة الا وتجد بعد برهة ترجمة له الى لغة الضاد.

فلا عجب والحالة هذه ان نصل الى هذه النتيجة وهي ان الاذن العربية اكبر الاذان انتباهاً واصغاء وعطفاً على شكوى الكرد.

وبالمقارنة التي لاسبيل للتجاوز عنها، كثيراً ماكان المجاهدون الكرد في تركيا وايران يجدون حسن ضيافة في المجتمعات العربية حيث تنعم الجالية الكردية بحياة كريمة وحرية حركة في البلاد الناطقة بالعربية عموماً عزت على اشقائهم في تركيا وايران والاتحاد السوفيتي (سابقاً- والكومونولث الروسي حالياً)[29].

والتحول الذي يجري الآن نحو الغرب هو التحول الذي المعت اليه انما املته السياسة العالمية وهو موقوت باغراضه، وليس حضارياً. وسببه يعود الى فشل القيادات الكردية في كردستان في العثور على حل لمشكلة الزعامة. وعلى فقرها في تفهم الظروف التي تمر بها مسيرة النضال الكردي، والحيرة في اتباع نهج ثابت لمستقبل الامة السياسي وهو ماسنتصدى له وشيكاً.

الكرد ووحدة القرار السياسي

مـاتزال الحركة النضالية الكردية تعاني آثار النهج العقائدي الذي استمدته رأساً من المطابخ السوفيتية رغم ان هذه المطابخ اطفأت نيرانها منذ سنوات سبع، وامسكت عن تقديم اطباق الدعاية الشهية لاشتراكييها من الخوارج والدواخل.

ومن بين هذه الآثار الاحتراب الشخصي على الزعامة. واهمال الأخذ بالأساليب الديمقراطية في معالجة الأزمات الداخلية، وعدم تداركَ الخطأ الذي وقعت فيه زعامات الاحزاب الكردية، في

29- في العام 1968 قام الشاعر والاديب الكردي العراقي مؤيد طيب بزيارة للكرد السوفيت في مدينة تفليس عاصمة جورجيا وفي ندوة ادبية طلب منه القاء كلمة في جمع منهم ثم سألهم عما يريدون ان ينقله عنهم لاشقائهم في الخارج فسكتوا وامتنعوا ودفعته دهشة الى الاصرار والتكرار فقالوا لانرى اي فائدة في هذا. فقد زارنا كثيرون من اخواننا قبلك وصارحناهم بواقع سوء حالنا وبؤسنا وعرضنا عليهم امثلة فوعدوا بان يكتبوا ويكشفوا للملأ مانعانيه من تفرقة وحرمان ومذلة قومية. الا انهم عادوا ليكتبوا عن الحرية التي يعيشها الكرد في الاتحاد السوفيتي وعن الامتيازات القومية التي يتمتعون بها. وكل هذا وليد خيال وتحيز واضح وتغطية وما نراك الا واحداً من هؤلاء.

تقاعسها عن إكمال مابدأت به جيوش الحلفاء في حرب الخليج.

الآثار الماركسية مازالت عالقة بالاحزاب الكردية المتصارعة وليس هناك اي نية كما يبدو للتخلص منها. والديمقراطية لاتعيش في اجواء كهذه ولا تتعايش معها. وما دعاه مرة بالتجربة الديمقراطية رئيس وزراء (كذا) كردستان لم يكن غير ادعاء مكذوب بالواقع[30] وفي العام 1990 اصدر السكرتير العام للاتحاد الديمقراطي كتاباً اثقل محتوياته بالنصوص الماركسية والاستشهادات باقوال ماركس ولينين وماوتزدونگ. وبعده بسنة واحدة اصدر عضو للمكتب السياسي فيه كتاباً يحض فيه على التمسك بالاشتراكية الماركسية ووجوب سير النضال الكردي على هديها. وهو كذلك زاخر بالاستشهادات والنصوص الماركسية. في حين يصر حزب العمال الكردستاني على اتباع النهج الماركسي في النضال بمجرد شعارات وعناوين وانتماء قولي لااكثر (لم اجد في كل ماوقعت عليه من ادبيات هذا الحزب درساً نظرياً واحداً للمبادىء الاشتراكية. او لمفاهيمه الكردية الخاصة فيها وهذا اعجب العجاب). وليس من قبيل الصدف ان يبقى تنظيم الحزبين كما كان عند تأليف الحزب الديمقراطي الكردستاني في العام 1946. نسخة من النظام الذي رسمه ستالين لجميع الاحزاب الشيوعية في العالم رغم مالحق بهذا الحزب بسبب ذلك من متاعب وتمزيق وانشقاقات عبر تاريخه الطويل.

وبالأساس افتقدت وحدة القرار السياسي في كردستان الجنوبية، منذ ان ارتفع التعاون المتبادل واشهر الفرقاء السلاح احدهما بوجه الآخر بمداخلة دموية لحزب العمال الكردستاني. وكانا قد اصبحا سيدي الموقف منذ غابت عن الانظار السلطة المركزية البعثية ونَعَمَ هذا الجزء العراقي بالحماية الجوية، الا انهما اعطيا الاولوية لعملية تثبيت المواقع، ورسم المجال الحيوي. والموقف كان يحتم ان تبقى قوات الحزبين شاكية السلاح، فالثورة قائمة، والنظام المركزي قائم.

وفي هذا الوضع الشاذ بدت المصحلة الحزبية اهم من الاهداف القومية الكردية العامة، وعانت عملية التقدم بالمجتمع نحو ديمقراطية الحكم وممارسة الحريات وبناء الجهاز الاداري من هذا كثيراً وتعثرت الخطوات الى هذين القصدين وواجهت عقبات من المبدأ بعامل المنافسة الحزبية.

ولنا في هذا دليل من الماضي القريب جداً.

وقعت صاعقة الهزيمة في الكويت على وحدات الجيش بكل ثقلها فتفرقت وراحت تهيم على وجهها تفتقد القائد. وفي كردستان لم يعد للجهاز الاداري رأس يديره ويدبره، واصابه شلل. وفصائل المرتزقة (الافواج الخفيفة) التي ساندت الانتفاضة الشعبية الكبرى ماكان بوسعها السيطرة والتوجيه، فما لبثت ان سلمت زمام الامور الى القوى الحزبية المدنية منها والعسكرية وانتظمت في صفوفها.

30- ذكر رئيس الوزراء هذا لجريدة الوفاق اللندنية في 17 شباط فبراير 1994 اثناء مقابلة قوله ان مايحصل في كردستان (العراقية) هو تجربة (ديمقراطية) فريدة من نوعها وهي تأخذ مسارها الصحيح يوماً بعد يوم، وانني ادعو احزاب المعارضة العراقية للعودة الى ارض الوطن ليناضلوا من اجل اسقاط النظام (العراقي) واقامة البديل الديمقراطي.

وبدلاً من ان ينظر جدياًفي قرار الزحف على العاصمة والقضاء على السلطة تصرفت السلطة الجديدة بشكل بدا وكأن كردستان الجنوبية لم تعد جزءً من البلاد العراقية[31].

مازال القرار السياسي مفتقداً، لكنه آت بلاريب عندما تهدأ النفوس الجائشة بالغضب والانفعال وبزوال الخلاف. وهذا القرار يتعلق بالمستقبل الكردي محلياً أي ضمن الاطار العراقي، وعالمياً اي بخصوص تطوير واثبات مبدأ حق تقرير المصير للامة الكردية في سائر كردستان.

وقد بدا واضحاً منذ البداية النضال السياسي- العسكري الكردي في العراق لايعمل على الانفصال واقامة كيان مستقل. وانما يطمح الى اكثر من الحكم الذاتي (الحقيقي) والعملي. او بعبارة اخرى الى نوع من اتحاد كونفدرالي او فدرالي ترسى عليه قاعدة الحكم المركزي في البلاد العراقية.

وقد اسرع حزب البارتي بالاعراب عن هذه الامنية المستقبلية ولحق به الاتحاد الوطني فإن اعتبرنا هذا الاعراب مجرد هدف تم تصميمه وفقاً لارادة الشعب الكردي وكثمرة لكفاحه المرير طوال نصف قرن تقريباً، فأن الخطوة صحيحة. ولاشك يساورني في ان الاتحاد الوطني وغيره من الاحزاب والفئات السياسية الاخرى لاتختلف معه في هذا، إلاّ ان الاعلان عن وقوعه وممارسته فعلاً، هو غير صحيح تكنياً ولا هو قانوني. ملزم وفي هذا شرح وتفصيل.

الحكم الثنائي (الفدرالية).

مبدئياً، لم يكن الحكم الثنائي وهو مانعنته بالفدرالية او الكونفدرالية. بالغريب الجديد في تاريخ الامة الكردية. فقد مارسته بشكله البدائي غير المعقد ردحاً من الزمن. كانت امارات كردستان شبه المستقلة تمارس كما المعنا اليه في صدر رسالتنا حكماً فدرالياً قبل ان يستحدث هذا النظام في امريكا باكثر من مائتي عام. فاسلوب حكم الولايات في العهد العثماني كان قريب الشبه بالنظام الفدرالي، فدرالية اتوقراطية بالأحرى. فالوالي كان عادة يمارس الحكم كرئيس دولة في حدود ولايته، وقد حفل تاريخ هذه الامبراطورية بوقائع وحروب شنتها ولاية على اخرى بأمر من السلطان او بدونه. وكان لبعض الولاة ان ينشيء علاقات خارجية مع دول اخرى بسماح من السلطة المركزية (السلطان) او بدونه.

31- المتواتر من الشهادات مايصح ان يقدم دليلاً دامغاً على غياب السلطة في العاصمة خلال الاسبوع الاول من الاستسلام العسكري. ويجمع كل من كان في بغداد انذاك ان القوات الكردية لو قررت الزحف اليها لما وجدت عائقاً ويؤكد الضباط والجنود المتفرقون المتمردون على ضباطهم وقادتهم والفارون منهم ان فلول الجيش كانت ستنضم الى القوات الزاحفة وان اهالي العاصمة سيستقبلون تلك القوات استقبال المحررين الخ... الخ... ان الكاتب ليس ستراتيجياً عسكرياً ولم يكن بين اولئك الذين تواجدوا موقعياً ليتاح له حكم صحيح على الوضع والموقف فهو في هذه الحال واستناداً الى ماسمعه من افواه البغداديين النازحين وما تابعه نقلاً عن وسائل الاعلام قد يرى في مثل هذه العملية، شيئاً اكثر من مجرد مغامرة عسكرية إنه يراها محاولة جديرة بالتجربة والتفكير الجدي. وحساب الخسارة البشرية المتوقعة على كلٍ، لن تكون اكثر من الخسارة التي لحقت الحزبين او الثلاثة خلال السنوات الثلاث الاخيرة.

ولم يكن هذا النظام قاصراً على الامارات الكردية. كان هناك مثيل له في مصر وجبل لبنان وولاية بغداد ايام حكم المماليك والحجاز في عدد من الامم والشعوب الاخرى التي انتظمتها تلك الامبراطورية.

لانكران في ان التطلعات المستقبلية الكردية كانت وما زالت ترنو دائماً وفي كل صقع من اصقاع كردستان الى يوم التحرر التام والوحدة السياسية الكاملة مثلما تمت الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية والوحدة البولندية. فالكرد ليسوا استثناء تاريخياً ولااثنياً ولاجيوفيزيائياً.

والفدرالية في العصر الحديث هي خير ضمان لعلاقة سليمة بين شعبين، وخير مادة يمكن استعمالها بنجاح تام لتطوير رواسب الماضي. كما هي كفيلة بالقضاء على كل اسباب الشك في النوايا. وهي بالاخير كفيلة باقامة نظام ديمقراطي على نطاق القطر وحارس له من الاعتداء والتغلب. وبدون الديمقراطية لايتحقق اقامة حكم فدرالي سليم. وهذا القول لايصدق على العراق وحده بل على تركيا التي يطلب منها الآن وفي المستقبل تطبيق المبادىء الديمقراطية فعلاً وهو الصك الذي يجب ان تقدمه للجماعة الاوروبية. ولايشين الحكم الاسلامي في ايران ان يمنح الكرد هناك حكماً ثنائياً. فليس فيه مايعارض النهج الاسلامي او شرعه ولاطراز الحكم الذي اتخذه الروحانيون لايران فلطالما نشأت دول فارسية مستقلة تماماً في ظل الخلافة العباسية لاتدين بالولاء الا اسمياً وبجامعة الاسلام.

وفي شعادر الفدرالية الذي يتخذ اليوم بطبيعته الديمقراطية تكون رجعة القضية الكردية الى ضمير الرأي العام العالمي ودخولها مجدداً في (منهاج) الدول صاحبة القرار، بالبرهنة عملياً على انها خلاف مايرميها به اعداؤها من تهمة الاتجاه الى التحرر على ظهر الحصان الماركسي اللينيني بله واخراج الفصيلة الكردية في تركيا من قائمة المنظمات الارهابية (وهو امر يعتمد على الكرد اولاً واخيراً). في غضون السنوات الاربع الاخيرة وبنشوب النزاع الحالي فقدت القضية الكردية العادلة موقعها المركزي في ضمير الرأي العام العالمي[32] وتحول الاهتمام الى مواقع ومشاكل عالمية اخرى لينزل بها مقام ثانوي. واسترجاع هذا المقام هو أمر حيوي لتحقيق الاهداف الوطنية.

نقول، ولدت الفدرالية في حضن كردستان الجنوبية قراراً معلناً في مبدء الأمر وليس شعاراً يتم السعي اليه. وعنصر الخطأ هنا ان الاتحاد الفدرالي هو اتحاد طوعي وتحقيق لرغبتين اي كان شكل التعبير عنها. وهذا لايتوفر الا في جو من السلام والهدوء لاتتحكم فيها القوة والسلاح، جو من الديمقراطية يكون فيه لعلماء القانون والساسة اليد العليا والكلمة الفاصلة، لا العسكريين ولا الساسة المغامرين.

32- اعلن الاتحاد الوطني الحرب على البارتي داخل اربيل عاصمة الحكم الذاتي وطرده منها بعد معارك وطارت معه الاجهزة الادارية والاشتراعية وتجربة الحكم والديمقراطية المشتركة ولاادري شخصياً كم هو عدد من يشارك في الرأي لائمي البارتي لعملية استعادة المدينة التالية التي قام بها بمساندة القوات النظامية العراقية ولايجدون كلمة لوم واحدة لمن كان السبب فيها.

وواضح ان الشعب العربي في العراق. باتخاذنا الواقع والتجارب التأريخية دليلاً - سيرحب بمثل هذا الشكل من العلاقة سواء باستفتاء عام او عن طريق ممثلين لارادته مادام هذا اللون من العلاقة سيضع حداً نهائياً للبؤس والشقاء والدمار الاقتصادي والتحلل الاجتماعي وسائر الاضرار الناجمة عن الحروب والاشتباكات.

وكل هذا يحتم على الفرقاء المعنيين باحلال النظام الاتحادي في العراق ان ينادوا به شعاراً الى جانب الديمقراطية. وهما كما قلنا شقان لاسبيل لأحدهما دون الآخر.

* * *

الأخطار التي تهدد مسيرة القضية الكردية الى القرن الحادي والعشرين؛ كادت تكون مشخصة. وما اوضحناه في الصحائف السالفة قد يزيل الشك والغموض فيها.

ان التمسك بالنظريات العقائدية المتطرفة التي اثبتت فشلها السياسي والاجتماعي يضر بالقضية الكردية ومكانتها على الصعيد العالمي ويفقدها عطفاً دولياً هي في امس الحاجة اليه.

قد يحتج بأن الاوضاع المضطربة في كردستان هي التي تسببت في اهمال زرع المفاهيم الديمقراطية في هذا الجزء من كردستان فما اعظم هذا الخطأ!. كان من الواجب ان يبدأ فوراً بديمقراطية كردستان. ونقطة الشروع هي اعادة نظر الاحزاب الحاكمة في منهجها وادبياتها. ووقف الانتهاكات لحريات المواطنين وحقوقهم باجراءات حاسمة تهدف الى ازالة آثار القمع والاضطهاد وسائر الاساليب التعسفية اللاديمقراطية التي اعتادوها من نظام الحكم العراقي. الا ان الانباء تتواتر وتتناجح على ان مايجري في اجزاء من كردستان هو استمرارية للحكم المركزي بعين الاجراءات والاساليب واية ذلك تواصل نزوح الكرد ونشدانهم اللجوء في بلاد اخرى. وانباء الاعتداءات على حريات المواطنين وضعف تطبيق القانون.

وليس باقل مما ذكرته شأناً هو داء الزعامة القتال، انه لمن المخجل حقاً ان يكون هذا عاملاً على شق الصفوف والانحراف عن الاهداف القومية، وسبباً في سفك الدماء وظهور طائفة من الذين يضعون انفسهم في عداد المثقفين، من اولئك المحسوبين على هذا الفريق او ذاك صحفيين او كتاباً؛ يزيدون باقلامهم الرقعة شقاً وفي الآراء بلبلة عندما ينصبون أنفسهم مدافعين عن هذا الحزب او ذاك، مقبحين تصرفات هذا التنظيم مقابل تمجيد ذاك.

ان انتهاك حرمة كردستان من قبل جيوش اقسى الانظمة معاملة للكرد يجب ان لاينظر من دون النظر الى اسبابه. وان تسابق وفود الحزبين الى بغداد يجب ان لاينظر اليه الا كنتيجة للصراع بينهما. ان المثقفين الكرد في الخارج يلحقون ضرراً عظيماً بالقضية الوطنية الكردية في التزام هذا الجانب دون ذاك. والقاء اللوم حول مايجري في كردستان على هذا الفريق او ذاك. وانا لست في معرض وعظ وارشاد فلاقف عند هذا الحد.

كانت الحركات الوطنية النضالية دائماً ذاتية الطابع في كردستان. اي تنشأ تلقائياً بحوانز واقعية.

ولم يسجل التاريخ لأي منها تهمة قيامها اصلاً بتحريض خارجي وبدافع قوى لاتمت اليها بصلة ولا استثني من ذلك تلك الحركة التي تمخضت بما دعي "بجمهورية مهاباد" ولايشين اي حركة كردية اعتمادها بالتالي على المساعدة الخارجية. فأنا لايحضرني اسم ثورة تحرير او حركة وطنية اعتمدت على مواردها فحسب دون ان تتلقى معونة من جهة خارجية. ولعل القاريء يساعدني في استذكار واحدة. الا ان الاعتماد الكلي على المساندة الخارجية بشقيها المادي او المعنوي هو الخطأ بعينه. والجدير بالنضال التحرري الكردي ان يبقى اعتماده الرئيس على قواه الذاتية.

كان الشعب الكردي وسيظل دائماً مضرب المثل في التسامح الديني وباستثناء حادث دموي واحد حرض عليه العثمانيون[33] وانتَ لاتجد في كل تاريخهم الاجتماعي عمل عنف جماعي او اضطهاداً مبرمجاً بحق الاقليات الدينية التي تعايشهم وانا على يقين بان ارض كردستان لن تكون لا الآن ولا في المستقبل موئلاً للمتشددين الاسلاميين ولا مرسحاً لجرائم يأباها الضمير الاسلامي والعالمي كالتي ترتكب باسم الاسلام في الجزائر، ومصر وافغانستان بحق المسلمين وغيرهم الا ان اليقظة من تسلل هذه المفاهيم الشاذة الى الحركات الاسلامية الكردية عبر الحدود هي واجبة لان تلك المفاهيم تعيق مسيرة النضال العامة بما تخلقه من مشاكل ابرزها الاصرار على اقامة حكم ديني الطابع لاي شكل من اشكال الحكم الذاتي يناله الكرد ولبعض الدول والقوى المجاورة مصلحة ذاتية في اصحاب الذقون المرسلة والعمائم الضخمة، ان الشعب الكردي يحتاج الى اكثر من الذقون والعمائم.

ولنغلب التفاؤل على التشاؤم. وهو ديدن المؤرخين واصحاب الفكر. فلكل خلاف ونزاع نهاية وقد يقتضي زمن ما من القرن الآتي لتنكأ الجراح الحزبية في كردستان ويشعر القادة والمتحكمون في المصائر شعوراً جدياً بالمسؤولية التأريخية. والشعب الكردي لايختلف عن باقي الشعوب في تقلب الحظوظ بين الرفعة والخفض. والقفزة والعثرة بل قد يفوق كثيراً منها في قابليته على امتصاص الخطوب والنكبات وتحمل المصائب والرزايا. وفي خلال قرننا هذا المشرف على نهايته ما استطعت احصي لشعب قدراً من التضحيات والبذل قدر ما احصيته للشعب الكردي الذي كان دائماً مستعداً للعطاء وكلما طلب زعماؤه ذلك منه. وزعماؤه اليوم يطلبون منه المزيد من العطاء والتضحية فعليهم ان يحاولوا مقابلتها باقل المكافأة. وهي المصافاة والاتفاق وحسن السيرة.

12 ديسمبر (كانون الاول) 1997 — جرجيس فتح الله

33- يذكر السر هنري لايارد المنقب العظيم والسفير البريطاني لدى الدولة العثمانية في كتابه Nineva and its Ruins ان الامير بدرخان البوتاني الذي عزيت اليه مذبحة آشوريي حكاري (1846-1847) انما باشرها بتحريض ودفع من السلطات العثمانية. (براجع مادونته في كتابي(آراء محظورة . ص124) من اقوال عن هذه الوقائع لحفيده كامران بدرخان اسرني بها اثناء لقائنا الاول في العام 1970.

فهرست الاعلام

لورود اسم الشيخ عبيدالله النهري في معظم الكتاب ارتوئ عدم ادراج اسمه في هذا الفهرست

حرف: ب. پ

حرف: ت

حرف: ج

حرف: ح

حرف: خ

حرف: د

حرف: ذ

حرف: ر

حرف: ز

حرف: س

حرف: ش

حرف: ص

حرف: غ

حرف: ف. ڤ

حرف: ق

حرف: ك. گ

حرف: ل

حرف: م

الفهرس

Georgis Fat-Hullah

Two Marginal Discourses
on
Sheikh Ubaidullahil Neri's Revolt

The Naqshabandy Sufi Path and its mark on the Kurdish national awakening The Kurdish question enteringinto the twenty first century Basically. a translated excerpt on the Sheikhs revolt from Dr. W Jwaida with two others (for analogy) by Dr. J. Jalili and Mr. David McDawall on the same issue.



الكاتب في غنى عن التعريف. فقد سبق لمتابعي منشورات دارنا لقاءات مشوقة به من خلال ترجماته وتآليفه العديدة لاسيما تلك التي تناولت جزءً من تاريخ الشرق الاوسط وأوضاعه السياسية المتعلقة بالوطن العراقي بسبب ما اتسمت به من آراء طريفة صريحة، وجراءة في الكشف عما يحاذر بعض المؤرخين طيّه، او يتعمدون اغفاله. وليس سرا أن لاتجد تلك المؤلفات سبيلها الى معظم البلاد الناطقة بالعربية وبعض البلاد الأخرى حيث تفتقد الديمقراطيّة وحرية القول. فيجري تداول نسخها المتسربة متحدية قرارات المنع واعادة الطبع في تلك البلاد. والكتاب الذي نقدمه للقراء الآن وان كان بعض أبحاثه تاريخاً وتحليلاً علمياً ففيه الكثير مما يدرجه في قائمة الممنوعات. وأفضل ما نفعله الآن هو أن ندع الكتاب يتحدث عن نفسه.

